

هارون

من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

4.....	المقدّمة
21	هارون
21	من وحي القرآن
195	من
195	صفات النبي هارون
195	1 . نبيا:
200	2 . رسولا:
247	3 . خليفة:
255	4 . وزيرا:
261	5 . موهوبا:
279	مكونات دائرة الممكن:
279	المتوقّع:
280	غير المتوقّع:
305	النبي
305	هارون من السنّة
305	هارون فصّح لسان ومكانة:
307	لين هارون وودّه:
376	احتجاج موسى على هارون:

- 378 جعل هارون لموسى :
- 392 هارون مقتدرا:
- 395 الحياة الدنيا تبقي وتزول:
- 396 وفاة هارون:

المقدمة

هارون عليه السّلام نبيا ورسولا ووزيرا اصطفاه الله عزّ وجلّ سندا
لرسالة موسى عليه السّلام، وهو ذو مكانة رفيعة عند بني إسرائيل،
وهو بما وصفه الله به في كتابه الحكيم هو رجل دولة (وزيرا) أي أنّ
هارون على مهام ثلاثة:

. النبأ

. الرّسالة.

. الوزارة.

ولهذا عصّد الله أزر موسى بأخيه هارون عليه السّلام وأناط بهما
دعوة بني إسرائيل وتخليصهم من عبودية فرعون وجبروته واستدلاله لهم،
ولقد نصر الله موسى وهارون وأهلك فرعون وجنوده، وأورث بني
إسرائيل الأرض من بعدهم

عُرف هارون عليه السّلام بفصاحته ومكانته في قومه، ومقدرته
على المخاطبة والمحااجة، فطلبه موسى عليه السّلام من ربّه لأن يجعله
معه سندا، قال تعالى: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ
مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي} ¹

ولهذا كان هارون سندا لموسى في حوارهِ مع فرعون والذين معه
من الكافرين؛ فكان الوزير بما وُصف به من وزارة، وهو المتمكّن من
الحجّة والفصاحة والمكانة عند بني قومه.

¹ القصص 34.

كان هارون عليه السّلام على منزلة عالية من موسى عليه السّلام، أي أنّ هارون رفيع المنزلة عند أخيه موسى وعند ربّه، ولهذا ثمّ اصطفاه رسولا مساندا لأخيه ومعين له على بني إسرائيل، وذلك كان هارون متميّز بوده ولين جانبه مع بني إسرائيل. وفي هذا الشأن روي حديث عن النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم يقول فيه لعلي: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي"²

ونحن في بحثنا عمّا يتعلّق بالرّسول هارون عليه الصّلاة والسّلام نقول: ما قاله الشيخ العدوي على تأصّل الوثنية في بني إسرائيل بالرّغم من دعوة موسى عليه السّلام لهم الأيام والليالي الطويلة، فيقول: "فهذا نبي الله موسى يمضي الأيام في دعوة القوم إلى توحيد الله تعالى، ويدأب على محاربة الشّرك والوثنية أيّما وليالي، ثم يترك أخاه هارون عليه السّلام؛ فيطمع القوم في حلمه ولين جانبه وودّه لبني إسرائيل، فينتهز السامري تلك الفرصة التي فيها أصبح ودّ هارون ظاهرا، ويعمل ما من شأنه أن يضل القوم وذلك بصنعه عجل من حلي الذهب والفضّة على نحو خاصّ، بحيث إذا مرّ الهواء يصدر منه صوت كصوت العجل، واستغل سذاجة بني إسرائيل وجهلهم، ومن ثمّ؛ فموّد هارون لقومه ولين جانبه تجاههم جعلهم يستغلون غياب موسى ويحيدون عمّا ارشدهم به موسى، ومن هنا؛ فالود مع أنّه قيمة رفيعة عند الله الودود الأعظم؛ لكنّها قد تستغل من قبل متربصي الدوائر في غير محلّها، ولهذا كانت صفة هارون من صفة الودود المطلق؛ فهو الذي بوّدّه خلق عباده في أحسن تقويم. وهنا فالودود هو الذي يحبّ الخير لجميع الخلق؛ فيحسن إليهم ويثني عليهم"³.

² الفصل حماية الرّسول حمى التوحيد، ص 94. في الملل والأهواء والنحل، 4، ص 78.

³ المقصد الأسنى، ج 1، ص 122.

وهو الذي "يُوَدُّ عِبَادَهُ الصَّالِحِينَ فيحِبُّهُمْ ويقربهم ويرضى عنهم ويتقبل أعمالهم، وهذه محبة خاصة بالأنبياء والصالحين، أما المحبة العامة؛ فالله هو الودود ذو إحسان كبير لمخلوقاته من جهة إنعامه عليهم وإكرامه للإنسان واستخلافه بينهم، حيث أسجد له ملائكته واستخلفه في أرضه على سبيل الابتلاء، واستأنمه في ملكه انتظارا لمزيد من الإكرام في دار الجزاء، وبعث إليهم الرسل وأنزل عليهم الوحي من السماء، كل ذلك بفضله وكرمه وعطائه ومدده"⁴.

وعليه فالودود: هو الله المتصف بالود، ولأنّ الود من ذات الله؛ فإن استمداده لا يكون إلا منه، ولهذا فالله الودود مصدر لكل ود كما أمدّ الله هارون بوّده.

والودود: هو غير منقطع الود، وهو الذي يوّد المودود بما لا يكون في حساباته، أو أنّه في حساباته ولكنّه في غير دائرة المتوقّع الزماني أو المكاني، أو الاثنين معا.

والودود: هو من يملك ما لا يملكه غيره، في الوقت الذي يكون الغير في حاجة ممّا يملك المتصف بالود، ولذا فالود لا يقابله إلا ودّ، والود لا ينتج إلا محبة بما تطوى المسافات بين الودود المطلق والودود بالإضافة، وهكذا يمتد الودّ من ودودٍ إلى مودودٍ من بعده مودود، ولهذا فالود يستخلف فيمن تهيأت نفسه لمبادلة ودّ بودٍ كما استخلفه في هارون عليه الصلّاة والسّلام

والله تعالى ودود بمغفرته حيث قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ

⁴ أسماء الله الحسنى، ج 23، ص 10.

يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْعَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جَزَاءُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} 5.

مع أنّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم إلا أنّه لم يخلقه على الكمال، فهو يُخطئ ويصيب ولأنّه كذلك فكان فضله عليه بالاستغفار ودّاً، ولأنّ فعل الفاحشة من الأفعال النواقص، فمن يرتكبها أو يظلم نفسه ويذكر الله فالله يغفر له فعلته لكل ذنب دون الشرك به، ولذا فالخليفة يذكر ربّه دون إصرار على فاحشة فيغفر له ذنبه، ولذلك لا يغفر الذنوب إلا الودود عزّ وجلّ. وقال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} 6، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِينٍ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّوهَا نصرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ} 7.

وهو تعالى ودود برحمته، قال تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُرْحَمَكُمُ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا

⁵ آل عمران 133 . 136.

⁶ الزمر 23.

⁷ الصف 10 . 13.

دَاوُدَ زَبُورًا قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا {8.

الرَّحْمَةُ مَكُونٌ قِيَمِي مِنْ أفعال الخير، وتستمد من الرَّحْمَن، وهي لا تمتح إلا من أبواب الودِّ، ولذا فللرحمة أبواب مفتحة لمن يود أن يدخل منها لمودة الرَّحْمَن خوفاً من عذابه، والخليفة بطبعة الإيمان هو دائما في حالة انتظار للفوز برحمة الودود، ممَّا يجعله فاعلا للخير ومحرضا على فعله. وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمَنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} 9، وقال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} 10.

ولأنَّ الودود المطلق هو الله فقد سأل موسى ربَّه الودود بأن يجعل له أخيه هارون وزيرا، قال تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} 11

والسؤال هنا:

⁸ الإسرائ 54 . 58.

⁹ القصص، 71 . 73.

¹⁰ الجاثية 30.

¹¹ طه 29 . 32.

من الجاعل؟

الله جلّ جلاله.

ومن المجمعول مع موسى عليه السّلام؟

هارون عليه السّلام.

أي طلب موسى من الله أن يجعل له وزيراً من أهله؛ فجعل له وزيراً من أهله (أخيه هارون عليه السّلام).

وعليه فالجاعل هو المؤسس للأشياء على ما ينبغي أن تكون عليه، والجعل مترتب على الخلق فالذي خلق السماوات والأرض وخلق الإنس والجنّ والملائكة هو الذي جعل هارون وزيراً ونبياً ورسولاً مع موسى.

إذا الجاعل:

هو القادر على جعل الأشياء على ما هي عليه خلقاً وطبعاً ونوعاً وجنساً وخاصية وصفة وفعلاً.

ولأنّه الجاعل جلّ جلاله فهو الذي جعل في الأرضِ رَوَاسِيَّ وجعل فيها فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وهو الذي جعل السَّمَاءَ سَفْقًا مَحْفُوظًا.

ولأنّه الجاعل فهو يُطَاع ولا يُعصى فيما أمر ونهى وحَدَّرَ وحَرَّمَ، قال تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} 12.

12 النساء 5.

ولأنّ الجاعل بالمطلق يسأل؛ فسأله موسى أن يجعل له من أهله
معينا له؛ فجعل معه أخوه هارون عليهما الصّلاة والسّلام. ولهذا
الجاعل بالمطلق يُطاع بالمطلق.

ولأنّ الجاعل عزّ وجلّ؛ فهو الذي جعل الأنبياء في أقوامهم
وأممهم أنبياء وملوكا كما هو حال بني إسرائيل، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ
وَجَعَلَ لَكُمْ مُلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} 13.

ولأنّ الجاعل جلّ جلاله فهو الذي جعل الكعبة البيت الحرام
للناس مثابة وأمنا. قال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا
لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 14.

ولأنّ الجاعل خلق ما خلق مجعولا على وظيفة ومنافع فالنجوم
خلقت خلقا وجُعلت في علاقة وظيفية مع غيرها من الكواكب لتُظهِرَ
تألُّوا يهتدي به النَّاسُ مقاصدهم ليلا في ظلمات البر والبحر،
مصدقا لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} 15.

ولأنّ الجاعل فهو كما جعل النجوم ليهتدي النَّاسُ بها ليلا كذلك
جعل الشمس ضياء والقمر نورا وهو الذي جعل التقدير الإحصائي
من خلال دوران الأرض والشمس والقمر والنجوم في أفلاكها التي
جُعلت عليها امتدادا ودورانا، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ

¹³ المائدة 20.

¹⁴ المائدة 97.

¹⁵ الأنعام 97.

ضِيَاءٌ وَالْقَمَرُ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ
اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ {16}.

ولهذا فهارون عليه الصلّاة والسّلام مقتدرا، ولأنّ موسى عليه
الصلّاة والسّلام يعرف مقدرة أخيه هارون طلبه سندا ونصيرا له؛ فهو
على معرفة بني إسرائيل، وله من الحكمة ما له، وهو الودود واللين
معهم، وهو أكبره سنّا، ولهذا ارتأه موسى مقتدر على العون؛ فستل
القريب المجيب؛ فأجابه به عوننا مقتدرا. أي أنّ موسى يعلم يقينا أنّ
الله هو المقتدر بالمطلق فطلب منه مقتدرا في دائرة الممكن؛ فكانت
الإجابة.

وعليه؛ فالمقتدر: هو الله الذي لا ينقصه شيء بالمطلق من
الأفعال والصفات الحسنى، والمقتدر اسم صفة من صفاته جلّ جلاله.
والاقتدار الإلهي ذاتي لا يستمدّ من أحد؛ أي أنّ المقتدر بالمطلق
هو الله تعالى بذاته

ونحن نرجّح أنّ هارون هو أكبر من موسى وقد ولد قبله تقديرا
من الله حتى يكون لدي أمّه عذر اللبّ الذي سترضع به موسى، فلو
كان موسى ولد قبل هارون لراود الشكّ جنود فرعون، وأمّا أنّ موسى
أكبر من هارون بدليل أنّه أخذ (برأس أخيه يجره إليه) فلو كان موسى
أصغر من هارون لما فعل ذلك فنقول: إن أخذ موسى بلحية هارون
ورأسه لا يقوم دليلا على أنّ موسى أكبر من هارون لأنّ تلك الأخذة
كانت غضبة لله تعالى يغضب لها الكبير والصّغير.

ولأنّ الدّعوة ليست بالأمر الهين فكان لدور كلّ منهما ضرورة
لإنجاح الرّسالة المرسلين بها؛ فبعد أن عرف موسى أعباء رسالته وما

¹⁶ يونس 5.

تتطلبه باذر إلى البحث عن معين يسنده في دعوته، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى {17}.

إنّ طلب موسى صلّى الله عليه وسلّم يتمركز حول بناء قاعدة رصينة تعينه في الاتكاء عليها من أجل مواجهة شخصية وفكر وعدو لم يطرح التاريخ الإنساني هذا الطرح من قبل، فضلا عن ذلك أن موسى قد عرف فرعون جيدا، لذلك أفضى به البحث عن حلول ما سيتوقع من ذلك اختياره لهارون، فهو يترقب ويرصد ويخمن ما يترتب على دعوته فهو يهيا الأمور المختلفة ويجندها لخدمة قضيته المركزية، فالعصا مثلت الجانب المادّي في دعوته، وهارون مثل الجانب الإفصاحي المعنوي، وهنا اكتملت الدائرة الدعوية التي تفكك كل الأباطيل وتعيد طرحها بأنساق واضحة تتفق مع توحيد الله تعالى وعبادته.

إنّ وجود هارون صلّى الله عليه وسلّم في حياة موسى مثل العتبة الثانية التي وقف عليها في حياته، فاللقاء بينهما ابتداء مع رحلة موسى بالعودة إلى مصر، تلك العودة التي كتب لها أن تحصل ضمن بداية ثنائية ضمت موسى وهارون عليهما السلام، لمجاهة فرعون لتقوميه وتبصيره وتغييره إلى الوجهة التي يريدّها الله تعالى.

إنّ نقطة البداية كانت قائمة على ترابط فكري قائم على إرشاد من الله تعالى، إذ يقول تعالى: {أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي

ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالََا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى {18}.

ابتدأ وصف فرعون بالطاغية بصيغة التعليل "فجملة (إنه طغى) تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإنما صلحت للتعليل لأن المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عما هو عليه من عبادة غير الله. ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبيغته، وإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة"19.

فهارون صلى الله عليه وسلم لأنه نبي من الله تعالى أعلمهم بما لم تدركه عقولهم من فعلتهم في تصرفهم هذا حيث دعاهم إلى الحق ونصح لهم هارون ليبيّن لهم الحق من الباطل، فهو نبيهم والنائب عن نبيهم المنقذ ونبيهم إلى أن هذا من الابتلاء قال: (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن) ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل، ولأن هارون صلى الله عليه وسلم نبي لهم فقد علم ما لم يعلموه من عودة موسى صلى الله عليه وسلم، وأنهم قد أسخطوا الله تعالى، ولكنهم بدلا من الاستجابة له التوا وتخلصوا من نصحه، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته وقالوا: (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى).

إن قضية النبوة لا يمكن أن يحل محلها العقل المنطقي أو الفلسفي، ولا يستطيع هذا العقل مهما أوتي من ذكاء وحجة أن

18 - طه 42 - 46

19 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 39

يكون بديلا أو يأتي بديل عن الخطاب الديني، لأنه إذا حكمنا معايير العقل النظري في الخطاب الديني فلا مناص من هذا التناقض بين الاثنين، لأن عالم الغيب والإلهيات التي يتحدث عنها الدين، لا يمكن أن تختبر على صعيد العقل الفلسفي والمنطق الوضعي، ومن هنا وجب الأخذ بضرورة الفصل والتمييز بين الخطابين، (الخطاب الديني والخطاب العقلي المحض). ومع الاعتراف بشرعية كل من الخطابين في مناقشة القضايا، وجب أيضا ضرورة ألا تحاكم أي قضية إلا في صورة معايير النسق الذي تنتمي إليه. ومن ثم فالإيمان بالغيب قضية صادقة على صعيد العقل النقلي الذي أتى عن طريق النبوة، ولا يمكن أن تنطبق معايير العقل الفلسفي على هذه القضايا لقصوره تجاهها.

والنبوة ليست محصورة بنبي محدد، وإنما هي ظاهرة موجودة عند جميع الأقسام والأمم قال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ }²⁰.

والنبوة تثبت بالمعجزة، وهناك شهادات لا يمكن الطعن فيها على وجود هذه المعجزات، ومن ثم لا مهرب لنا من قبولها. فإذا سلمنا بذلك، فتلك هي بداية شرعية الخطاب الديني الذي قبل على أساسه. فإذا سلمنا بشرعية هذا الخطاب فعلينا فيما بعد ألا نحكمه إلا في ضوء المعايير التي يقدمها.

فالنبوة صفة جليلة قائمة على العلم والحكمة والمعرفة، ولا يمنحها الله تعالى إلا لأصفيائه من خلقه ممن تميزوا بنقاء الفطرة، وصفاء السريرة، ونفاذ البصيرة مع العناية الإلهية به والفضل الرباني عليه كون النبي من صفوة خلق الله تعالى.

وعلى هذا فالنبوة اصطفاء واجتباء وهبة من الله تعالى لمن يشاء من خلقه، ولا يمكن لأحد أن يكون نبيا أو أن يصل إلى مرتبة النبوة عن طريق العقل في البحث والتفكير والدراسة والتأمل والتدبر، ومهما أوتي الإنسان من صفات العقل الموجبة، فهو يستطيع أن يكون كذابا، ولكنه لا يستطيع أن يكون نبيا بأن يهيب نفسه لتلقي النبوة، فالنبوة لا تنال بالاستعداد والتمرين والممارسة، وإنما هي فضل من الله يؤتيه من يشاء.

وأبسط ما يدل على أن النبوة خارجة عن الذات هي أن ظاهرة الوحي معجزة خارقة لسنن الطبيعة، ولا صلة لها بالتأمل العقلي أو الاستعداد النفسي. إن الوحي أو الإلهام الذي تتمتع به النبوة خارج عن الذات الإنسانية، وموقف النبي منها هو موقف المتلقي الذي لم يكن له أي دخل لا في المعنى ولا في المضمون ولا في القبول ولا في الرفض. فالنبوة هي قبول النفس الإنسانية الوحي من الله تعالى لحقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر بجوهرها دون تردد ولا تدخل.

هارون رسولا مع رسول، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ 21.

لقد جاء النص في القرآن الكريم بإرسال هارون مع موسى صلى الله عليهما وسلم، وعلى هذا فهارون عليه الصلاة والسلام مرسل من الله تعالى مع أخيه إلى بني إسرائيل.

فالرسول هو الذي يحمل رسالة ومكلف برسالة إلى قوم يبلغهم بها، وهارون صلى الله عليه وسلم رسول اصطفاه الله تعالى مع موسى ليكون داعيا إلى الله بإذنه وهدايا لقومه ومبشرا لهم بما يصلح دينهم

ودنياهم في أخذهم بالإيمان وامتناعهم عن الكفر والشرك، وبذا يتحقق العدل والاستقامة والصلاح من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجاء في لسان العرب: "سُمِّيَ الرَّسُولُ رَسُولًا لِأَنَّهُ ذُو رَسُولٍ أَيْ ذُو رِسَالَةٍ وَالرَّسُولُ اسْمٌ مِنْ أُرْسَلْتَ وَكَذَلِكَ الرِّسَالَةُ وَأُرْسَلْتَ فَلَانَا فِي رِسَالَةٍ فَهُوَ مُرْسَلٌ وَرَسُولٌ"22.

فالرَّسُولُ هنا من أرسله الله تعالى برسالة سماوية تدعو إلى إحقاق الحقِّ وإزهاق الباطل، ولذا لا يمكن أن يكون الرَّسُولُ داعيًا لما ينفر منه الطبع وتاباه النفس، لأنَّ الرِّسَالَةَ التي يحملها رسول الله (أي رسول) لا تأتي وفق رغبات النَّاسِ وميولهم وأطماعهم وما تشتتهي أنفسهم، بل الرَّسُولُ الذي يرسله الله تعالى يعمل الحقَّ ويأمر بالحقِّ ويدعو إلى الحقِّ، سواء أكان ذلك موافقًا للرغبات والميول أم مخالفًا لها. لأنَّ الرَّسُولَ الذي يبعثه الله تعالى، يبعثه بما يحقِّق العدل والمساواة بين البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم.

إذا الرُّسُلُ الكرام لم يأتوا إلا بالحقِّ، ولهذا فهم لم يأتوا بما تهوى أنفس البعض الذين يسعون في الأرض فسادًا ممَّا يجعلهم مستكبرين على ما جاء به الرُّسُلُ فيضلوا السبيل الله ويضلون، لأن الله تعالى لم يرسل الرُّسُلَ لإقرار النَّاسِ على ما هم عليه ممَّا يشتهون أو يريدون قال تعالى: {أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ}23.

إنَّ رسل الله صلَّى الله عليهم وسلَّم يواجهون دائمًا من البشر بالإعراض عن الرُّسُلِ أو اتهامهم بالتكذيب والضلال والجنون وما إلى ذلك عندما تنقصهم الحجَّة في مواجهة الحقِّ، وصفات كثيرة ما أنزل

22 - لسان العرب، ج 11، ص 281.

23 - البقرة 87.

الله بها من سلطان نزه الله تعالى عنها رسله الكرام حتى أنّ بعض الذين يتبعون الرسول يأتون إلى مخالفته انصياعاً لهوى النفس أو إشباعاً لطمع أو هوى كما فعل السامري.

فيعمد الضالون المضلون إلى إذكاء نار الفتنة معارضة للرسول كما فعل السامري عندما حول لهم الذهب إلى عجل له خوار وقال: (هذا إلهكم وإله موسى) فكانت المفاجأة أمام أعين بني إسرائيل وأمام هارون عليه السلام أن الذهب قد تحول إلى عجل له خوار البقر والعجول.

فأخذ السامري ينادي ويقول: هذا إلهكم وإله موسى، فأذكى نار الفتنة بين بني إسرائيل بأن ردهم عن الإيمان إلى الضلال.

ولقد عانى رسول الله هارون من السامري ومن اتبعه في عبادة العجل بعد أن استخلفه موسى على قومه، حيث انجرف الناس إلى عبادة العجل والسجود له، فبعد أن صنع السامري العجل كانت الريح كلما دخلت في داخل العجل تخرج من فمه صوتاً يشبه صوت البقر له خوار فيزدادون فتنة وسجوداً لهذا العجل، وعبثاً حاول هارون صلى الله عليه وسلم أن يرجعهم عن هذا الضلال المبين رغم أنه اعترض عليهم بأقصى ما لديه من قوة وطاقه.

لكن القوم قد اختاروا طريق الضلال والغواية وعبدوا العجل الذهبي، وكادوا أن يقتلوا هارون صلى الله عليه وسلم وأعلنوا وجهتهم قائلين:

لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى.

فإما أن تعبدنا معنا أو تنصرف عنا.

فظل ينادى عليهم قائلاً: أتعبدون عجلاً لا ينفع ولا يضُرُّ!

أهذا ما أوصاكم به موسى من طاعة!

فقال له السامري وهو يتزعم عبيد العجل: إنَّ هذا هو إله موسى
ولئن رجع موسى ليعبده معنا.

فاعتزلهم هارون صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يستطع أن يقف أمام
هذا التيار الجارف من الضلال.

ظل موسى عليه السَّلام فترةً طويلةً غائباً عن قومه وعن هارون،
ولم يكن على دراية بما حدث لقومه، فأعطاه الله الألواح المكتوب
عليها التوراة وأمره أن يرجع إلى قومه الذين ضلوا وأضلهم السامري
على الرغم من وجود رسول بين ظهرانيهم وكانوا قبل ذلك مؤمنين.

فأخبره الله تعالى موسى صلَّى الله عليه وسلَّم أن السامري قد
أضلهم بعبادة العجل، فحمل الألواح ورجع إلى قومه.

قال تعالى: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ
وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} 24. هارون نبي مسالم اتخذ
صفاته من صفات ربِّه تعالى؛ فكان سلاماً وكان رحمة (وَإِنَّ رَبَّكُمُ
الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)، إنَّه المبشر بالرحمة بقوله (رَبَّكُمُ
الرَّحْمَن).

وعليه فإيمان هارون برَّبِّه الرَّحْمَن جعله رحيماً في دعوته، الرَّحْمَن:
هو الذي "رحمته تمنع إهمال عباده" 25.

²⁴ طه 90.

²⁵ شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة - ج 1، ص 20.

الرَّحْمَنُ: "يختص بالله سبحانه وتعالى ولا يجوز إطلاقه في غيره.
وقال بعض أهل التفسير الرَّحْمَن الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم
وأوسع عليهم في رزقهم"26.

قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}27 بما أنكم تدعون الله أيها المؤمنون، فبأي اسم من
أسمائه ادعوه، سواء دعوتهم الله تعالى أم دعوتهم الرَّحْمَن لا فرق في ذلك،
فدعواؤكم لم يخرج عن أسمائه الحسنى. وفي جميع الحالات أنتم تدعون
الله. فلا تدعوا آخر من دونه. وهذا لا يعني وجود ازدواجية، بل يعني
أنَّ الله واحد لا يُثنى ولا يُجمع ولا يُعد بأيّ متوالية حسابية. نزلت
هذه الآية الكريمة حسبما رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله
عنهما بعد ما سمع بعض من المشركين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يدعو ربه بقوله (يا الله يا رحمن) فقالوا: "إنَّه ينهانا أن نعبد إلهين،
وهو يدعو إله آخر"28. وكما يبدو أن لضعف اللغة أثر سالب على
معرفة الدلالة بالدعاء السابق، فرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يقل
في دعائه (يا الله ويا رحمن) بل قال (يا الله يا رحمن) فانهدام حرف
الواو من دعاء رسول الله تأكيد لا يصاحبه الشك في أنَّ المدعو هو
واحد لا شريك له، ولأنَّ الداعي يتضرع إلى ربه بالرَّحْمَةِ، فلا أفضل له
إلا أن يدعو بالرَّحْمَن، ولهذا قال: (يا الله يا الرحمن). وفي الدعاء
الافتراضي جاء (يا الله ويا الرحمن) وفي هذا الدعاء دخل حرف الواو
الدال على إثبات وجود الآخر، الذي ورد في عقول أولئك المشركين
وهو ما لم يقله الرسول في دعائه المبارك.

²⁶ تفسير أسماء الله الحسنى، ج 1، ص 28.

²⁷ الإسراء، 110.

²⁸ تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل. محمد أحمد كنعان، بيروت: دار لبنان ودار

العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1984م، ص 379.

ولهذا جاء قوله تعالى: {والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} 29 جاءت (إلهكم إله واحد) مطلقة دالة على من يستحق أن يُعبد، وواحد تعني ليس له ثان، و(لا إله إلا هو) رد على من يظن بوجود آلهة أخرى من دونه، ولأجل التنبيه والتفطين من الغفلة جاء التأكيد ب(لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ولهذا تدل (هو) على الله الذي (لا إله إلا هو) الذي (هو) الرحمن الرحيم. وبذلك إثباتا لا فرق بين أن يُقال الله أو يُقال الرحمن فكلاهما واحد.

ولذا فالخليفة بدأ عمله في ممارسة شؤونه الحياتية باسم الله مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ} 30 فما يود قوله سليمان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو: إنَّ ما نود القُدوم عليه معكم فيه الرحمة، وبالتالي لا مجال لكم في التأخير عمَّا من شأنه أن يجعل بيننا وبينكم رحمة، فاقبلوا ولا تتأخروا عن دخولكم ميادين المحبَّة والرحمة، ولهذا بدأ سليمان بعنونة رسالته باسمه تعالى (الرحمن الرحيم). فالرحمن اسمه تعالى الذي لا يثنى ولا يجمع وذلك لارتباطه بالوحدانية وعدم المشاركة، ولذا لو لم يكن الله رحمن ما كان رحيم. فالرحمن شاملة جامعة لكل رحمة، ولهذا فالله تعالى هو مصدر الرحمة، ومن وجوده استمدت الرحمة أو اشتقت، فالله سابق الوجود على كل موجود، ولأنَّ الرحمة من الموجودات (المخلوقات) لذا كان الرحمن سابق عليها وكانت هي مترتبة على وجوده. والحمد لله رب العالمين.

أد عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

29 . البقرة، 163.

30 النمل 30، 31.

هارون

من وحي القرآن

هارون هو أخو موسى صَلَّى اللهُ عليهما وسلّم، وهو رسول من عند الله لبني إسرائيل يخلف موسى في غيابه ويسنده في حضوره، وكلاهما برسالة واحدة لبني إسرائيل، ولم يكن لهما رسالتين مختلفتين، فكلّ منهما يدعو إلى توحيد الله وطاعته ولا يشرك به أحداً.

فقد كان فرعون يقتل كلّ طفل ذكر يولد، حتى أشاروا عليه أن يقتل عاماً ويعفو عاماً؛ فكانت ولادة هارون صَلَّى اللهُ عليه وسلّم في العام الذي يُعفي فيه عن المواليد من القتل، وكانت ولادة موسى صَلَّى اللهُ عليه وسلّم في العام الذي يقتل فيه الأطفال، ومعلوم أنّ الأمّ ترضع مولودها عامين أو أكثر في بعض الأحيان، فإذا سُئلت عن لبنها فإنّها جديدة عهد بولد ربّما أتمّ عامه الأوّل أو يكاد، وهنا تنتفي الشكوك التي تراود المتسائل عن عملية الرّضاعة لموسى من قبل هذه المرضعة التي لا يعلم صلتها بموسى أحد من آل فرعون.

إنّ المتأمل في هذه الحالة يقف على حقيقة إلهية من علم الله تعالى فيما سيكون قبل أن يقع، فقد هيأ الله تعالى المسببات والأسباب لموسى وأمه من أجل رده إليها، لذلك كان لدى أم موسى مبرراً في إرضاعه لأنّها ذات ولد هو هارون.

ولذلك، نرجّح أنّ هارون هو أكبر من موسى وقد ولد قبله تقديراً من الله حتى يكون لدى أمّه عذر اللبن الذي سترضع به موسى، فلو كان موسى ولد قبل هارون لراود الشكّ جنود فرعون، وأمّا أنّ موسى أكبر من هارون بدليل أنّه أخذ (برأس أخيه يجره إليه)

فلو كان موسى أصغر من هارون لما فعل ذلك فنقول: إن أخذ موسى بلحية هارون ورأسه لا يقوم دليلاً على أن موسى أكبر من هارون لأن تلك الأخذة كانت غضبة لله تعالى يغضب لها الكبير والصغير.

ولأن الدعوة ليست بالأمر الهين فكان لدور كل منهما ضرورة لإنجاح الرسالة المرسلين بها؛ فبعد أن عرف موسى أعباء رسالته وما تتطلبه بادر إلى البحث عن معين يسنده في دعوته، قال تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} 31.

إن طلب موسى صلى الله عليه وسلم يتمركز حول بناء قاعدة رصينة تعينه في الاتكاء عليها من أجل مواجهة شخصية وفكر وعدو لم يطرح التاريخ الإنساني هذا الطرح من قبل، فضلاً عن ذلك أن موسى قد عرف فرعون جيداً، لذلك أفضى به البحث عن حلول ما سيتوقع من ذلك اختياره لهارون، فهو يترقب ويرصد ويخمن ما يترتب على دعوته فهو يهيأ الأمور المختلفة ويجند لها لخدمة قضيته المركزية، فالعصا مثلت الجانب المادي في دعوته، وهارون مثل الجانب الإفصاحي المعنوي، وهنا اكتملت الدائرة الدعوية التي تفكك كل الأباطيل وتعيد طرحها بأنساق واضحة تتفق مع توحيد الله تعالى وعبادته.

إن وجود هارون صلى الله عليه وسلم في حياة موسى مثل العتبة الثانية التي وقف عليها في حياته، فاللقاء بينهما ابتداءً مع رحلة موسى

بالعودة إلى مصر، تلك العودة التي كتب لها أن تحصل ضمن بداية ثنائية ضمت موسى وهارون عليهما السلام، لمجاهة فرعون لتقوميه وتبصيره وتغييره إلى الوجهة التي يريدتها الله تعالى.

إنّ نقطة البداية كانت قائمة على ترابط فكري قائم على إرشاد من الله تعالى، إذ يقول تعالى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأُخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي دِكْرِِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} 32.

ابتدأ وصف فرعون بالطاغية بصيغة التعليل "فجملة (إنه طغى) تعليل للأمر بالذهاب إليه، وإثما صلحت للتعليل لأن المراد ذهاب خاص، وهو إبلاغ ما أمر الله بإبلاغه إليه من تغييره عما هو عليه من عبادة غير الله. ولما علم موسى ذلك لم يبادر بالمراجعة في الخوف من ظلم فرعون، بل تلقى الأمر وسأل الله الإعانة عليه، بما يؤول إلى رباطة جأشه وخلق الأسباب التي تعينه على تبليغه، وإعطائه فصاحة القول للإسراع بالإقناع بالحجة" 33.

إنّ هذه البداية ليست لموسى وهارون عليهما السلام فقط؛ إثما هي صيغة معرفية ربانية لكل البشر حين يريدون الإصلاح والتغيير، فلا يكون هناك ضعف بل يجب أن تكون هناك قوة العزيمة في تنفيذ أمر الله تعالى، وعند البدء بالدعوة تكون الخطوط العريضة أمام موسى في شق الطريق الموصل إلى فرعون، وهذه الخطوط أرساها الله تعالى له كما أرساها إلى نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفُضِّلَ الْقَلْبُ

32 - طه 42 - 46

33 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 39

لَا نَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ {34} فاللين يكون في بداية الدعوة، فهو المرآة العاكسة التي يُرى من خلالها صورة الداعي المقبل من الله تعالى، وليكون في الوقت نفسه حجة على المشرك والكافر يوم القيامة، فالدعوة التي أقبلت على فرعون اتسمت باللين والرفق ضمن أسلوب الترغيب دون أسلوب التنفير.

إنّ القول اللين يعطي مساحة واسعة في الخطاب، فهو يعطي للمخاطب كما سبق أن بيّنا عند الكتابة عن صفات موسى صلى الله عليه وسلم ثلاثة خصال، وكلها تصب في المصلحة وهي:

. التوقّف .

. الاستدعاء .

. النظر إلى أمام .

فالتوقف هو حالة يكون فيها الذهن مرتكزا على نقطة واحدة تدور حولها كل الخطابات التي استقطبها من الآخر. وهذه الحالة هي يتوقف فيها الزمن فتقطع الصلة بين الماضي والمستقبل، وهذا الانقطاع لا يكون تاما؛ إنما يكون وفق سقف زمني غير قابل للتمديد، فالإطالة غير متحققة فلا بدّ أن يسير وفق اتجاهين يرتبطان بالفكر الإنساني في كلّ وقت وحين، وهما الماضي والمستقبل الذي يقابلهما - الاستدعاء - للماضي، والنظر إلى الأمام وهو المستقبل.

إنّ الاستدعاء هو نسيج معرفي للإنسان لا يغادره، فهو جزء منه ويتزامن معه في كل تصرفات حياته ضمن أسلبة معينة لا تنفك عنه،

فالاستدعاء كيان معرفي تتحرك حدوده نحو الأمام دائما، فهو يزداد يوما بعد يوم، وهذه الزيادة تثري الخزين المعرفي الإنساني في جميع اتجاهاته سواء أكانت الدينية أو الاجتماعية أو الاقتصادية. فالاستدعاء يعيد إنتاج ما يسمعه أو ما يشاهده أو ما يقرأه، وعلى أساس هذا الاستدعاء تطلق الأحكام وتصاغ ضمن اللحظة الراهنة التوقيفية مع الاستدعاء القائم على الخزين المعرفي، وهذا الترابط الآني الماضي إن صح تسميته لا يكون كافيا إذا لم يكن مرتبطا بنظرة إلى الأمام.

النظرة إلى الأمام: هي الجزء المكمل للثلاثة التي اقترحنا ها، فالأمام هو دائما الصورة المستقبلية التي يريدنا الإنسان تحقيقها، فهو يوظف الماضي والحاضر في رسم الأبعاد المختلفة التي تكون النسيج الأساس في نسج مستقبله الذي يحلم به أو يظنه يتحقق. ولهذا جاء خطاب الله تعالى لموسى صلى الله عليه وسلم في كيفية معاملة فرعون بصيغة (اللين) والتي أفضى فيها الخطاب أنها تتمحور حول كل من الذكرى والخشية؛ فهما جنب إلى جنب معايير إنسانية قابلة للتحقق.

هذه الدعوة اللينة التي انطلق منها موسى وهارون صلى الله عليهما وسلم تزامنت معها الشخصية البشرية المرابطة لهما وذلك ضمن سياق القرآن الكريم بقوله تعالى: {قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَى قَالَ لَا نَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} 35؛ فهما يخافان من فرعون من أن يعجل عليهما العقوبة المتوقعة، فهما يتوقعان أن يصدر منه مثل هذه الأفعال، وتعجيل العقوبة هو تصرف بشري مرتبط بالسيكولوجية الإنسانية في الدفاع عن نفسها عندما تحس أنها أمام خطر يهدد حياتها أو مكانتها أو مستقبلها.

وعليه فالذي معه السميع العليم يسمع ويرى هل يمكن أن يهزم أو يقهر؟ بالتأكيد من يكون معه السميع البصير لا يقهر ولا يهزم، ولهذا فمن يولي أمره إليه كسب وفاز، والسميع هنا اسم الله متضمن لمعنى كمال السمع وكمال الإدراك والقوة، وقد سَمَّى الله عزَّ وجلَّ نفسه في الكثير من الآيات القرآنية بهذا الاسم كما في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} 36، أي أن الله جلَّ جلاله منزّه ومُطَهَّر عن المثل والشبيه والند والكفؤ.

السميع اسمه جلَّ جلاله وفعله السمع، وهو أليق بجلال الله تعالى وكماله من اسم سَمَّاع، لأنَّ السَمَّاع في معناه هو كثير السمع لما يسمع بواسطة آلة السمع فهو إذن كثير السمع لما يقال، ولا يمكن للسَمَّاع أن يسمع دون آلة للسمع، وكذلك السَمَّاع في كثير من الأحيان يخطئ وهذا ليس من صفات الله وأفعاله الطاهرة، وكذلك السماع الذي في حاجة للآلة هو من ضعف سمعه إذا تعطلت آتته حُدَّ من سمعه وهذه ليست من صفات السميع العليم جلَّ جلاله، ولذا من حُدَّ من سمعه بحدود الزمان أو المكان أو الآلة يكون عُرضة للنقص والعيب، فينقص سمعه، ويغيب عنه الكثير ممَّا يدور من حوله ممَّا يضعف علمه بالحوادث، وهذا يستحيل في حقِّ الله عزَّ وجلَّ وهو السميع العليم.

العليم الذي يعلم كل ما يدور في ملكه من أشياء، قال تعالى: {قُلْ إِنْ تُحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 37، فهو وحده الذي يعلم علم ما كان وما سيكون وما هو كائن ولا يغفل عن كبيرة

³⁶ الشورى، 11.

³⁷ آل عمران، 29.

ولا صغيرة في ملكه، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي مُهَيِّتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْصُلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 38، كيف لا وهو الكبير المهيمن العليم السميع البصير. وعلم الله تعالى لا يتوقف على آلة إدراك كسمع وبصر ولمس وغيرها، فهو جلّ جلاله يعلم الأشياء بمطلق العلم، ويسمع بمطلق السمع، ويبصر بمطلق البصر، دون الحاجة إلى آلات إنه خالق الأشياء سبحانه وتعالى لا يحتاج لشيء.

فلا نقول بتعطيل صفات الله تعالى كما فعلت المعطلة من أنهم فسروا هذه الصفات بالقدرة والسطوة، ولكن نقول لله تعالى يد ولكن ليست كأيدي مخلوقاته، ويسمع ويبصر ليس كسمعنا وبصرنا ليس كمثلته شيء قال تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} 39.

³⁸ الأنعام، 56 . 59.

³⁹ الشورى 11 . 13.

وهل يكون العلم إلا عن طريق السمع والبصر؟ بالتأكيد يكون ذلك العلم بدون الآلات متحتمًا ولكن في حقّ الله عزّ وجلّ، السميع المطلق والبصير المطلق والعليم المطلق.

أما في حقّ السميع بالإضافة، فلا يمكن أن يكون علمه إلا عن طريق ما أعطاه له الله تعالى من سمع وبصر، وما خصه به تعالى من عقل وبصيرة فقد زوده الله تعالى بهذه الصفات المستمدة من صفاته الكريمة، فلم يتركه أعمى ولا أصما بل جعله في أحسن تقويم سميعًا بصيرًا ليتمكن بهما من الطاعة وإدراك المعاصي والابتعاد عنها، قال تعالى في كتابه العزيز: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا} 40.

ولو لم يكن ذلك الكرم من الله عزّ وجلّ على الإنسان الذي خلقه من بداية خلقه ليكون خليفته في الأرض، يعمرها بطاعة خالقه جلّ جلاله وذلك كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

40 الإنسان، 1 . 5.

أَبِي وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ {41، لقد حقّ للإنسان أن يتحمل الأمانة التي حملها له الله سبحانه وتعالى، فكان الخليفة التي جعله الله في الأرض مصلحا لا مفسدا ولا سافكا دماء، ومع ذلك الأمانة ثقل من يعلم بأعبائه قد لا يحمله، ولكن اختيار الله للإنسان واصطفاه لحملها قد ميزه بالاستخلاف فيها مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا {42.

واسم السميع في حقّ الله تعالى، يدلّ على ألا حدود في السمع، كيف لا وهو الذي وسع سمعه كلّ شيء، فسبحانه الذي لا يشغله سمع عن سمع آخر. نحن بني آدم نسمع الأصوات متفردة بالتمييز ولا نميزها في اللحن إلا كقول واحد، أما السميع فهو القادر على التمييز بين ما خلق وهذه صفة تفرد له دون غيره، ولذا فهو الواحد الأحد.

فبالرغم من اتساع هذا الكون الهائل واختلاف أجناس العالمين، إلا أن الله سبحانه وتعالى قادر على السمع المطلق الكامل الذي لا يشوبه أي عيب أو نقص.

وهذا الاسم يجب أن يُفهم مدلوله فهما صحيحا لدى خليفة الله تعالى في الأرض، فمن أراد أن يكون خليفة الله في أرضه لابد أن يتصف بصفاته، فيكون سميعا للحقّ ولأوامر الله جلّ جلاله، ويكون مطيعا بصيرا بما أمر كما في قوله تعالى في كتابه العزيز: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ

41 البقرة، 30. 34.

42 الأحزاب، 72.

يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا {43، وكذلك في قوله جلّ جلاله: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} {44، إذا فالأصم هو عكس السميع تماما، فالخليفة الذي يستحق أن يكون كذلك هو بعيد عن الصمم، بل هو سميع ومنصت ومجيب لما أمرنا الله تعالى به، قريب من خالقه.

والقريب من الخالق لا يكون بالمجاورة الجسدية بين الخالق والمخلوق، فهذا الأمر يستحيل أن يكون، ولكن يكون القرب عن طريق الامتثال لأوامر الخالق عزّ وجلّ والالتزام بطاعته في كل ما أمر به وما نُهي عنه. وكل هذه الأفعال من الخليفة تجاه من استخلفه تعتبر تقربا إليه، وهذا التقرب بهذه الأفعال ينتج عنه حصول القرب بينه وبين الله جلّ جلاله. وتقرب العبد من ربه يكون بالطاعة لأوامر الله عزّ وجلّ، والأخذ بصفاته العظيمة وفي مقابل ذلك يكون تقرب الله تعالى من عبده بالرحمة والمغفرة والإجابة والهداية.

ومعنى السميع في حقّ الله تعالى، هو أنه يسمع كل ما قد قيل، وما يقال وما سوف يقال، ولا يتوقف سمعه على حدود الزمان أو المكان وهذا بالضرورة يعطينا معنى الإحاطة، فالله تعالى بسمعه المطلق هو محيط بكل هذا الكون الشاسع، وهو سبحانه وتعالى بعظيم قدرته وكمال صفاته وسع كرسيه السماوات والأرض فهو يحتوي كل شيء ولا يحتويه أي شيء، وهذا ما نجده واضحا في الآية الكريمة: {ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا

⁴³ الإنسان، 1 . 5.

⁴⁴ هود، 24.

عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ {45، إن الله عز وجلّ بسمعه المطلق هو محيط بالكون، لا
يمكن أن يفلت منه أيّ شيء مهما صغر وازداد دقة في التصغير،
فالإحاطة بالشيء تستوجب القدرة عليه والهيمنة فوقه.

فالسميع المطلق هو المحيط بكلّ ما في ملكه بسمعه من أشياء،
فلو لم يكن سميعاً لما كان محيطاً ولا مهيمناً ولا كبيراً، فسبحانه وتعالى
هو السميع بهيمنتته على خلقه وهو المهيمن بسمعه، فلا هيمنة دون
سمع، أو بسمع غير تام، وهذا يؤكد أن صفات الله تعالى كلها مترابطة
مع بعضها البعض، كيف لا والموصوف بها واحدٌ كاملٌ لا نقص في
صفاته جلّ جلاله.

والسميع بالإضافة هو المستمع لكل ما يقع تحت سمعه من أقوال
في حدود المكان الذي يوجد فيه وكذلك في حدود الزمان، فهو لا
يستطيع سماع ما في الماضي أو المستقبل من أخبار، وكذلك لا يمكنه
سماع ما يدور في الوقت الحاضر من قول إذا لم يكن ذلك القول في
حدود مكان وجوده، وبالتالي فالسميع بالإضافة محيط بما يسمع
ويدرك في حدود الزمان والمكان وهو بذلك يكون مهيمناً على ما
يصل إليه سمعه. ولذا فالخليفة السميع هو الذي يستجيب مع كل أمر
بالعمل الصالح أو بالانتهاء عما نهى الله عنه أو بالتجنب عنه أو
بالأخذ به وفي ذلك يقدر الله الأمر تقديراً وكل شيء بحسبان.

فإحاطة الخليفة وهيمنتته جزء من هيمنة الله سبحانه وتعالى،
والإحاطة بالشيء متضمنة القدرة عليه، فعلى المحيط بالإضافة أن
يتذكر قدرة المحيط المطلق عليه لأنه داخل ضمن إحاطته، وبالتالي فهو

⁴⁵ الأنعام، 102 . 105.

قادرٌ على عقابه وحسابه وهو أيضا عالم بما يفعل أو يقول أو يضمّر من خير أو شر.

في حين أننا نجد بعضا من البشر يتناسون هذه الصفة في حقّ الله تعالى، فنراهم يتصرفون وكأنّ الله جلّ جلاله غائب عن مجالسهم، منحدرّون في النميمة وقذف النّاس وسبهم، يعيشون في مستنقع الكذب والرذيلة، وكأنّ الله تعالى لا يسمعهم ولا يحيط بهم، لكنه عزّ وجلّ مهيمن على سائر المخلوقات بسمعه وعلمه وهو يمهل ولا يهمل، لذلك أمر الإسلام المؤمنين إذا سمعوا منكرا عليهم أن يقفوا له بالمرصاد ولا يصدقوا كل ما يسمعون فيقعون في الضلال، وهذا يتضح في قصة الإفك كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 46 وهناك فرق بين السمع والاستماع، فالسمع هو سمع الكلام وفهمه وإدراك مقاصده والرد عليه إن رأى أن الرد واجب، والأخذ بما سمع ورآه صوابا وترك ما سمع ورأى أنه يتنافى مع الحقّ، وهذا المعنى من السمع متحقّق بالضرورة في السميع المطلق،

⁴⁶ النور، 11، 18.

فهو يدرك كل ما يسمع ولا يمكن أن يغفل عن أقل ما يقال، فيسهو عن فهمه أو إدراكه، قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا إِلَّا نُونٌ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِينَا بِفُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرُورِ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} 47. نزلت هذه الآيات بأسباب يقال دخل أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، بيت المدارس، فوجد من يهود أناسا كثيرا قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له (فَنَحَاص) وكان من علمائهم وأحبارهم، ومعه حجرٌ يقال له: أشيع. فقال أبو بكر: "ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله، قد جاءكم بالحق من عنده، تجدوناه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال فنحاص: والله - يا أبا بكر - ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، وإنه إلينا لفقير. ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويُعْطِنَاهُ ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فغضب أبو بكر، رضي الله عنه، فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا، وقال: والذي نفسي بيده، لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت

⁴⁷ آل عمران، 181 . 185.

عنقك يا عدو الله، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين، فذهب فنحاص إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أبصر ما صنع بي صاحبك. فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر: "ما حملك على ما صنعت؟" فقال: يا رسول الله، إنَّ عَدُوَّ اللهِ قد قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضِبْتُ اللهُ ممَّا قال، فضربت وجهه فجحد ذلك فنحاص وقال: ما قلتُ ذلك فأنزل اللهُ فيما قال فنحاص رداً عليه وتصديقاً لأبي بكر: {لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ} 48 ولأنَّ اللهُ قريب رقيب مجيب الدعاء فهو بطبيعة الحال يسمع ما يقال ويعلم بما سيقال قبل قوله، ولذا فمن يسلم بعلمه أمر الغيب وما تكنه الصدور وتخفيه لا يستغرب بأنه قد سمع قول الذين قالوا إنَّ اللهُ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ، ولهذا فقد وقع سمع الله لقولهم وجاء رده عليهم بتوعده لهم بالعذاب والعقاب في الآخرة 49.

وقال اللهُ سبحانه وتعالى كذلك: {قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} 50. سبب نزول هذه الآية الكريمة، قيل عن عائشة أنها قالت: "تبارك الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة فكلمت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنا في جانب البيت اسمع كلامها، ويخفي عليَّ بعضه، وهي تشتكي زوجها وتقول: يا رسول الله: أبلَى شبابي، ونثرتُ له بطني، حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات.

⁴⁸ تفسير ابن كثير، ج 2، ص 76.

⁴⁹ المصدر السابق، ص 29.

⁵⁰ المجادلة، 1.

وفي هذه الآية وقع سمع الله تعالى لقول المرأة التي تجادل الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وتشتكي زوجها إلى الله عز وجل، فأدرك ما تقول وجاء رد الله تعالى عليها بأن أنزل في الآية التي تليها الإجابة وهي ما يتعلق بأحكام كفارة الظهار، قال تعالى: {الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ غَفُورٌ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} 51.

وكذلك يتحقق هذا المعنى من السمع في حق السميع بالإضافة، والسميع غير السَّمْع أو المستمع فالسميع صفة ربانية ترتبط بالذات العلية وتستمد منها عندما تُتبع بالطاعة التامة في الاستماع للقول الذي يحمل الأمر ويؤخذ به والقول الذي يحمل النهي أو الاجتناب ويؤخذ به والقول الذي به تزداد التقوى. وبذلك يستخلف الإنسان السميع بالطاعة التامة التي تترسخ وتتأكد بالعمل الصالح. أما السماع والمستمع، فحالهما يختلف عن حال السميع، فأولئك السَّمَاعُونَ والمستمعون قد لا يأخذون بما سمعوا وقد يحرفون ما سمعوا وقد لا يطيعون ما سمعوا وقد لا ينتهون بعد ما سمعوا، ولذا فكل من زوده الله تعالى بحاسة السمع والعقل يمكن أن يكون سامعا مدركا لما يقال، ويمكن أن يرد على ما يسمع بالقول أو الفعل وقد جاء هذا في قول الله جل جلاله في كتابه العزيز: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا

51 المجادلة، 2، 3.

إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ} 52، وكذلك جاء في قوله تعالى: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} 53.

ومن هذه الآيات يمكن أن نرى أن كلَّ النَّاسِ يمكن أن يسمعوا ويدركوا ما يسمعون، ولكنهم مع هذا لا يكونون متصفين بصفة الله عزَّ وجلَّ السميع، فلا يستحقون أن يخلفوا الله تعالى في الأرض، لأن الإدراك هنا عند هذا النوع من البشر لا يؤدي إلى معرفة الحق والوصول إليه، بل أنهم لا يصلون بهذا السمع إلا إلى الضلال.

وخلافة الله تعالى في الأرض نوعان: خلافة اصطفاء لمن يختارهم الخالق جلَّ جلاله ويصطفيهم من الأنبياء والرسل ليحملوا لواء الدعوة والتبليغ على لسان الله عزَّ وجلَّ، قال تعالى: {وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ} 54، والنوع الآخر من الخلافة هي خلافة اختيارية، وهي التي تكون في عباد الله الذين يسعون إلى أن يكونوا خلفاء الله فيعملون على الاتصاف بصفاته، ويعملون على طاعته والتقرب منه سبحانه وتعالى.

فخليفة الله في أرضه لا يكون كبقية البشر في سمعه وإدراكه، فيسمع ما يريد أن يسمع ويدرك، فيرد كيفما أراد دون حدود في السمع والرد ولكن هذا الخليفة وهو السميع بالإضافة لا بدَّ أن يحرص على أن يسمع من القول أفضله ويدرك معانيه ويفهمه ويأخذ به، ويحرص على أن لا يسمع لغو الحديث والكلام الذي لا يفيد، قال

⁵² يوسف، 31.

⁵³ الأنبياء، 60.

⁵⁴ طه، 13، 16.

تعالى: { وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } 55، وهذا أمر من الخليفة المطلق إلى الخليفة بالإضافة، فالسمع هنا قد وقع لقولين الأول سماع آيات الله تعالى يُسْتَهْزَأُ بِهَا والثاني لقول الله باتخاذ الرد المناسب منهم ترك هذا المجلس حتى يخوضوا في حديث غيره، وكذلك كان هذا الأمر للنبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو الخليفة الذي اختاره الله عزَّ وجلَّ لتبليغ الرسالة في قوله تعالى: { قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَأَنْ أَجْأَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْكِرُونَ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } 56، فالخليفة بالإضافة مأمور بترك الاستماع لما يقال في المجلس من استهزاء ولغو وفي الوقت نفسه مأمور بسماع قول الله عزَّ وجلَّ واتباع أمره حتى يخوضوا في حديث غيره.

أما الاستماع فهو استماع الكلام دون إدراك لمعانيه، إما لغفلة من السامع أو لنفاق منه وتهاون وعدم مبالاة به، قال تعالى: { اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍِ مِنْ رَبِّهِمْ

⁵⁵ النساء، 140.

⁵⁶ الأنعام، 63 . 68.

مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهْبَاءٌ قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ بَلْ قَالُوا أَضْعَافٌ أُخْلَامٌ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ مَا آمَنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ {57. السميع بالإضافة هو الذي لا يغفل عما يستمع إليه من السميع المطلق، أما أولئك الغفلة فهم الذين جعل لهم الله تعالى حاسة للسمع وعقلا للتمييز وهم عن أمرهم غافلون أي غافلون عما قاله تعالى وهو خير لهم، مع أنه خير لهم إلا أنهم لم يدركوا بعد هذا الخير وبعد فوات الأوان سيكونون من الخاسرين بأسباب الغفلة. ولذلك قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ أَنْفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرَاهُمْ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} 58 المنافقون والكفرة والمشركون دائما في المسلمين يظنون ظن الجاهلية، ومثل هؤلاء المستهزئون الساخرون من الحق هم الغافلون حقا فهم لا يدرون الساعة تأتي بغتة. وقوله (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ) هؤلاء المنافقون، دخل رجلان: رجل ممن عقل عن الله وانتفع بما سمع ورجل لم يعقل عن الله، فلم ينتفع بما سمع، كان يقال: الناس ثلاثة: فسامع عامل، وسامع

57 الأنبياء، 7. 1.

58 محمد، 16. 19.

غافل، وسامع تارك"، وهؤلاء المنافقون الذين يستمعون إلى النبي عليه الصلاة والسلام لا يعون قوله ولا يفهمونه⁵⁹.

لذلك لا بد أن يكون الخليفة دائما مستحضرا لسمع الله المطلق، فيكون سمعه للحق ومن أجل إحقاق الحق، وللعدل لا للظلم، وأن يكون قبل كل شيء سمعه للخالق، هذا هو السمع الحق كما أراده الله فينا، وإلا لما كان هذا السمع نعمة من الله سبحانه وتعالى لنا مثل كثير من النعم الأخرى، قال تعالى: { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا }⁶⁰، أي أن الله أتم خلقه للإنسان وبعد ذلك أهده نعمتي السمع والبصر، ثم جاءه التخيير فبعد أن يستمع له الاختيار إما أن يكون شاكرا على نعمه التي أنعمها عليه وإما أن يكون جاحدا كفورا ولكل حسابه. وللتمييز سيكون السميع مسلما طائعا، وسيكون غيره كافرا رافضا.

ولذا فالفرق واضح بين السَّمْع والسميع، فالسَّمْع ليس بالضرورة أن يكون سميعا

بل لقد جاءت كلمة سَمَّاعون بمعنى جواسيس⁶¹ كما في قوله تعالى: { إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ

⁵⁹ تفسير الطبري، ج 22، ص 160.

⁶⁰ الإنسان، 1. 5.

⁶¹ تفسير الطبري، ج 14، ص 281.

مَا زَادُوكُمْ إِلَّا حَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ {62}. فالسمّاعون في هذه الآية هم المتخاذلون والمنافقون الذين يظهرون ما لا يخفون.

فالذين يسمعون الحقّ وما أمر الله به، وما نهي عنه، ولا يعملون بهذا كله هم في الحقيقة أيضا سمّاعون، أي كثيرو السّمع دون الاستفادة من أيّ شيء يسمعون، ولا يعقلون أي شيء مما حولهم، قال سبحانه وتعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِيّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} {63}، فالذين يسمعون قول الحقّ ولا يتبعونه مثلهم فيما هم فيه من الغي والضلال كمثل الدواب السارحة التي لا تفقه ما يُقال لها بل إذا نعق بها راعيها أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يُقال لها ولا تفهمه بل تسمعه صوتا فقط⁶⁴ وهكذا يكون الحال من الحال كمثل الذي ينعق بما لا يسمع.

فلا قيمة من سمع لا يعود بالفائدة على صاحبه، بل بعض السمع يعود على صاحبه بالويل والهلاك، فالسميع بالإضافة هو الخليفة الذي سمع قول مستخلفه عزّ وجلّ وعمل بما أمر إصلاحا، وترك ما نُهي عنه طاعة.

وبالطبع سمّع الإنسان ليس كسمع خالقه، فبالرغم من أن البشر متشابهون وهم خلق الله سبحانه وتعالى، وكل فرد فيهم له علامات مميزة قد ندركها وقد لا ندركها نحن، بل المتخصصون مثل البصمة، فلكل إنسان بصمته التي تميزه عن أي إنسان سواه، إذا كان هذا جزء

⁶² 2 النور، 45 . 47.

⁶³ البقرة، 171.

⁶⁴ تفسير ابن كثير، ج 1، ص 480.

مما يختلف فيه البشر عن بعض فما بالنا باختلاف البشر جميعا عن الخالق جلّ جلاله، إنه الواحد القهار الذي ليس له مقارن، فمهما وصل ابن آدم إلى درجة من الرحمة والعلم فلا يمكن أن يتعدى اليسير ممّا عند الله الخالق القادر والمهيمن والعزيز، لذا تبقى حاجة البشر إلى الخالق في تزايد مستمر على مدى الحياة، وبما أنّ الحياة الدنيا دار ابتلاء وامتحان فقد كان فيها الناس متفاوتين ألوانا وأرزاقا وأخلاقا وآجالا، فنرى الغني والفقير، والأعمى والبصير، والقوي والضعيف، والظالم والمظلوم، والمخلص والمنافق، ولما كانت الدنيا هكذا فإن حكمة الله عزّ وجلّ تظهر في تعريف الخلق ما يناسبهم من أسمائه وصفاته، فالمذنب إذا أراد التوبة سيجد الله توابا رحيفا غفورا، والمظلوم سيجد الله وليا ونصيرا، والضعيف سيجد الله قويا عزيزا، والطالب لقضاء حاجة سيجده سميعا مجيبا كما قال عزّ وجلّ في كتابه العزيز: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} {65، ونستدل من الآية الكريمة أن استجابة دعاء الداعي يستوجب قرب الإنسان من ربه، وبالتالي يكون قرب الخالق من العبد، وهذا القرب لا يتحقق إلا بسماعنا لقول الله تعالى الحقّ، وبعدم الصمم والابتعاد عنه، وإلا فإن الله سبحانه وتعالى لن يكون قريبا مجيبا للدعاء، فالخليفة الذي يرضيه الله عزّ وجلّ هو من يُسمع دعاؤه، وقد استحقّ هذا بسماعه أوامر الله وخوفه من عقابه، كما حدث مع سيدنا يوسف عليه السّلام عندما دعا ربه أن يبعده عنه كيد النسوة في المدينة، وذلك في قوله تعالى: {فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ

65 البقرة، 186.

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ
 قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَنَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ
 أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ
 وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى
 حِينَ {66}.

وقد اقترن اسم السميع في القرآن الكريم بأسماء أخرى لله عز وجل ومنها اسم العليم كما في قوله جل جلاله: {وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْعَيْ
 ثُمَّ لَا يُفْصِرُونَ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
 وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} 67، فسمع الله عز وجل مقترن بعلمه بالشيء، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: {لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا
 عَلِيمًا} 68، {وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 69، علاقة قوية تربط المعنى السمعي مع المعنى البصري، فالسميع لم يكن فاقد الذاكرة فهو يعلم بكل ما يسمع حتى يوصف بأنه عليم، والعليم هو الذي يدرك الأمر ويلم بحاله ويحيط به ويهيمن عليه بالكمال. إذن علم الله تعالى كامل ومطلق لا يحده أي حد فقد

⁶⁶ يوسف، 31 . 35.

⁶⁷ الأعراف، 200 . 204.

⁶⁸ النساء، 149.

⁶⁹ الأنعام، 13.

أحاط هذا الكون بسمعه وبصره وعلمه وقدرته جل شأنه، فعلم الله تعالى كامل لا نقصان فيه، فهو لا تخفي عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء؛ فبسمعه وعلمه هذا يكون الله عادلا في حكمه وقضائه، يعاقب هذا، ويعفو عن هذا، ويستجيب لهذا، فالعدل بدون العلم لا يقع والعلم بدون السمع والبصر لا يحصل، فالإنسان الذي يريد أن يكون خليفة الخالق في أرضه لا بدّ أن يجعل بصره وسمعه في خدمة علمه الذي يجعله بالتالي عادلا في حكمه، فالذي يتولى منصبا كبيرا مثل القاضي لا بدّ له من أن يكون سميعا للحقّ ولا يكون للباطل سمعه، فسمعه إذا لم يخدم علمه الذي استحقّ به هذا المكان في الحياة الدنيا لا فائدة منه، فيكون مثله مثل الذي لا يسمع فهو أصم برضاه، كأن يستمع لطرفٍ واحدٍ ويبني حكمه على هذا الأساس الظالم، فهو إذن سَمَاعٌ متحيز، وتُفِي عنه العدل، فلا يستحقّ أن يكون خليفة لله الحقّ، فالقاضي السميع خليفة لله ولا يحكم إلا بما يرضي الله تعالى، ولذا ينبغي أن يكون سميعا أي يستمع بنية العدل وإحقاق الحقّ ومروضة الله تعالى فلا يظلم أحدا، وبهذا يكون خليفة مصلحا في الأرض لا مفسدا فيها.

ونحن نعلم أن الله عزّ وجلّ سيحاسب العباد على أقوالهم وأفعالهم في الحياة الدنيا، فهو إذا حسب يدرك كيفية مراقبة عباده، وتوزيع أرزاقهم، وكيف سيكون حسيبا إذا لم يكن عادلا؟ وكيف يكون عادلا إذا لم يكن سميعا للعباد بصيرا بهم؟ وكيف يكون دامغا للباطل وزاهقا له إذا لم يُحقّق الحقّ.

والسميع أيضا في حقّ الله ترتبط بالبصير، لأنّ من كان سميعا لأقوال الخلق لا بدّ أن يكون بصيرا بأعمالهم، وقد ذكر الله هذين الاسمين مرتبطين في كثير من الآيات الكريمة في كتابه العزيز كما في

قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} 70، فالأمر هنا في هذه الآية الكريمة أولاً برد الأمانات إلى أهلها، والأمر الثاني الحكم بالعدل، وختمها بتذكير العباد أن الله له كامل السمع والبصر، فيما يفعلونه من ظلم وخيانة الأمانة. ولذا فإن ممارسة الديمقراطية في الفكر الإسلامي كانت تمارس وفقاً لفلسفة الشورى في الدين الإسلامي، التي تعني فيما تعني: أخذ الرأي بعد تبيان الأمر واستيضاحه مصداقاً لقوله تعالى: {وشاورهم في الأمر} 71 ويقول ابن منظور: "شاورهم تعني استخرج آراءهم" 72، وهناك من يقول: "هي تلقيح الرأي بآراء متعددة" 73. وهذا يدل على أن الشورى في الفكر الإسلامي تماثل الديمقراطية عندما تكون ممارستها حقاً للجميع الذكور والإناث، ولذلك يستوجب ممارسة الشورى في الأمر. والأمر هو: كل ما يتعلق بالإنسان من حقوق وواجبات ومسؤوليات، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أم خارجية، أو كان هذا الأمر في حالة السلم أم في حالة الحرب، وسواء كان اقتصاداً أو علاقات اجتماعية، ولذلك في الآية السابقة يخاطب الله عزّ وجلّ رسوله الكريم ويلزمه بالمشاركة في الأمر، أي وكأنه يقول، في وجودك يا رسول الله لا ينبغي أن تقرر أي شيء يتعلق بالناس نيابة عنهم، بل ما يتعلق بهم من أمرٍ يجب أن تكون فيه في حالة شورى معهم، ولذلك كانت الآية {وشاورهم في الأمر} موجهة إلى رسول الله

⁷⁰ النساء، 58.

⁷¹ آل عمران، 159.

⁷² تفسير الجلالين. بيروت، دار الفكر، ص 94.

⁷³ محمد متولي شعراوي، تفسير الشعراوي. القاهرة، أخبار اليوم، ج 3، ص 1840.

صلى الله عليه وسلم لتبين له أهمية المشاورة في الأمر مع الذين يتعلق الأمر بهم.

وفي حالة ما لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام معهم يصبح الأمر بينهم شورى مصداقا لقوله تعالى: {وأمرهم شورى بينهم} 74. إذن بكل وضوح إن الأمر الذي يتعلق بالناس في فترة الرسول صلى الله عليه وسلم كان في حالة شورى بين الرسول والآخرين الذين يتعلق الأمر بهم. أمّا من بعده فيترك الأمر بين الذين يتعلق بهم شورى يقررون ما يشاءون فيه، وينفذونه كما يشاءون وفق ضوابط الشرع، ولهذا لا ينبغي أن يتقدم أحد لينوب عن الناس فيما يتعلق بهم من أمر. وكلمة أمرهم، تتكون من جزأين هما: أمر، وهم، فالأمر هو ما سبق تبيانه، أما هم فجاءت مطلقة أي كل من هم على علاقة ارتباط مع الأمر، وهذا يعني لا وجود في الممارسة الديمقراطية بالمفهوم الفكري الإسلامي لأقلية وأغلبية، بل الوجود لكل دون استثناء، وكلمة بينهم الظرفية تعني، أن تقتصر الشورى في الأمر على الذين يعينهم الأمر فقط، ولا مكان لغير ذلك في المشاركة الديمقراطية، ولتأكيد هذا الاختصار قال عز وجلّ بينهم، ولم يقل بين الحاكم والمحكومين، أو بين السادة والعبيد، أو بين المسؤول وغير المسؤول.

وعبر التاريخ كانت هناك محاولات فكرية لممارسة الديمقراطية من الناحية النظرية، وهناك من الناحية العملية والتطبيقية ما يخالف ذلك بالتمام، حتى أصبح المعنى السائد للديمقراطية هو حكم الأغلبية، مع العلم أنّ هذا التفسير ليس له علاقة بمعني الديمقراطية ودلائلها اللفظية، ولذا أصبح التهرب عن دلائلها بتعويضات منقوصة، فالديمقراطية هي واحدة لا تتجزأ.

74 الشورى، 38.

وعليه فالسميع لا تخفي عليه خافية، لقد أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها سرها وعلنها، فلا تختلط عليه الأصوات ولا تخفي عليه جميع اللغات، كما ورد في الآية الكريمة {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} 75 وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ 76، فسمعه جل جلاله نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة، والخبفية والجلية، وإحاطته التامة بها.

وثانيهما: سمع الإجابة منه للسائلين والداعين والعابدین فيجيبهم ويشيهم كما في قوله تعالى: {فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَاجِرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ} 77. والاستجابة هنا لا تكون إلا بعد السمع، فهل يجب أو يستجيب من لا يسمع؟ بالتأكيد لا! وقد

⁷⁵ الرعد، 8 . 11.

⁷⁶ المجادلة، 1.

⁷⁷ آل عمران، 159.

أمرنا الله تعالى بالتوجه إليه بالدعاء من أجل أن يستجيب عز وجل
لدعائنا وجاء هذا الأمر صريحا في قول الله تعالى:

{إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ
وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي
سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ
وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى
تُؤْفَكُونَ} 78.

والاستجابة للدعاء من الله تعالى يمكن أن تكون فورية أو بعد
الدعاء مباشرة كاستجابته عز وجل لدعاء سيدنا نوح- صلى الله عليه
وسلم- الذي أخبرنا به تعالى في قوله: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ
فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ
عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاحِ وَدُوسِرٍ} 79.

ويمكن أن تكون الاستجابة مؤجلة إلى بعد فترة قصيرة أو طويلة
في الحياة الدنيا وذلك لحكمة يعلمها الله عز وجل كاستجابته لدعاء
سيدنا إبراهيم وابنه سيدنا إسماعيل- صلى الله عليهما وسلم- قال
تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً
مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا
وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 80، والله جل جلاله

78 غافر 59 . 62.

79 القمر 10 . 12.

80 البقرة 127 . 129.

يعلمنا بدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يدعو الإنسان بقبول عمله إذا قام به ونيته خالصة لوجه الله تعالى، فلا يكون دعوؤه لمصلحة خاصة أو أن يكون منافقا في حبه لله الخالق، وهو السميع العليم بالنفوس وبالضمائر، كيف لا وهو خالقها عز وجل، ولا يخفي على الخالق شيء في مخلوقه.

ويمكن أن تكون الاستجابة مؤجلة ليوم الآخرة كما في قوله تعالى: {إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} 81.

وقد لا يستجيب الله تعالى لدعاء الداعي إذا لم يكن مخلصا في دعائه، ولا موقنا بأن الله هو الوحيد الذي يُسأل وهو الذي يُنتصر به، أو كان إيمانه ضعيفا بالله عز وجل متزعزع العقيدة أو كافرا، وعدم الإجابة لا يعني عدم السمع في حق الله تعالى، ولكن هو سميع لكل قول من العباد المؤمن منهم والكافر، المخلص في عبادته والمقصر فيها.

وعلى الخليفة أن يكون سميعا مجيبا لله عز وجل أولا، فهو الذي منَّ عليه بنعمة السمع ونعمة استخلافه في الأرض، فلا بد أن يكون مجيبا لأوامر الله تعالى بالالتزام بأوامره والانتهاز عن نواهيه، وكذلك عليه أن يكون مجيبا لكل من يدعوه أو يطلب منه العون فلا ييخل عليه بتلبية دعوته وتقديم العون له ما لم يكن ذلك فيه معصية للخليفة المطلق.

وباللزوم اسم السميع في حق الله سبحانه وتعالى يستوجب أن يكون هذا الخالق السميع مالكا لكل شيء، وهذه الملكية مطلقة كما

81 المؤمنون، 109 . 111.

في قوله عزّ وجلّ: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} 82 ففي هذه الآية الكريمة وجه الله جلّ جلاله أنظار الخلق إلى أنه هو الخالق وهذه هي البداية، ثم أنّه القادر والمالك لكل ما لدينا ومنها السمع والبصر، فهو خالق هذه الحواس ومالكها ولا يملكها ملك جارحة وعين، وإنما ملك قدرة فيهبها لخلقه لأنه سميع بصير يمنحهم ما يسمعون به وما يبصرون، فإذا لم يكن مالكا للبصر والسمع فبأي وسيلة سوف يعطينا ذلك وهذا ما تؤكدّه الآيتان الكريمتان في قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَنْتَوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ مَلْءَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 83، إنّ الله أنعم على سيدنا سليمان بنعمة السمع الذي يفوق سمع البشر العادي، إذ أنه بواسطة هذه الميزة من الخالق له استطاع أن يسمع ويدرك خوف النملة من جنوده، وهذا يوصلنا إلى الكيفية التي يجب أن يكون عليها الخليفة على الأرض، فالخليفة الحقّ يجب أن يكون سمعه من سمع الله سبحانه وتعالى، وبصره من بصر الله عزّ وجلّ، فهو الذي يجعل حياته للخالق، ويعقد قلبه على ترك مخالفة الله تعالى، وترك معاصيه وأن يلزم الحقّ وأوامر الله عزّ وجلّ.

ونستوحي من بعض الآيات القرآنية الكريمة قرب الله سبحانه وتعالى بسمعه منا، {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ

⁸² يونس، 31.

⁸³ النمل، 18، 19.

اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ {84، ولأنه يعلم ما تكنه الصدور فهو يسمع النجوى منا إنه معنا أينما كنا ولا تخفي عليه خافية قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {85.

فتأكيد هذا القرب من الخالق جلّ جلاله يتأكد لجميع الخلق السمع المطلق له، لأن الخالق موجود في كل مكان، وفي كل الأوقات والأزمان، فهو أزلي فأين سيهرب الإنسان من رقابته وسمعه، وهو الرقيب على تصرفاته وأفعاله في الحياة الدنيا، فلا مكان يلجأ إليه دون علم ورقابة المولى عزّ وجلّ. من الممكن أن يختبئ الإنسان من غيره من المخلوقات إذا أراد السوء بجهالة، وأن يدبر ما يريد من قول أو فعل بعيدا عن إسماع الخلق، فيظن أن لم يره أحد، ولكنه نسي أن الله سبحانه وتعالى يسمعه ويراقبه وسيحاسبه عاجلا أم آجلا، فالذي لا يتحدث إلا بما يغضب الله عزّ وجلّ، ولا يتفوه إلا بالسوء، والذي يتسبب بجرح الناس وهو متعمد، والذي يطعن في أعراض الناس، والذين يسبون من هم أولى بالشكر والرحمة، كل أولئك يهرولون نحو جهنم، لأن الله تعالى هو العادل بحكمه، والرقيب على خلقه، والحسيب يوم تقوم الساعة، والعليم بحقوق عباده.

السميع المطلق هو الذي يستمع إلى الشيء قبل أن ينطق بما يود أن ينطق به، فعلام الغيوب يعلم بالشيء قبل وقوعه، ولذا فهو المستمع لما سيقال قبل قوله ولهذا فهو الله الواحد القهار جلّ جلاله.

⁸⁴ سبأ، 50.

⁸⁵ المجادلة، 7.

وعليه: هل يظن البعض بأنه يعلم الغيب ولا يستمع لما علم به؟، وما الفرق بين علم الغيب والاستماع للشيء قبل أن ينطق؟، وما معنى اللوح المحفوظ؟، وكيف نؤمن بعلمه للسر والنجوى ولا نؤمن بسمعه المطلق لما يُسرّ ويناجى به؟ وكيف استجاب لسيدنا أيوب بما يريد دون أن يفصح لو لم يكن سميعا عليما؟ وكيف يكون عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وعليم وخبير مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 86 كيف يكون كذلك إن لم يكن سميعا عليما قريبا مجيب الدعاء؟

السمع إحساس، والإحساس بالشيء يأخذ وجهين:

الوجه الأول: إحساس مباشر: بالنظر يشاهد وبالأذن يسمع، وبالأنف يُشم، وباللسان يذاق، وباللمس يُميز. قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْسُرْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا} 87.

الوجه الثاني: إحساس غير مباشر بالعقل يدرك ويتم استقراءه واستنباطه ومن سمات الوجوه يعرف مصداقا لقوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ

⁸⁶ لقمان 34.

⁸⁷ الإسراء 36 .38.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا {88}.

فعلى من أراد أن يكون خليفة الله عزّ وجلّ على أرضه يجب أن يعلم أن الله تعالى حاضر أمام عينيه في كل وقت، وحاضر في سمعه لأي شيء، وأن يطمع في استجابة المولى له إذا طلب ويثق في الإجابة، لأن الله تعالى هو السميع لعباده والعليم بهم، فتكون نفس الخليفة مطمئنة لحساب ومراقبة الخالق عزّ وجلّ له، ويكون هدفه هو مرضاة خالقه قبل مرضاة الخلق، فيكون سمعه وبصره وعلمه لله الحقّ، وعندما سيكون هذا الخليفة في ظل الرحمن يوم القيامة، يعفو عنه ويجازيه بالنعيم الدائم.

وكل إنسان موجود على الأرض يحتاج لأن يكون سميعا، فالأب يكون سميعا لأبنائه فلا يتجهون إلى أشخاص منحرفين عن الفضائل الإنسانية والقيم الاجتماعية ولذا فرعاية الأبناء من مسؤولية الوالدين وعليهما أن يجعلوا البيت هو مكان للنقاش والحوار وطرح المشاكل وطرق حلها وفقا لمكارم الخلاق.

وعليه ينبغي أن يراعي الخليفة الدقة في السمع، وألا يخطئ السمع في سماعه لبعض الأمور، وألا يجعل الظن غالبا على سمعه، فليثق الله ربه، وعلى العباد أن يعرفوا إن استراق السمع في قضايا خطيرة من شأنها إفساد العلاقات الإنسانية، وتفكيك بناء المجتمع ناهيك على أنها معصية لله سبحانه وتعالى.

وبناء على ذلك فإن تقوى الله خير منقذ من الوقوع في الظن وأن بعض الظن إثم؛ فليتقوا العباد ربهم فيما أمر به ونهى عنه. وأن يعتمد

⁸⁸ الفتح، 29.

مكارم الأخلاق في الإصلاح بين العباد وإذا قالوا صدقوا، وإذا عملوا
أخلصوا النية وأحسنوا عملا، وإذا حكموا يحكمون بالعدل، وأن
يكونوا سميعون طاعة لله وحده، وأن يتقوه في كل كبيرة وصغيرة، وأن
يحمدوه ويشكروه على واسع فضله.

ولهذا مطلوبٌ لكل ولي أمر أن يكون له السمع والطاعة من
رعيته، طبعاً على أن لا تكون هذه الطاعة في معصية الله سبحانه
وتعالى، وذلك كما جاء في حديث نافع عن عبد الله - رضي الله عنه
- عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى
الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا
سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ"⁸⁹ فالرَّسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام له حقُّ الولاء
والطاعة من المسلمين لما له من مكانة رفيعة وكيف لا وهو الذي
يتكلم بوحى من الله جلَّ جلاله وهذا من شأنه أن يوحد الصفوف،
فالسمع والطاعة لولي الأمر يقوي بنيان الأفراد وهذا ما وجدناه في
صفوف المسلمين في عهد الرَّسول - صلى الله عليه وسلم - فقد
كانوا مستمعين لأوامره في طاعة الله، ولا يخالفونه في شيء لأنَّه لن
يرتضي لهم معصية الخالق عزَّ وجلَّ.

وبالرَّغم من ذلك فقد أوضح الرَّسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام أن لا
ولاء لأيِّ ولي في معصية الله تعالى، لان السمع والطاعة يكون أولاً لله
تعالى، فإذا خالف الولي ذلك لم يكن له حقُّ الاستماع له والطاعة.

وفي هذه الحال يفرق هذا الولي غير الكفؤ بين الأفراد لأن هناك
من سيتبعه في معصية الله تعالى، وهناك من سيخالفه، وهذا بدوره
سيؤدِّي إلى ضعف الجماعة وتنازعها الدائم.

⁸⁹ صحيح البخاري، ج22، ص52.

وعلى الولي ألا يستغل هذا الولاء في غير مكانه، بل يجب أن يوجه هذا الولاء لخدمة الدين، وعليه أن يتذكر أن السمع والطاعة حتى منه هو إنما لله خالق هذا الكون، ومدبر أمره.

حتى أننا نجد أن الله بالرغم من أمره لنا بطاعة الوالدين، وجعل طاعتهما من طاعته إلا أنه أمرنا بعدم طاعتهما في معصية الله تعالى في قوله الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} 90، وكذلك قوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَتُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ اقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} 91.

كذلك نهي الله سبحانه وتعالى عن استراق السمع، وهي صفة ذميمة لا تؤدى بصاحبها إلا للتحقير، ولا يجوز لأي مخلوق أن يتعدى حدوده التي أعطاها له خالقه، فإن الله تعالى قد جعل لسمعنا حدودا ولحكمة هو مدركها، فكيف نتخطى هذه الحدود الإلهية؟

⁹⁰ العنكبوت، 8.

⁹¹ لقمان، 14. 19.

وحتى استراق السمع ممنوع على كل أنواع الخلق من الجن والإنس، لأنّ السمع المطلق هو ملك لله وحده جلّ جلاله، ولن يكون عقاب من أراد دخول هذه الحدود إلا عذابٌ وويل من الله عزّ وجلّ فقد قال الله تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} 92 أي أنه قد يسترق من الشياطين السمع ممّا يحدث في السماء بعضها، فيتبعه شهاب من النّار مبین، يبين أثره فيه، إما بإخباله أي إفساد أعضائه، أو بإحراقه 93.

هذا هو عقاب من يسترق السمع ويتجسس على ما لا يعنيه من الأمور، فعلى الخليفة أن يحرص على أن لا يستعمل سمعه فيما لا يعنيه أو فيما يغضب الله الذي استخلفه في الأرض فلا يتتبع عيوب الناس وعيوبهم وأحوالهم فيكون بذلك قد خرج من نطاق السميع المطلق وهذا يؤدي للمشاركة معه والله لا شريك له. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 94. علاقة قويّة بين ثلاثة:

الأول: الظن الذي هو الإثم (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ).

92 الحجر، 16، 18.

93 تفسير الطبري، ج 17، ص 77.

94 الحجرات 12، 13.

الثاني: التجسس الذي هو استماعك وتنصتك على الغير في غير مرضاة الله وفي غير مرضاة المتجسس عليه.

الثالث: الاغتياب (وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا) الاغتياب مثله الله كمن يأكل لحم أخيه ميتا وهذا يعني التحريم القاطع (أُحِبَّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ).

وبما أنّ الله سبحانه وتعالى رقيب على الخلق بسمعه وبصره وشهيد عليهم، إذن هو عادلٌ في حكمه وقضائه، فدعاؤه مجاب لكل خليفة ولكن زمن الإجابة يعلمه وحده لا شريك له فادعوه إنه قريب مجيب، { وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآلِي تُوْفِكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ } 95

إنّ الله سبحانه وتعالى يتصرف في كل شيء كما يشاء وهو بعباده لطيف خبير، فيخلق العبد وأفعاله الاضطرارية والاختيارية، فقد قال جلّ جلاله في كتابه العزيز: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ 96، فهو الذي يوجد ويُعِدُّم وفقاً للحاجة، ويرزق ويمنع وفقاً لما يشبع

95 غافر، 60 . 66.

96 الصافات، 96.

الحاجة، ويُشقي ويُسعِد وفقا لما يُقدم من أعمال، وهو الذي يرسل الرّسل وينزل الكتب وفقا لكل أمة، ويدبر الكون كما يشاء لأنه المالك لكل شيء بسمعه وبصره وعلمه، يكفي أن يستمع الإنسان إلى صوت الرعد، أو أن يستمع إلى صفير الرّيح، لكي يدرك مدى قوّة هذا الخالق ومدى ضعف المخلوق، فالرّعد الذي يخترق الآذان الإنسانية، ويثير الرعب في النفس البشرية هذا الصوت يسبح باسم الله عزّ وجلّ، وهذا ما ورد في الآية الكرّيمة: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾⁹⁷.

وبما أنّ الله تعالى هو السميع إذن فلا يجب في حقّ الله الصمم وما في معناه، كأن يسمع الجهر دون السر أو أن يسمع الأصوات دون الذوات، ولهذا استحالت صفة الصمم في حقّ الله تعالى لأنها من صفات النقص والله عزّ وجلّ منزّه عن كل نقص أو عيب، لأنّه لو اتصف بشيء منها لاحتاج إلى من يدفع عنه هذا النقص أو يكمله، والإله المطلق جلّ جلاله هو الحقّ الذي لا يحتاج لمن يحقّه، فلو كان سمعه سبحانه وتعالى ناقصا، لما كان عادلا، ولما سمع نجوى القلوب عزّ وجلّ وما يُكن في الصدور.

لذلك الإنسان الأصم حقّا ليس هو الذي فقد نعمة السمع، بل هو الذي أنعم الخالق عليه بنعمة السمع، فكفر بخالقه وسد آذانه وعقله عن سماع صوت الحقّ، فلا يسمع سوى وسوسة شياطين الجن والإنس والعياذ بالله، يركض خلفهم مطيعا لها، لا يوقفه عن كفره وعصيانه اسم الله حين ترتفع به المآذن، ولا يستمع لقول الله عزّ وجلّ يتوعد لمن جحد بنعمة الله له واستغلها في الكفر والمعصية: ﴿مَثَلُهُمْ

⁹⁷ الرعد، 13.

كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ
 وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ أَوْ
 كَصَيْبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي
 آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ يَكَادُ الْبَرْقُ
 يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ
 شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {98
 فلا يشترط وجود آذان بشرية لكي يكون الإنسان سميعاً للحق، يفر
 بواسطة هذه النعمة من النار وعذاب الحريق، فالمنافقون والجاحدون لا
 يصح وصفهم إلا بالصمم.

وكذلك تشبيه الكافرون بالبهيمة التي تسمع الصوت ولكنها لا
 تفهم معناه، وذلك في قوله عز وجل: { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي
 يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمِّيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ يَا
 أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ
 تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ
 فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ
 يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا
 يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
 وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابُ
 بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ {99، فللكفار هنا حالتان:

الأولى: حالة الإعراض عن الإسلام.

والثانية: حالة الإقبال على الكفر، وذلك لأنهم فقدوا بكفرهم
 التمييز، فمن ضمن الفروقات الجلية بين سائر المخلوقات وبين

⁹⁸ البقرة، 17، 20.

⁹⁹ البقرة، 171، 175.

الإنسان هي القدرة على التمييز، سواء كان تمييزاً بالصورة أو الصوت، أو حتى بالقلب.

فالتمييز ومركزه العقل، ميزة وهبها الله للإنسان، فقد خلق الله تعالى للبهائم والطيور آذاناً لكنه لم يهبها نعمة التمييز، فإن لم يصل الإنسان إلى التمييز بين الحق والباطل فهو فقد ميزة آدمية بالتأكيد، لأنه بالسمع والبصر والكلام يُرشدهم العقل، فإذا حُجب على كل هذه الحواس بحجاب الكفر، فقد الإنسان رشده، فالعقل لا يعمل بلا السمع الحق والبصر الحق والكلام الحق "فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالذباب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعت بها راعيها، أي: دعاها إلى ما يرشدها، لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، بل إنما تسمع صوته فقط" 100.

وفي صورة ثانية للكافرين قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} 101 أي أن الذين يكذبون بحجج الخالق عز وجل

¹⁰⁰ تفسير ابن كثير، ج 1، ص 480.

¹⁰¹ الأنعام، 39 . 44.

وأدلته صمٌّ عن سماع الحقِّ بكم عن القول به، وبهذا يكونون قد عُدموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم، فلهم أبصار وأسماع لا يوجهونها إلى التأمل فيما خلق الله تعالى، وفيما يسمعون من آيات الله عزَّ وجلَّ المنزلة على رسله، ومن أخبار التاريخ الدالة على سنته في خلقه.

فإن كان الإنسان يسعى لأن يكون خليفة الله في أرضه، لا يجب أن يكون أصما عن الحقِّ بالرغم من وجود نعمة السمع لديه، بل يكون سميعا بقدر الإمكان البشري الذي منحه الله لنا لأوامر خالقه، مستخدما سمعه في البحث عن كل ما هو خفي في كل ما حوله، مظهرا لأسرار جديدة كامنة فيما حولنا، فعندها يكون سمعه في خدمة علمه وعلمه في خدمة خالقه، وبهذا يكون قد استحقَّ أن يكون خليفة الله تعالى في أرضه، حتى ولو كان الله قد خلقه أصما يستطيع أن يسمع بقلبه وعقله، ويستطيع أن ينجز أكثر ممن لديهم نعمة السمع دون فائدة، إذا توكل على الله وجعله في قلبه فسيكون الله بالتالي سمعه الذي سيغنيه عن كل من حوله، والدليل على هذا نجد بعضا من أصحاب العاهات روادا في مجالات عديدة، لم تمنعهم فقداهم لنعمة من النعم من أن ينجزوا ما لم ينجزه الأصحاء، فلا يمنع الإنسان أن يبدع إذا كان أصما أو أعمى أو غيرها، فلا يشترط إذن أن يكون الخليفة كامل الحواس فالكمال لله وحده، فمن الممكن أن يكون فاقدا لحاسة من الحواس، لكن الله سبحانه وتعالى سيعوضه بما هو خير، إذا أخلص في نيته لله تعالى وتوجه له فقط دون غيره، أو حتى إذا كان لديه نقص معين في حاسة مثل ضعف في النظر أو السمع، فبإمكانه أن يكون كامل السمع إذا أراد الإنسان، فلا فرق عند الله سبحانه وتعالى بين صحيح وعليل، حتى أن الرسول - صَلَّى الله عليه وسلّم - عوتب في ابن أم مكتوم وقد كان أعمى، وذلك

كما جاء في قوله تعالى: {عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى} {102}.

ونرى أن الله عزّ وجلّ وجه العديد من الكلام وخصه للذين يسمعون، وهذا دليل على ما للسمع من أهمية في تمييز الحقّ والباطل، وفي ذلك قوله عزّ وجلّ: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} {103}، وكذلك قوله تعالى: {وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} {104}، أي أن الله تعالى ربط بين آياته ودلائلها والإيمان بها بالسمع البشري، والسمع هو الذي يؤدي إلى الإيمان بالخالق عزّ وجلّ، والسمع الذي يكون لكلام الله تعالى فقط دون سواه، الأقوام التي تسمع هذه الآيات فتعقلها وتدبرها أولئك هم الذين يعمرّون الأرض.

والمؤمن الصادق هو الذي يصون أذنه عن سماع اللغو والباطل، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} {105}.

إذن قد فرق القرآن بين الذين يتمتعون بالسمع كحاسة فقط، وبين الذين يتمتعون بالسمع كتدبر وفهم واستيعاب للأمور بعقل سليم، فالنوع الأول قد جعل الله تعالى سمعهم وكأنه صمم، أما النوع الثاني فقد جعل الله تعالى سمعهم إدراكا وتدبرا.

102 عبس، 1. 4.

103 يونس، 67.

104 النحل، 65.

105 القصص، 55.

والنوع الثاني هو الذي يجب أن ينتمي إليه خليفة الله عز وجل في أرضه، الذي يجعل من سمعه وسيلة للطاعة، كما أراد الخالق عز وجل عندما قرن الطاعة بالسمع في قوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 106، فقد قرن الخالق جل جلاله بين السمع والطاعة وهذا هو السمع الحق.

وعلى خليفة الله تعالى في أرضه أن يصبر فالصبر مفتاح الفرج، وأن يكون على يقين أنّ الله سبحانه وتعالى معه، مادام هو مع الله.

وعلى الخليفة أن يقرن سمعه بالطاعة لله عز وجل لكي يحظى بالاستجابة، فبهذا يكون قد وجّه نعمة الله تعالى عليه إلى الله عز وجل، وذلك كما جاء في قوله جل جلاله: {أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 107.

والسميع جل شأنه إنما هو محيط بمخلوقاته إحاطة مطلقة بجميع حركاتها وسكناتها، فهو جل جلاله قريب لا من حيث الزمان والمكان، سميع لا بآلة ولا بأداة، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا. إنه معكم، إنه سميع قريب" 108 فالله تعالى سميع بصير بعباده

¹⁰⁶ التغابن، 16.

¹⁰⁷ البقرة 285.

¹⁰⁸ رياض الصالحين، ج 1، ص 120

وجميع مخلوقاته، إنه يسمع ويرى، فلا يغيب عن سمعه مسموع وإن خفي. ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق. ولا يحجب سمعه بُعد المكان ولا يدفع رؤيته شدة ظلام. فكما يرى من غير حدقة وأجفان، فإنّه يسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب وبيطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق. ولهذا كان السميع العليم متفردا بصفة السميع المغايرة لما يسمعه المخلوقون، إذ أنّ الكلام المسموع يحتاج إلى أدواته السمعية التي توصله إلى من يسمعه، وهذه الأدوات السمعية مشتركة بين الداخل والخارج، فالداخل ما يمتلكه السامع من أداة. أي سامع أنسان أو غيره. من الأذن الخارجية والوسطى والداخلية وما تضم بينها من أدوات أخرى كالصماخ والتجويف وطبلة الأذن والمطرقة التي تتعاون فيما بينها لتحويل الذبذبات الخارجية إلى أصوات مفهومة من الكلام الذي يحلله الدماغ إلى ما اختزن من معانٍ معرفية، وأما الخارج فهو الفضاء والهواء وما تحدثه الأصوات من ترددات تنتقل بسرعة وبطئا حسب شدة الصوت، وتتعاون الأدوات الداخلية والخارجية تحدث لنا سماع الأصوات نحن المخلوقين. أما الخالق عزّ وجلّ فإن سمعه لا بدّ أن يكون مغايرا لسمعنا بالضرورة، إذ لا يستوي الخالق والمخلوق في أي شيء، فكيف يكون الله تعالى سميعا؟

والجواب على ذلك يكون من منطلق الكلام الذي يفترض أنه مسموع من قبل السامع، فالله سبحانه وتعالى كلّم موسى تكليما، فكما أن كلام الله لا يشبه كلام الخلق، فكذلك سمعه لا يشبه سماع الخلق، لأن موسى صلّى الله عليه وسلّم: "سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض. وإذا كانت له هذه الصفات كان "حيا عالما قادرا مريدا

سميعا بصيرا متكلمنا بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات"109. فإذا كان موسى عليه الصلّاة والسّلام سمع كلام الله تعالى بغير صوت ولا حرف فهذا يعني خروج عن سنة الله في خلقه بمشيئة الله، إذ ما ينبغي للأعلى أن يتصف بصفات الأدنى، لذلك فإن الله تعالى ترفع بموسى عليه الصلّاة والسّلام عن السنة الكونية في طبيعة البشر إلى مرتبة أعلى حتى يتسنى له أن يسمع كلام الله تعالى، وهذا دليل على أن صفات الله تعالى وأفعاله بغير عين ولا جارحة، فقد قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾110، ومع ذلك فقد كان كلام الله تعالى لنبيه موسى عليه الصلّاة والسّلام على قدر استطاعة تحمله لكلامه تعالى، ولم يكن كلاما مباشرا كما يكلم أحدنا الآخر في عملية الحديث والمواجهة، لأن موسى عليه الصلّاة والسّلام: "لما أتى طور سيناء انزل الله الظلمة على سبع فراسخ وطرد عنه الشيطان وطرد عنه الهوام ونحى عنه الملكين وكشف له السماء فرأى الملائكة قياما في الهواء ورأى العرش بارزا وكلمه الله وناجاه حتى أسمعته كلامه من غير واسطة وكيفية وصوت وحرف"111 فالله سبحانه على ما نعتقد أسمع موسى عليه الصلّاة والسّلام كلامه بالطريقة التي شاء بها الخالق عزّ وجلّ أن يسمعه، لأن جميع العلماء على رأي واحد في هذا الأمر، أن كلام الله تعالى لموسى عليه الصلّاة والسّلام من غير كيف ولا واسطة ولا حرف ولا صوت، وهو مصداق لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ

¹⁰⁹ إحياء علوم الدين 1،97

¹¹⁰ النساء 164

¹¹¹ تفسير حقّي، ج 3، ص 154

إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ {112} فهذه الآية دليل على أن الله تعالى ما ينبغي له أن يكلم بشرا كفاحا إلا من وراء حجاب، فمن ذلك الكلام إلهام إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام في نومه أنه يذبح ابنه، وكذلك ألهم أم موسى عليه الصلّاة والسّلام أن تقدفه في التابوت ثم تقدفه في اليمّ، أو من وراء حجاب مثلما كلّم موسى عليه الصلّاة والسّلام دون أن يراه حيث قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ أَنظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} 113 فكلام الله تعالى سمعه موسى عليه الصلّاة والسّلام بطريقة مغايرة عن سماعه في الطبيعة الإنسانية، "وما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا وحيًا بالإلقاء في القلب إلهامًا، أو منامًا، أو بإسماع الكلام الإلهي دون أن يرى السامع من يكلمه، أو بإرسال ملك يرى صورته، ويسمع صوته ليوحي بإذن الله ما يشاء، إنّ الله قاهر فلا يمانع، بالغ الحكمة في تصرفاته وتدييره" 114 وعلى هذا فإن الله تعالى سميع لا نقول بهذه الكيفية التي كلم بها نبيه عليه الصلّاة والسّلام، وإنما هو سميع بفعل الكينونة ولا نبحت في طريقة السمع أو كيفيتها، ولكن طالما أن الله تعالى أحاط بكل شيء علما فقد دخل السمع ضمن الإحاطة الإلهية لأعمال خلقه.

إن الله سبحانه وتعالى وصف نفسه بأنه سميع بصير لا يغيب عنه شيء في السموات ولا في الأرض ممّا تكنه هواجس مخلوقاته أو خفايا ضمائرهم وما يراودهم من الوهم أو التفكير، ولا يعزب عن سمعه

112 الشورى 51

113 الأعراف 143

114 النخب، ج 2، ص 350

صوت ديبب النملة على الأرض، ولا طنين النحلة في الهواء، ولا انسياب الحيتان في أعماق الماء، فهو جلّ جلاله سميع بصير لأنه متصف بصفات الكمال، والسمع والبصر من كمال صفات الله تعالى، فهو السميع مطلقا بدليل آيات خلقه التي تتصف بالسمع المتفاوت فيما بينها سواء على صعيد النوع أو على صعيد الجنس، لأنّ المخلوقات التي تمتاز بالسمع هي ثلاثة أنواع: فنوع سامع ناطق، ونوع سامع صائت ونوع سامع ساكت، وهذه الأنواع سمعها متفاوت ومتباين فيما بين الأنواع حدة وبعدا وقربا، فالإنسان سامع ناطق وهو صاحب عقل مميز، لذلك كان سمعه موازيا لعقله على قدر حاجته للسمع الواعي، لذلك كان سمعه أدنى درجات المخلوقات السامعة، لأنّ العقل بتمييزه عوضه عن شدة الحاجة إلى درجة عالية من السمع، فأخذ نصيبه منه على قدر حاجته وفق ما قدره السميع العليم، وأما النوع الثاني فهو السامع الصائت من الحيوان والطير، حيث كانت حاجتها إلى درجة أعلى من السمع أكثر من حاجة العاقل لعدم التمييز، فكان لديها استشعار الخطر عن طريق السمع، فإن اعتمادها عليه أكثر، لذلك كانت الحاجة إليه أشد، ومن هنا نرى الفرس مثلا أشد سماعا من الإنسان على مستوى النوع لأنه غير مميز، وكذلك أشد سماعا من الأسد على مستوى الجنس لأنه يفتقد وسائل الدفاع عن النفس إلا ما أعطي من شدة الجري، فكانت حدة سمعه إحدى وسائل الدفاع. أمّا المخلوقات السامعة الساكنة فإنها تتصف بحدة السمع أكثر من جميع الأنواع لأنها تكاد تكون بالنسبة لها وسيلة الاتصال الوحيدة من جهة وكذلك وسيلة دفاع من جهة أخرى لأنها تعرف من خلالها مكامن الخطر، فالحيتان مثلا تتلقى أصوات بعضها البعض عن بعد آلاف الأميال، إضافة إلى ذلك فإنّ التفاوت في السمع بين كلّ جنس من الأجناس لا يخفي على ذوي

الاختصاص في هذا المجال، من الإنسان إلى الطير والوحوش والحيوانات البرية والمائية، ونريد أن نخلص من هذا التقديم إلى أنّ الخالق السميع البصير الذي أعطى كل شيء خلقه، وما يحتاج إليه في شؤون حياته، أعطاه ذلك على أحسن وجه من حيث كمال المخلوق، ونقصد بذلك ما نحن بصدده، ألا وهو السمع. فإذا كانت مخلوقات السميع لها هذه الخواص من حيث السميع، فلا بدّ أن الخالق عزّ وجلّ له من صفة الكمال كونه سميعاً، ما يترفع به عن مخلوقاته من الكيف والأداة، ولذلك كان النقص في السمع لبعض الخلق عن البعض الآخر مدعاة لصفة الكمال في الخالق بصرف النظر عن الكيف والصوت والأداة، وإنما برهان ذلك يكون من خلال آيات الخالق السامعة، إذ محال أن يكون الخالق يتصف بصفة المخلوق وإن كانت الصفة مشتركة، فقد امتاز السميع عزّ وجلّ بنفي الكيف والأداة والزمان والمكان، لذلك قال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كما جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا} 115 فخرج من ذلك كل سامع وكل مبصر غير السميع البصير، فدعوة إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لأبيه بترك عبادة الأوثان كانت بالابتعاد عن عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، فلم يفهم أبوه أنّه يريد أن يحوله إلى معبود آخر يسمع ويبصر من ذوات الأرواح، وإنما هي دعوة لعبادة السميع المطلق الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

والسميع جلّ جلاله هو الذي يسمع خلقه ما يريد منهم وما يأمرهم به وما ينهاهم عنه فقد جاء في قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

115 مريم 41، 42

بِالْحَجِّ يَأْتُونَكَ رَجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا
 مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ
 الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا
 نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ {116} فالأذان من إبراهيم عليه
 الصَّلَاة والسلام والله السميع هو الذي اسمع عباده نداء التوحيد من
 أجل تلبية الله تعالى: "رُوي أن إبراهيم عليه السلام لما فرغ من بناء
 البيت قال الله تعالى له: أذن في الناس بالحج قال يا رب: وما يبلغ
 صوتي، قال تعالى: عليك الأذان وعليّ البلاغ فصعد إبراهيم الصفا
 فادخل إصبعيه في أذنيه واقبل بوجهه يمينا وشمالا وشرقا وغربا وقال
 أيها الناس ألا إن ربكم قد بنى بيتا وكتب عليكم الحج إلى البيت
 العتيق فأجيبوا ربكم وحجوا بيته الحرام ليشيكم به الجنة ويجيركم من
 النار، فسمعه أهل ما بين السماء والأرض، فأجابوه من ظهور الآباء
 وبطن الأمهات في عالم الأرواح، فما بقي شيء سمع صوته إلا أقبل
 يقول لبيك اللهم لبيك" 117.

فالله سبحانه وتعالى هو السميع المطلق، فقد أمر الخليفة أن يؤذن
 بالناس ليسمعهم ما أوجب الله عليهم، حيث أن التبليغ يكون عن
 طريق السماع بالنسبة للبشر، ويكون ذلك مدعاة للفهم والوعي، لأن
 السميع العليم جعل السمع شاهدا على العقل والقلب والفؤاد حيث
 قال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
 كُلُّهُ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} 118 فلا يتبع الإنسان ما لا علم له به
 من قول أو فعل، فلا يقول: سمع، وهو لم يسمع، أو علم، وهو لم

116 الحج 27 . 29

117 تفسير حقي، ج 8، ص 395

118 الإسراء 36

يعلم، فإن نَعَمَ السمع والبصر والقلب يسأل صاحبها عما يفعل بكل منها يوم القيامة.

فالسامع يجب عليه أن لا يتبع كل ما يسمعه ويقف أثره مما ليس له به علم من المسموعات التي ربّما تؤدّي به إلى التهلكة من قول ينتج عنه فعل، كمن يتبع مسلكا لا يدري أنه يوصل إلى مقصده حسب اعتقاده ممّا يظن أنه فيه خير له فيرجح ظنه باعتقاده، لأن الاعتقاد الراجح في حكم الاعتقاد الجازم، والجزم من غير دليل عن طريق السمع لا يوصل إلى اليقين، لذلك وجب التبصر فيما يسمع، ولما كان السمع هو الأداة التي تهيم للجوارح ما تقوم به من أفعال، كانت هذه الجوارح مسؤولة عن أحوالها وشاهدة على أصحابها، ومن هنا جاء المنع من إتباع كل ما يسمعه المرء، أو النهي عن إتباع كل ما فيه جهل ممّا يتعلق بالسمع والبصر والقلب، خاصة وأن القلب هو الذي يقبّل حديث السمع على وجوهه حتى يميز بين الخبيث والطيب، لذلك قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 119، وحيث أن السمع هو أداة التوصيل إلى الوعي، إذ أن الإصغاء مدعاة للفهم، والفهم هو إدراك معنى ما يسمعه السامع، وما يترتب على هذا الإدراك من نتائج إما أن توصل السامع إلى الحكمة، وهي درجة الأنبياء والخلفاء والأولياء الذين يقومون بما كلفوا به من إسماع ما أمر به السميع المطلق إلى بقية الخلق، فقد قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} 120 ومدار الحكمة

119 الحج 46.

120 البقرة 269

أصلاً قائم على السمع، لذلك فإن السميع المطلق هو حكيم جلّ جلاله، وهذا الترابط والتلازم بين السمع والحكمة يكون هبة للخليفة من الله تعالى بحيث يجب أن يتجلى ذلك في تطبيق ما أمر به الخليفة من أجل الوصول إلى النتائج المترتبة على السمع والحكمة مما يؤدي إلى إعمار الأرض وإصلاح النَّاس، فقد أمر الخليفة بهذا من السميع المطلق بقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 121 وهنا يقوم الخليفة بدوره في الدعوة إلى طريق الحقّ الذي شرعه السميع المطلق من أجل إسماع الخلق وصولاً إلى الهداية، ويسلك الخليفة وهو السميع بالإضافة في إسماع النَّاس ودعوتهم، الطريق الذي يناسب كل واحد منهم من خلال ما أوتي من الحكمة، فيسمع أصحاب العقول النيرة والمدارك العالية، القول الحكيم المناسب لقولهم، ويدعو من هم أقل من ذلك وعياً بما يناسبهم من إيراد المواعظ، ويضرب الأمثال التي توجههم إلى الحقّ، وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم، وكذلك يسمعهم عن طريق الجدل والحوار بالمنطق السليم والقول اللين، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سباب حتى يتمكن من إقناعهم واستمالتهم وصولاً إلى قلوبهم وأفئدتهم، وهذا هو الطريق الذي يسلكه السميع بالإضافة لدعوة النَّاس إلى السميع المطلق على اختلاف ميولهم، والإسماع عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة هو السبيل الذي يقيم الحجّة، وترك أمرهم بعد ذلك إلى اختيار عقولهم التي تميز الخبيث من الطيب، والشر من الخير.

121 النحل 125.

فالأمر هو دعوة الخلق إلى سبيل السميع الحكيم بالحكمة وهي أعلى درجات الفعل المتزن الذي يتصف صاحبه بالهدوء وسعة الصدر وصفاء القلب ونقاء السريرة وهذا هو الخليفة الذي يدعو بما سمع من السميع المطلق لهؤلاء الذين يريدهم الله أن يكونوا خلفاء في الأرض، فيترفع بهم السميع بالإضافة عن الطباع التي لا تليق بمن يشاء الله له أن يكون خليفة في أرضه، والوصول إلى هذه الدرجة له سبيل واحدة هي السمع، ولكن نوعية السمع للوصول إلى الترفع والتسامي الذي يميز العاقل عن غيره هو إسماع العقل والقلب واليقين عن طريق أداة السمع، فهنا يمتاز العاقل من غير العاقل، ونقصد به الثقيلين من الجن والإنس، لذلك نراهم كما قال تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ} 122 فالذين سمعوا الخليفة عند ما دعاهم بالحكمة والموعظة الحسنة هم الذين آمنوا لأنّ السمع أثر في قلوبهم وأفتدتهم وصدورهم، وأما الذين كفروا فهم الذين سمعوا أيضا ما سمعه الذين آمنوا، ولكن الحكمة والموعظة الحسنة التي سمعوها لم تتجاوز أذنه، أي أداة السمع التي يتوصل بها إلى يقين القلب وتسامي الروح وانسجام النفس مع الفضائل بمعنى أن تلك الحكمة لم تصل إلى قلوبهم وهو مصداق لقوله تعالى: {فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} وهنا يجب أن نشير إلى مسألة دقيقة يختلط بها السمع بالبصر ويجب أن نتميز بينهما ففي الآية الكريمة جاء ذكر البصر بمعنى السمع، وهو بصر السمع أنّ صح التعبير، أي إن كان للبصر سمع فهذا هو المشار إليه، ذلك أن الصور المشاهدة عن طريق أداة البصر التي هي العين، إنما هي رؤية سواء في اليقظة أم في المنام حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} 123 وكذلك قوله تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ} 124 فهذا النوع من الرؤية انعدمت فيه الأداة، وأما الصور التي تأتي عن طريق الأداة ونقصد هنا المشاهدة العينية، فلم يقترن معها في القرآن الكريم قلوب أو صدور أو أفئدة، وهذا يدل على تخصيص المشاهدة العينية للصور المادية وهو كثير في القرآن الكريم كقوله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَنَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} 125 وكذلك قوله تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 126، وكذلك قوله تعالى: {لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ} 127 من وهنا يتضح لنا الأمر في استخدام اللفظ على الدلالة لذلك نعود فنقول أن بصر السمع مقترن بالوعي المتأني عن طريق التفكير فيما يسمعه السامع، فقوله تعالى: {وما تعمى الأبصار} فهو عمى عن السماع لأن القلوب لا ترى الرؤية المادية للصورة المشخصة، وإنما ترسم صورة متخيلة من خلال السماع عن طريق الوعي الذي يدفعها إلى القلب الذي يشكل الصورة، وتشكيل الصورة عن طريق السمع تتعلق بأحد جانبيين لا ثالث لهما، وهما جانب الخير وجانب الشر، وكلاهما مرتبط بالقيم الأخلاقية التي يتمتع بها السامع، لأن الأخلاق جزء من تكوين الإنسان وهو الجزء المهم على ما نعتقد، لأن هذه القيم الأخلاقية إنما تكونت لدى الإنسان عن طريق السمع أكثر من بقية الحواس

123 يوسف 4

124 الصافات 102

125 الواقعة 6364

126 فصلت 53.

127 النجم 18

الأخرى، ذلك أن الإنسان منذ نعومة أظفاره إلى أجله وهو يسمع الأحاديث والقصص وتجارب الآخرين، وأما الأفعال فهي نتيجة تقليد لما سمعه أو محاولة تجريب شخصية وهذا نادر جدا، فمعنى ذلك أن الأخلاق بشقيها إنما هي جاءت عن طريق السمع، فالشق الأول هو القيم الفاضلة، والشق الثاني هو قيم الرذيلة المتدنية، وكلاهما يندرج تحت الأخلاق، إذ أنّ الكذب والسرقة والزنا هي من القيم الأخلاقية، وكذلك الصدق والأمانة والعفة هي قيم أخلاقية أيضا، ولكن الصدق والأمانة والعفة تندرج تحت الأجزاء العليا المتسامية من الفضائل في الأخلاق، بينما يكون الكذب والسرقة والزنا ينتمي إلى الأجزاء المتدنية في الرذائل من الأخلاق، وبما أن القيم الأخلاقية بصرف النظر عن نوعها سواء أكان مبدؤها عن طريق السمع ثم تأتي بعد ذلك محاولة التقليد أو التجريب للأفعال ومن ثم تكون سمة للشخص الممارس لهذه القيم التي يتصف بها بعد ذلك، فيؤدّي السمع بذلك إلى أحد أمرين يتصف من يحمل هذه الصفات بتلك الأخلاق التي تتشعب إلى جانبين، فالقيم الأخلاقية السفلى وهي المتدنية تندرج تحت باب الشر، والقيم الأخلاقية السامية العليا ترتفع إلى مستويات الخير، وكلاهما قيم أخلاقية يكتسبها الإنسان عن طريق السمع، ولكن اختياره هو الذي يجعله من أصحاب القيم الفاضلة السامية وبذلك يكون خيرا، أو من أصحاب القيم الرذيلة المتدنية بحيث يكون شريرا، فالذي سلك مسلك الخير من خلال ما سمع، فقد استوعب الحكمة والموعظة الحسنة التي تجعله مهيبا لأن يكون خليفة، والذي سلك مسلك الشر فقد ضل ضلالا بعيدا، فهو كالأنعام أو أضل سبيلا.

إنّ درجات السمع وأحوالها وطرقها مختلفة ومتفاوتة ومتباينة بين السميع المطلق والسميع بالإضافة وسماع بقية الخلق من البشر،

فالسميع المطلق جلّ جلاله لا يمكن أن نقول إلا أنه ينعدم في طريقة سماعه الكيف والصوت والحرف والزمان والمكان فهو خالق الخلق وهو بكل شيء عليم حيث قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 128 فالذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استولى على العرش بتدبير ملكه وإحكام شؤون هذا الملك والخلق، فهو بالضرورة يعلم كل ما تضمه الأرض وما يخرج منها، وكل ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، لذلك فهو عليم محيط بشؤون خلقه، وبما أنه عليم فهو سميع بصير، فقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه ما من شيء إلا يسبح بحمده حيث قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} 129 ومن هذه الآية نقف على دليلين مهمين فيما نحن بصدده من السميع المطلق، الدليل الأول: أن التسبيح لا يكون إلا للأحياء، ومعنى ذلك أن كل شيء يسبح بحمده، وطالما أنه يسبح فهو حي بصرف النظر عن كل نوع من حياة المخلوقات المختلفة من الأحياء العاقلة كالملائكة والجن والإنس، والأحياء الأخرى من الحيوان والنبات، ومن المخلوقات التي نطلق عليها نحن اسم الجماد، ولكنها تسبح بحمد ربها بحياة لا نعلمها، والدليل الثاني: أن الذي أخبر أنها تسبح فهو يسمع تسبيحها، ولو لم يسمع تسبيحها لما أخبر بذلك لأنه غني عن هذا التسبيح، وإعلامنا بذلك هو إخبار على أنه سميع.

128 الحديد 4

129 الإسراء 44

وسماع السميع المطلق جلّ جلاله أخبر الخلق بأنه سميع لكل شيء، ولكن لا يطلعهم على ذلك إلا بقدر معلوم في وقت مخصوص وبطرق مختلفة، فالسميع المطلق يسمع كل ما يصدر عن خلقه من أقوال، ويرى جميع ما يقومون به من أعمال، ويكون الإخبار به بأوقات متفاوتة وطرق مختلفة، فأقوال العباد التي يحاسبون عليها في الثواب والعقاب يسمعها السميع العليم ولكن مشيئته اقتضت إخبارهم بها في اليوم الآخر حيث قال تعالى: {يَوْمَ نَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} 130 وأما ما يخص أحوال النَّاسِ في دينهم ودنياهم من الأسئلة التي كانت تطرح على الأنبياء عليهم الصَّلَاة والسَّلَام، فيكون الرد على سماعها بطريق الوحي، حيث نجد جميع الأسئلة التي وجَّهت للرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام، كان يأتي بها الوحي بفعل الأمر (قل) إلا سؤالاً واحداً سنتكلم عليه لاحقاً. فالسميع المطلق يسمع كل ما في الوجود، ونلاحظ أن الأسئلة الكثيرة التي كانت توجه للرسول عليه الصَّلَاة والسَّلَام، ممَّا جاء في قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} 131 وقوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ} 132 وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} 133 ومثله قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْحُمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ

130 آل عمران 30

131 البقرة 189

132 البقرة 215

133 البقرة 217

وَأْتَمَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا {134} وكذلك: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ
قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ} {135} وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ
السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا
هُوَ} {136} وكذلك قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ
لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ} {137} فجميع هذه
الأسئلة وأمثالها التي سمعها السميع العليم، كانت الإجابة عنها بطريق
الوحي للرسول عليه الصلاة والسلام بتكليفه بالإجابة لما سمعه الله
منهم، بأمره أن يقول ويجيب عما يسألون عنه، وأما السؤال الوحيد
الذي تولى السميع المجيب بنفسه الإجابة عنه فهو في قوله تعالى:
{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} {138} فهنا لأنّ الأمر
مختلف فقد تولى السميع الإجابة بنفسه ليدل على أنه سميع وسريع
الإجابة لمن يدعوه، ولأنّ الدعاء لا يكون إلا لله والرجاء لا يكون
منه، فكان ذلك منطقياً بسرعة السمع التي يترتب عليها سرعة
الإجابة فهو مطلع على العباد، عليم بما يأتون وما يذرون وما يتبعون
من الله السميع من فضل ورحمة، فهو قريب من عباده بحيث يعلم ما
يخفون وما يعلنون، وما يسرون وما يجهرون، ولم تكن الإجابة هنا
بالفعل (قل) وإنما تولى السميع المطلق الإجابة المباشرة: إني أقرب
إليهم ممّا يظنون، ودليل ذلك أن دعوة الداعي تصل في حينها، وهو
الذي يجيبها في حينها كذلك، وإذا كان السميع استجاب لهم،

134 البقرة 219

135 المائدة 4

136 الأعراف 187

137 الأنفال 1

138 البقرة 186

فليستجيبوا هم أيضا بالإيمان والطاعة فإن ذلك سبيل إرشادهم
وسدادهم.

وعليه فإنّ إظهار الخوف من تعجيل العقوبة من قبل فرعون
أعقبه سياق قرآني يفتح شفرات الخوف لدى موسى وهارون عليهما
السّلام ويعيد إغلاقها ضمن قدرة إلهية رسمت شكل العناية ضمن
مفردات قوله (معكما) وقوله: (أسمع) وقوله تعالى: (أرى).

ولهذا؛ فالمعية هي معية حفظ تزامنية تفضي إلى المصاحبة الدائمة
التي لا تنفك، ففيها اطمئنان للنفس وفيها الثبات والمضي نحو دعوة
الله تعالى.

أمّا السماع والرؤية فهما يميلان إلى حفظ الله تعالى لموسى
وهارون في صورة تتجلى فيها عظمة الله تعالى وقدرته.

إنّ بداية موسى وهارون صلّى الله عليهما وسلّم فيها
استحضارات مختلفة تريد فتح بوابة فرعون التي آن لها أن تفتح بعد
انتظار وترقب، فلا بدّ من التغيير، ذلك أن الله تعالى يعطي الوقت
الكافي للكافر والمشرك والطاغي والمتجبر كي يحدد نهايته التي يريدتها،
وهذه النهاية تكون وفق الرسالة التي يحملها له النبي المرسل، فعلى
أساسها تكون نهايته، وعلى أساسها يحاسب.

إنّ حياة الأنبياء صلّى الله عليهم وسلّم هي ليست خاصة بهم،
بل هي التي فيها الدروس والعبر لمن يريد أن يتعظ، ففرعون قد يتكرر
مرة أخرى ولكن بالطبع ليس باسمه، بل يتكرر بتجبره وطغيانه
وتجاوزه، فضلا عن ذلك أن أسلوب الدعوة يتكرر مرة أخرى، فقد
رسمه الله تعالى ليكون الطريق الأمثل لدعوة النّاس جميعا إلى أن يرث
الله تعالى الأرض ومن عليها.

إنّ موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام يدركان جيّدا بطش فرعون، ولهذا كان كلامهما مرتبط بواقعية ما يحدث على أرض الواقع، فقد كانت احتمالاتهم منبثقة من وعي ترسّخ في عقول كلّ الذين عاشوا حياتهم ضمن مملكة فرعون؛ فهذا الوعي يحتاج إلى تشتت وإعادة إنتاج كي يهشم صورة فرعون ويستبدلها أو يمحوها إلى الأبد. ذلك أنّ فرعون استرهب أهل مصر، فالخوف دبّ فيهم فهو لا ينفك عنهم.

بدأت فاعلية الدعوة تدور رحاها ضمن الطريقة التي انتهجها الله تعالى لموسى وهارون عليهما السّلام، إذ يقول تعالى: {فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ قَالَ فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ} 139.

إنّ سياق الآيات الكريمة بقوله (فَمَنْ رُبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ) أفرز أنّ فرعون قد أدرك أنّ موسى صلّى الله عليه وسلّم هو صاحب الرسالة وليس هارون صلّى الله عليه وسلّم.

إنّ المحاورّة مع فرعون كانت بداية المواجهة التي كتب لها أن تفتح الحوار على مصراعيه، وليجد كلّ منهما المدخل المناسب فيما يريد أن يثبته أو يزيله. فالبداية حملت جوانب مهمة ارتكز الخطاب فيها على التعريف الذي يفتح باب الحوار؛ فكانت الرّبوبية هي المدخل، إذ يقول تعالى: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ) إنّ ذكر الرّبوبية مع إضافة الضمير هنا جاء ضمن صيغة الادعاء التي يرددها فرعون، في قول

تعالى: { فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى } 140. إنه الكفر بعينه، ولا كفر من بعده، فالرب يمكن أن يكون ربّ عمل، ولكن أن يكون رباً أعلى فلا أعلى إلا الله تعالى، وهو ربّ العالمين الذي آمن به هارون وموسى عليهما الصلّاة والسّلام. فقوله تعالى لهارون وموسى: { فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } 141. إنها علاقة بين عابد ومعبود (بين هارون وموسى وبين الله الرّب الأعلى)، ولهذا عندما يتمسك العبد برّبّه جلّ جلاله؛ فرّبّه تعالى ينصره ولا خوف. ومن هنا كان ربّ هارون وموسى هو الأعلى الذي قدّر فهدى ونصر.

وعليه فإنّ الرّبّ هو الذي يعود الأمر والملك إليه ويتولى عباده رعاية وعناية ورزقا وملكا وحكما وحفظا وعزة وسلاما وأمنا، وهو الذي يدعى خوفا وطمعا وطاعة أنّه المحيّب على السّؤال الحقّ بالحقّ.

الرّبّ الذي يُحمد على نعمه ورحمته هو ربّ العالمين، قال تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } 142.

إذا الرّبّ الذي يُحمد على رحمته وفضله ونعمه هو ربّ العالمين إي ربّ الكافة ربّ الخلق كل الخلق من سماوات وأرضين وما فيهما وما بينهما وكل ما خلق حيث لا استثناء في خلقه، والرّبّ الذي

140 - النازعات 24

141 طه 47 . 50.

142 الفاتحة 2 . 7.

يُحمد هو الرَّب الذي يَرحم ويؤتي الملك لأنَّه يملك وهو الرَّب الذي يُعبد ولا يشرك به أحدا وهو الرَّب الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

ولأنَّ الرَّب واحد فكيف يحقّ للبعض أن يشرك معه ما يشرك أو أن يتخذ أربابا من دونه، فذوي الألباب هم وحدهم الموقنون بأن الله واحد ولذا فهم لا يبتغون ربا غيره وهو ربُّ كل شيء، وإليه تُرجع الأمور كلها، وهو المنبئ بما فيه النَّاس يختلفون لأجل أن يتبيَّن الجميع الحقّ من الباطل في الدارين، فمن يتخذ سبيله هواه فقد ضل ومن يهتدي فإنما يهتدي لنفسه وسيجد الله ربا غفورا، قال تعالى: {قُلْ أَعْبُدِ اللَّهَ أُنْبِيَّ رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغُكُم فِي مَا آتَاكُم إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} 143.

وإنَّه لمن الاستغراب أن يتخذ البعض أربابا مخلوقة على النواقص من دون الله الرَّب الأعظم، فالذين يتخذون البقرة معبودا أو الناقة معبودا أو القرد معبودا أو الشيطان معبودا أو النَّار معبودا وغيرها كثير أستغرب أن يتخذوا المنقوص معبودا ويتركون الكمال الذي ليس في حاجة كما هو حال الأرباب من دونه، فالبقرة والناقة والقرد منقوصة وهي دائما في حاجة فهي تبول في الشارع وروثها متعفن ويعفن الأمكنة التي تمر فيها أو تستقر فيها، وعندما تمرض يُستدعى لها الطبيب وعندما تحين الساعة تموت فلا تستطيع أن تنفع نفسها، وأقول كيف حال الذين يعبدون المخلوقات التي تُذبح وتؤكل وإذا انفردت بها السباع قضت عليها بكل يسرٍ فهل هذه تستحق أن تُعبد

¹⁴³ الأنعام 164، 165.

أم أن يُعبد الخالق الذي خلق كل شيء خلقاً، خلق السماوات السبع وخلق الأرض ورفع السماء بغير عمد تروى واستوى على العرش ملكاً وسلطاناً وهيمنة وقوة وقدرة، وسخر الشمس والقمر والنجوم بأمره فله الحمد والشكر على خلقه وأفضاله ونعمه وخيره، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} 144.

الرب جلّ جلاله واحداً واحداً بعث الأنبياء والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم مبشرين وداعين للخير والإصلاح وإلى طاعة الله واتباعه فهم رُسُلًا يبلغون رسالات ربهم رب السماوات والأرض رب العالمين ورب كل ما خلق ولذا بعث الله الرسل لينصحو الضالين حتى يهتدوا إلى الصراط المستقيم فهم يعلمون من الله ما لا يعلم غيرهم ولهذا الناس في حاجة للأنبياء والرسل الكرام حتى بعثهم الله برسالات من عنده بينت الضلالة من الهداية والحق من الباطل، إنهم المرسلون الذين لا سفاهة بهم بل هم رُسُلٌ مبلغون، قال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 145، وقال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} 146.

إذا الرسل هم المرسلون من رب العالمين ليبلغوا ما أمروا بتبليغه وهو الحق المبين والله تعالى مُعصم رُسُله من الناس، قال تعالى: {وَقَالَ

144 الأعراف 54.

145 الأعراف 61، 62.

146 الأعراف 67.

مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ {147، وقال تعالى:
{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ
رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْكَافِرِينَ }148.

الرَّبُّ لا يَطْلُقُ بِالْمَطْلُوقِ إِلا عَلَى الَّذِي لا رَبَّ مِنْ بَعْدِهِ فَهُوَ الَّذِي
يَخْلُقُ وَلا يُخْلَقُ يُوْتِي وَلا يُؤْتَى يَطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ، باقٍ وَلا يَزُولُ، فَمَنْ
يَتَّخِذُ رَبًّا مِنْ غَيْرِهِ سَيَجِدُهُ مُتَخَلِّياً عَنْهُ وَقَدْ شَدَّ الْحَاجَةَ وَيَوْمَهَا لا
يَنْفَعُ النَّدَمَ، وَمَنْ يَتَّبِعْ وَيَفَكِّرْ وَيَتَذَكَّرْ فِيمَا حَوْلَهُ وَمَا يَحَاطُ بِهِ مِنْ
مُعْجَزَاتٍ لا بَدَّ لَهُ وَأَنْ يَتَيَقَّنَ الْحَقَّ فَيَتَّبِعْهُ فَعِنْدَمَا تَيَقَّنَ السِّحْرَةَ الَّذِينَ
جاءَ بِهِمْ فِرْعَوْنُ لِمُوسَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَلْقُوا ما أَلْقُوا وَأَلْقَى
مُوسَى الْمُعْجِزَةَ الَّتِي كَانَتْ أَمَامَهُمْ آيَةً تَبَيَّنُوا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ فَاهْتَدَوْا
فَأَمَّنُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي يَعْبُدُهُ مُوسَى وَهَارُونَ وَمَنْ آمَنَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ اسْلَمُوا وَجُوهَهُمْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، مُصَدِّقًا لِقَوْلِهِ رَبُّ مُوسَى
وَهَارُونَ هُوَ الرَّبُّ الأَعْلَى تَعَالَى: { وَأَلْقَى السِّحْرَةَ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ }149.

الرَّبُّ العَظِيمُ هُوَ الَّذِي لَهُ صِراطُ الهِدايةِ الَّذِي يَحَقِّقُ العَدْلَ بَيْنَ
النَّاسِ فِيمَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الصِّراطُ الَّتِي يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ،
وَهُوَ الصِّراطُ الَّذِي لَهُ مِنَ الفِضائلِ الكَرِيمَةِ ما يَكْفِي لَتَنْظِيمِ العِلاقاتِ
بَيْنَ الأَفْرادِ وَالشُّعوبِ وَالأَقْوامِ وَالأُمَمِ وَلَكِنَّ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ أَرْباباً بَدُونَ
صِراطِ فَكَيْفَ لَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَرْباباً وَهُمْ لا يَخْلُقُونَ جِناحَ بَعوضَةٍ وَلا
ذِبابَةَ وَلو اجْتَمَعُوا، قال تعالى: { وَهَذَا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا

147 الأعراف 104.

148 المائدة 67.

149 الأعراف 120 . 122.

الآياتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ} 150، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ
فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا
لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهِمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ
وَالْمَطْلُوبُ} 151.

الرَّبِّ اسم صفة من صفات الله تعالى جاء المرسلون داعين لربِّ
واحدٍ هو الله، ولهذا فهم لا يأمرؤن إلا بطاعته واتباع سبيله وهم
يسخرون من الذين يتخذون من دونه أربابا

قال تعالى: { مَا كَانَ لِيَشِرَّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَةَ ثُمَّ
يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّاتِنِينَ بِمَا كُنْتُمْ
تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} 152.

ولأنَّ الرِّسْلَ الكرام صلوات الله وسلامه عليهم يدعون إلى ربِّ
واحدٍ فإن تولى البعض ممن يدعوهم عن عبادة الله ربا واحدا فلا
يقنطوا من فضل الله ورحمته فالله كفيل بالذين تولوا وعلى الأنبياء أن
يشتدوا حرصا على الهداية إلى التوحيد لله ربِّ العالمين، وعليهم أن
يتوكلوا على ربِّ العرش العظيم، مصداقا لقوله تعالى: { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَعُلَّ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} 153.

الله تعالى الذي أنزل القرآن كتابا مفصَّلا بالآيات المعجزات كافٍ
لأن يُدافع عن آياته العظام حيث لا أحدا يستطيع أن يأتي مثلها
ولهذا القرآن لا يُفترى فهو لا ريب فيه من ربِّ العالمين، قال تعالى:

150 الأنعام 117.

151 الحج 73.

152 آل عمران 79، 80.

153 التوبة 129.

{ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ } 154.

وعليه الرب بالملق هو الله ولا رب غيره، قال تعالى: { قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ } 155.

وعليه نقول:

الرب العظيم حتى أبالسة الجن به يؤمنون، ولهذا يستغرب كيف يتخذ البعض من الذين خلقهم الله في أحسن تقويم يتخذون أربابا من غير الله أو يتخذونها لتقربهم إليه زلفي، قال تعالى: { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ } 156.

فقول إبليس للرب العظيم (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) يفهم من هذا القول ضعف إبليس الذي أغوته المفسدات ويفهم أن ما يُفسد هو عمل أبالسة، أي كل ما يغوي يجب أن يجتنب فهو لا خير فيه ومن لم يجتنبه سيجد نفسه في دائرة الأبالسة ملعونا عليه مع الملعونين.

ولأن تجربة إغواء إبليس جعلته من المغضوب عليهم فلماذا لا يستفيد الناس من هذه التجربة التي أثبتت نتائجها بالخسران المبين،

154 يونس 37.

155 الرعد 16.

156 الحجر 32 . 40.

ولماذا لا يعلموا أن ما يغويهم إلى المفساد هو عمل أبالسة فليتقوه
ويجتنبوه وإلا سيكون حالهم كما كان حال إبليس عليه وعليهم اللعنة
إلى أبد الأبدين.

الرّب هو الذي بيده الأمر فإن أراد شيء شاءه بالأمر (كن)
فيكون كما شاءه كائنا، فإن شاء لشيء في الأرض كان، وإن شاء
لشيء في السماء كان، وإن شاء لشيء بينهما كان، وإن شاء لشيء
من السماء إلى الأرض كان منزلاً تنزيلاً، فالأمر بيده وحده لا شريك
له في الأمر والمملك يفعل ما يريد وهو الفعّال لم يريد سبحانه لا إله إلا
هو الملك المتعال، قال تعالى: ﴿وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ
أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ 157.

الرّب هو العليم الذي لم يؤتنا من علمه إلا قليلاً ولهذا ندعوه
دائماً ربنا زدنا علماً من علمك الواسع إِنَّكَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، قال
تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى
إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ 158.

ولأن الرّب واحد فكل في فلك يسبحون، ولو كان معه أرباباً
أخرى لفسدت السماوات والأرض وفسد كل شيء، فسبحان الله
رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا
فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ 159.

157 مريم 64، 65.

158 طه 114.

159 الأنبياء 22.

مع أنّ الذين يعبدون أرباب من دون الله يعلمون أن الخالق هو ربُّ السماوات والأرض ومع ذلك يتخذونهم أربابا فيا ليتهم يتّقون، قال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ} 160.

الله تعالى هو الذي وصف نفسه بالربِّ ووصف نفسه برَبِّ العرش العظيم وربُّ العرش الكريم مصداقا لقوله تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ} 161، وقال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} 162.

ولأنَّ الربُّ هو الذي بيده الأمر (كن) فهو على كل شيء قدير، لقد بعث الأنبياء والرسل عليهم الصلّاة والسّلام تتّرى فأفرد رسولٍ واحدٍ للكافة هو سيدنا محمّد عليه الصلّاة والسّلام نبيا ورسولا فكان الرّسول الخاتم على الأرض للكافة ولا رسول غيره ولا رسول معه ولا نبيا معه في الزمان والمكان والرسالة فجاء ليتمم مكارم الأخلاق، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 163.

وثنّى في المكان الواحد للشعب الواحد أو القوم الواحد في الزمن الواحد مثل موسى وهارون عليهما الصلّاة والسّلام وهما رسولا شد الأزر والمشاركة في الأمر، قال تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي

¹⁶⁰ المؤمنون 86، 87.

¹⁶¹ المؤمنون 116 . 118.

¹⁶² النمل 26.

¹⁶³ سبأ 28.

هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا
مُوسَى {164، وقال تعالى: {فَأْتِنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ} 165.

وجمع مجموعة من الأنبياء مع الرسول الواحد وجمع رسولين في
وقتٍ واحدٍ ولكن ليس في مكانٍ واحدٍ (إبراهيم في العراق وإسماعيل
في مكة)، قال تعالى: {وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ
الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ
مَرْضِيًّا} 166.

وقد يتساءل البعض:

من هو ربك؟

بالمطلق هو الله.

وبالنسبي هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن
العزیز الجبار المتكبر الخالق الرازق وهو كل الصفات الحسنى سبحانه لا
إله إلا هو، قال تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ} 167.

ولأن الرب هو الله تعالى، فالله بالمطلق هو الرب ولا ربَّ غيره،
ولهذا عندما نادى الله موسى عليه الصلاة والسلام قال له: {إِنِّي أَنَا

¹⁶⁴ طه 29 . 36.

¹⁶⁵ الشعراء 16.

¹⁶⁶ مريم 53، 54.

¹⁶⁷ الشعراء 191 . 193.

اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ {168، ولهذا فالله هو الذي سمي نفسه رب العالمين.

ولأن الله هو رب العالمين نزل الكتاب بالحق تنزيلا لا ريب فيه، قال تعالى: {الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ {169، ولأنه رب العالمين فلا سلام إلا منه ولا رحمة إلا منه ولا رزقا إلا منه ولا ملكا إلا منه ولا سلطان إلا منه ولا علم ولا حكمة إلا منه ولا شيء إلا منه، قال تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ وَامْتَأْتُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ {170.

الله جلّ جلاله واحد لا شريك له ولهذا فهو الرب الواحد الأحد رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق والمغرب ورب العرش العظيم لا إله إلا هو سبحانه جلّ جلاله، قال تعالى: {إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ {171، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ {172.

وعليه ما أجمل وأعظم قول (الحمد لله رب العالمين) على كل حال من الأحوال التي تكون في مرضاة الله عزّ وجلّ، أي نريد أن نُبينَ أنّه كلما حُمدَ الله قيل (رب العالمين) وهذا يدل على تلازم الصفة (رب) مع الاسم (الله) في كل حمدٍ كريم، قال تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ

168 القصص 30.

169 السجدة 1، 2.

170 ياسين 58، 59.

171 الصافات 4 . 5.

172 ص 65، 66.

حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {173.

ولأنَّ الرَّبَّ هو السميع العليم المحيب قال تعالى: { وَقَالَ رَبُّكُمْ
ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ
جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكَ اللَّهُ
رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ
كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ
بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ
الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ
الْعَالَمِينَ {174.

ولأنَّ الرَّبَّ واحد لا شريك له فهو الذي يحيي ويميت ويعت يوم
البعث وهو الذي يحاسب فيعاقب أو يثيب وهو الذي يدخل الجنة
ويدخل النار وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعّال لما يريد وهو
على كل شيء قدير، قال تعالى: { رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ {175، وقال تعالى:

173 الزمر 75.

174 غافر 60 . 66.

175 الدخان 6 . 8.

{وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً} 176.

ولأنَّ البعض من الخلق قد اتخذ من دون الله أربابا، قال تعالى: {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} 177، ولأنَّ الإجابة جاءت مطلقة من الله تعالى أنه الرّبُّ الأعلى على كل الأرباب التي اتخذت من دونه لتعبد فلماذا لا يُتخذ بالمطلق ربا واحدا أعلى هو الله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد ولم يكن له كفوا أحدا، ولماذا لا نُسبِّحه كثيرا ونذكره كثيرا ونعظّمه كثيرا مصداقا لقوله تعالى: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} 178، وقال تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} 179.

ولأنَّ الله تعالى هو الخالق الأعلى، فالخالق الأعلى يَخْلُقُ ولا يُخْلَقُ، فتبارك الله أحسن الخالقين، ولهذا يسبِّحُه الخليفة كثيرا وتسبِّحه المخلوقات الأخرى بما هيأت عليه، قال تعالى: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى سُنْفُرُوكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى وَيُؤَيِّرُكَ لِلْيُسْرَى فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَكِّرْ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤَثِّرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} 180. فسبح اسم ربك الأعلى، تتطلب مُسبِّحا باسمه تعالى، ولهذا فعندما يقال للخليفة سبِّح اسم ربك الأعلى، ليس له بدا

176 المزمّل 8، 9.

177 النازعات 24.

178 الأعلى 1.

179 الواقعة 74.

180 الأعلى 1. 19.

إلا أن يقول: (سبحان الله)، فالله هو الرَّبُّ الأعلى، ولا رَبَّ سواه،
ولذا فسَبِّحْ اسم رَبِّكَ الأعلى وأذكره يقينا واحدا أحدا.

وعليه كان الأمر بتسبيحه تعالى يستوجب على المسيح به بأن
يقول: (سبحان الله) وذلك لأنه لا رَبَّ أعلى غيره، وهكذا يكون
التتابع واليقين في التسبيح باسمه تعالى.

وعودا على سورة الأعلى، نلاحظ أمر التوكيد على اسمه الأعلى،
(الله جلّ جلاله وهو الاسم الأعظم) فسبحان الله، سبحان الله،
سبحان الله كلما تكررت أكدت وعضدت الإيمان فسبحان الله رَبِّ
الأعلى.

إذن استجابة للأمر المطلق، (سَبِّحْ اسم رَبِّكَ الأَعْلَى) يتطلب
التسبيح باسمه جلّ جلاله.

وهكذا قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) يستوجب التسبيح
باسمه، فالذي خلق فسوى تستوجب اعتراف المؤمن بقدرته على
الخلق وهو المعجزة الكبرى، وهذه المعجزة الكبرى تستوقف الخليفة
المؤمن ممّا يجعله في حالة تأمل ويقين بقوله سبحان الله، ولهذا قوله
تعالى: (سَبِّحْ اسم رَبِّكَ الأَعْلَى) يستوجب التسبيح باسمه (الله)
وهكذا قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) يستوجب التسبيح باسمه
تعالى (الله).

وكذلك قوله تعالى: (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) فالذي قَدَّرَ وهدى هو
الله، وهو الرَّبُّ الأعلى الذي يستوجب ذكره والتسبيح باسمه جلّ
جلاله، ولأن الذي قَدَّرَ فهدى هو (الله) فسبحانه كيف قَدَّرَ وكيف
هدى، ولذا فمن يتأمل في خلقه وهداياته لما خلق ليس له بدا إلا أن
يقول سبحان الله على ما قَدَّرَ وهدى.

(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى)، هو الله لا إله غيره، ولهذا سبحانه الله الذي أخرج المرعى، أي سبحانه الذي خلق النبات نعمة واسعة منه ليكون للحياة معنى وللطبيعة كسوة من البهاء والجمال، فسبحانه على ما خلق وسبحانه على ما أخرج مما خلق، ولذا فالذي أخرج المرعى هو الله الذي يستوجب التسبيح باسمه جلّ جلاله، ولهذا كيف أخرج المرعى معجزة تستوقف المؤمن لأن يذكره بقوله: (سبحان الله).

ومع ذلك ليس الغاية من قوله (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) هو أن يذكر المسبح الله تعالى ويمجده فقط، ولكن الغاية هي التمكن من إدراك المعجزات العظام والصفات الحسنى والوقوف عندها والتأمل فيها من أجل توصيل دلائل كل معجزة من المعجزات إلى الآخر المستهدف بالتبشير والهداية.

وقوله تعالى: (فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) أي أنه هو الذي غير حال الاخضرار في المرعى، وجعله يبسا جافا، هذه معجزة أخرى تستوجب من المؤمن التوقف ليدرك أنه الله، مما يجعل حال لسانه وقلبه معا على القول: (سبحان الله) وهو التسبيح باسمه عزّ وجلّ وأحدا أحدا، ولا ربّ أعلى منه.

وقوله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)، الآية موجّهة لمحمد عليه الصلّاة والسّلام، الذي أقرأه الله فلم ينس شيئا مما أقرأه جلّ جلاله، ونظرا للكثرة الكثيرة لما تم استقراء محمد عليه الصلّاة والسّلام به، فلم ينس شيئا منه، إلا الذي لا يريد الله له، فسبحان الله على ما أَرَادَهُ اللهُ وسبحان الله على مقدرة محمد على عدم النسيان، ولذلك فالتأمل والمستقريء لما أقرأه الله تعالى به محمدا عليه الصلّاة والسّلام، يجد نفسه أمام معجزة تغالبه بالحقّ مما يجعله على

ذكر ربه (الله) اعترافا بالقوة والقدرة والعلو والوحدانية مما يجعله يقول
(سبحان الله).

قال تعالى: (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) أي أن ربك الأعلى الذي
تسبحه يا محمد باسمه الأعلى هو (الله) الذي تدركه يقينا، وهو الذي
خلق فسوى، ولذا فكان التسييح تكرارا لاسمه الأعلى (الله)، وهكذا
الخليفة عندما يقرأ قوله تعالى: (اقرأ اسم ربك الأعلى) يقول:
(سبحان الله) وعندما يقرأ قوله: (الذي خلق فسوى) يقول أيضا:
(سبحان الله) وهكذا يستمر التسييح باسمه كلما قرأ آية من آيات
سورة (الأعلى)، ولهذا يكون التسييح وفقا للآتي:

(سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى).

سبحان الله. أي سبحان الله الذي لا إله إلا هو عز وجل.

(الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى).

سبحان الله. أي سبحان الله على ما خلق وسوى.

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى).

سبحان الله. أي سبحان الله على ما قدر وهدى.

(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى).

سبحان الله. أي سبحان الله على إخراجه للمرعى.

(فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى).

سبحان الله. الذي جعل الأخضر يابسا.

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ).

سبحان الله.

(إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجُحْرَ وَمَا يَخْفَى).

سبحان الله.

(وَنُيْسِرُكَ لِلْيُسْرَى).

سبحان الله.

(فَدَكَّرَ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى).

سبحان الله.

(سَيَدَكَّرُ مَنْ يَخْشَى).

سبحان الله.

(وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى).

سبحان الله.

(الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى).

سبحان الله.

(ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى).

سبحان الله.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى).

سبحان الله.

(وَدَكَّرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى).

سبحان الله.

(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا).

سبحان الله.

(وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

سبحان الله.

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى).

سبحان الله.

(صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى).

سبحان الله.

وعليه فسبحان الله، تسييح باسمه الأعلى، واعتراف بمعجزاته الكبرى التي عُدِّدت في سورة (الأعلى).

ومع ذلك فمن يسيِّحه كما يسبح أثناء السجود بالقول: (سبحان ربِّ الأعلى) فهذا لا يخرج عن كونه أن الرب الأعلى هو الله جلّ جلاله، فسبحان الله ربِّ الأعلى.

وفي مقابل ذلك نزل قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} 181 ثلاث مرات، مرتين في سورة الواقعة، ومرة في سورة الحاقة، ولذا فسبح اسم ربك الأعلى، تعني: اذكره كثيرا، أي اذكر اسمه كما سمي نفسه، {إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} 182، أمّا قوله: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ} تستوجب

181 الواقعة 74.

182 طه، 14.

التسبيح بالقول: (سبحان الله العظيم). ولهذا سبَّح رسول الله صلى الله عليه وسلم به في كل ركوع، ومتى ما أدرك التسبيح به عز وجل، وهكذا يُسبَّح به المستخلفون فيها في كل ركعة يركعونها ومتى ما يشاؤون اتصالاً به دون وسطاء، ولهذا فالتسبيح باسم الرب العظيم هو تسبيح بالله العظيم جل جلاله.

وعلى الخليفة أن يتعظ بدعاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَلَنِي كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} 183.

وعلى الخليفة أن يدعو الله مخلصاً له الدين في طاعة والدين في غير معصية لله رب العالمين وأن يعمل على رعايتهما والأخذ بيديهما والإحسان إليهما طاعة لله فيما قال في كتابه العزيز: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ

183 إبراهيم 35 . 42.

أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَأَتِ
ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْدُرُوا لَهُ الْإِثْمَانِ إِذْ تُبْعَدُونَ
كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {184}.

وهنا فتح الحوار ضمن نسق تراثي منغلق على نفسه مفتوح على
فرعون، ليشكل ملتقى قابل للمحاورة، يجيل وينتظر، يبعد ويقترّب،
تتسع فيه الهوة التي لا تريد أن تضيق، فكل طرف يختلف عن الآخر،
ذلك أن الطروحات لا يمكن أن تلتقي أو تتعادل أو تقترب، فلا بدّ
من التسليم أو الانزواء المفضي إلى مهانة وهلاك.

وعليه؛ فإنّ الصّفة التي منحها فرعون لنفسه ليست بصفته، ذلك
لأنّ الرّب الأعلى هو ربّ هارون وموسى، ومن هنا جاءت الهزيمة تلو
الهزيمة لفرعون. قال تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ
نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حَبَّأَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ
سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَىٰ {185}، أي أنت يا موسى الأعلى، ولأنّ رسالة موسى
ذات علاقة بنبوة هارون وقصتهما مع فرعون تكاد تكون واحدة لما
فيها من المشاركة في مرضاة الله؛ فهما على حقّ وفرعون على باطل.

ولهذا فإنّ تعالي فرعون على باطل وتعالي موسى وهارون على
حقّ. وذلك لأنّ تعاليهما متفاعل مع علو الله، وهنا فالمتعالي اسم من
أسماء الله الحسنى وصفته التعالي، يوحى بالعلو والكبرياء والعظمة، وإذا
تبعنا ما ورد في اللغة نجد أن ابن منظور يقول: عَلُوٌّ كَلَّ شَيْءٌ وَعَلُوهُ
وَعَلُوهُ وَعُلَاؤُهُ وَعَالِيَّتُهُ أَرْفَعُهُ، والله عزّ وجلّ هو العليّ المتعالي
العالي الأعلى ذو العلاء والعلاء والمعالي، تعالي عمّا يقول الظالمون علّوا

184 الإسرائ 23، 27.

185 طه 65 . 68.

كبيراً هو الأعلى سبحانه بمعنى العالي وتفسير تعالى جلّ ونبا عن كلّ ثناء فهو أعظم وأجلّ وأعلى ممّا يُثنى عليه لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال الأزهري: وتفسير هذه الصفات سبحانه يُقرب بعضها من بعض فالعَلِيُّ الشريف فَعِيل من عَلَا يَعْلُو وهو بمعنى العالي وهو الذي ليس فوقه شيء ويقال هو الذي عَلَا الخلق فَقَهَرَهُم بقدرته وأمّا المتعالي فهو الذي جلّ عن إفك المُفْتَرِين وتَنَزَّه عن وساوس المتحيرين وقد يكون المتعالي بمعنى العالي والأعلى هو الله الذي هو أعلى من كل عالٍ واسمه الأعلى أي صفة أعلى الصفات والعلاء الشرف وذو العلاء صاحب الصفات العلاء والعلاء جمع العُلَيَا أي جمع الصفة العُلَيَا والكلمة العُلَيَا ويكون العُلَى جمع الاسم الأعلى وصفة الله العُلَيَا شهادة أن لا إله إلا الله فهذه أعلى الصفات ولا يوصف بها غير الله وحده لا شريك له ولم يزل الله عَلِيًّا عاليًا متعالياً تعالى الله عن إلحاد الملحدين وهو العَلِيُّ العظيم 186.

المتعالي: هو الذي يتعالى عن كل وصف لا يتصف به، إنه المتصف بالصفات الحسان وبالأسماء الحسان الكاملة سبحانه لا إله إلا هو ليس له مثل ولا شبه.

والمتعالي جلّ جلاله هو الذي يعلم حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله، فثبت لنفسه وصفه الحقيقي، وهو: أنه العلي. وهذا المعنى هو معنى التعالي بالنسبة إلى الله تعالى، وأمّا التعالي بالنسبة إلى غيره: فهو ادعاء كاذب، وتكلف ممقوت، وخلق ذميم، يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾

عَالِمُ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ
جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ {187

ويدخل اسم الله تعالى (المتعالى) مع مجموعة من أسماء الله الحسنى
مكونا وحدة دلالية واحدة، وهذه الوحدة الدلالية يمكن تسميتها
ب(صفات الحمد والتمجيد لله تعالى) وهذه الأسماء هي (الكبير،
المتكبر، العلى، المتعالى، الجليل، العظيم، الكريم، الماجد، المجيد،
الحسيب، ذو الجلال والإكرام، الصمد، الحميد). وهذه الصفات لها
مطلق الحمد والعظمة، والعلو والكبرياء، السيادة والكرم. والله تعالى هو
الذي يستحقّ وحده منتهى الحمد والثناء عليه، بالعظمة والجلال،
والعلو والكبرياء، وهو الذي يستحقّ التمجيد بمنتهى السؤدد والشرف
الحقيقي.

واسم الله تعالى (المتعالى) يفتح ملفا معرفيا يتشكل من عدة
محاور، وهذه المحاور تأخذ أبعادا مترامية الأطراف وتحيلنا إلى قراءات
مختلفة، منها نستمد المعارف والأفكار التي تدخلنا حيزا جديدا يزيد
إيماننا وثقتنا بالله تعالى.

المتعالى هو المنزه عن صفات الخلق وهذه صفة يستحقّها بذاته
وقد يكون بمعنى العالى فوق خلقه بالقهر188. والمتعالى جلّ جلاله
متعالٍ عن الأشباه والأنداد والأمثال والأضداد وعن أمارات النقص
ودلالات الحدوث، وقيل: هو من العلو الذي هو بمعنى القدرة

187 - الرعد 8 - 10.

188 - الاعتقاد ج 1 ص 64.

والسلطان والملك وعلو الشأن والقهر والاعتلاء والجلال والكبرياء¹⁸⁹.

ويدخل اسم المتعالي مع اسم المتكبر مكونا تشكلا معرفيا يجمع صورتين كل واحدة تحيل على الأخرى، فترسمها بشكل يتفاعل فيه التعالي مع الكبر مما يخلق صورة واحدة تحيل إلى عظمة وتعالي وتكبر لله جلّ جلاله. "فَالْمُتَكَبِّرُ هُوَ الْمُتَعَالِي عَنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ وَيُقَالُ: هُوَ الَّذِي يَتَكَبَّرُ عَلَى عُنَاةِ خَلْقِهِ إِذَا نَارَعُوهُ الْعِظَمَةَ، فَيَقْصِمُهُمْ وَالتَّاءُ فِي الْمُتَكَبِّرِ تَاءُ التَّفَرُّدِ وَالتَّخْصِصِ بِالْكَبْرِ لَا تَاءُ التَّعَاطِي وَالتَّكَلُّفِ، وَالْكَبْرِ لَا يَلِيقُ بِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ وَإِنَّمَا سَمَّيْتُ الْعَبِيدَ الْخُشُوعَ وَالتَّذَلُّلَ وَقَدْ رُوِيَ: الْكَبْرِيَاءُ رِذَاءُ اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ نَارَعَهُ رِذَاءَهُ قَصَمَهُ وَقِيلَ: إِنَّ الْمُتَكَبِّرَ مِنَ الْكَبْرِيَاءِ الَّذِي هُوَ عِظَمَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَا مِنَ الْكَبْرِ الَّذِي هُوَ مَذْمُومٌ عِنْدَ الْخَلْقِ"¹⁹⁰. وهنا ندخل في سياق التكبر، إذ لا بدّ من الإحالة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عزّ وجلّ الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قذفته في النار"¹⁹¹.

وفي حديثنا عن اسم الله تعالى (المتعالي) لا بدّ من التفريق بينه واسم (العلي) وذلك لأن الاسمين الكريمين يدلان على العلو، بمعنى أن دلالتهما واحدة لكن هناك في الوقت نفسه فرق بينهما، فالعلي: الذي رتبته أعلى المراتب العقلية، وهي المرتبة العلية، فإن ذاته المقدسة هي مبدأ كل موجود حسي وعقلي، وعلته التامة المطلقة التي لا يتصور فيها النقصان بوجه ما.

¹⁸⁹ - تفسير الالوسي ج 2 ص 319.

¹⁹⁰ - الأسماء والصفات ج 1 ص 183.

¹⁹¹ - سنن أبي داود ج 2 ص 456.

والمتعالي هو المستعلي على كل شيء بقدرته، أو المنتزه عن نعوت المخلوقات وعن كل شيء لا يجوز عليه في ذاته وصفاته وأفعاله¹⁹².

إنّ توضيح الفرق بين اسم العلي والأعلى والمتعالي، يأتي وفق التصور الآتي: إنّ كل اسم كما سبق دل على معنى من معاني العلو، فاسم الله العلي دل على علو الفوقية وأن الله عال عرشه وهو أعلم بالكيفية، واسم المتعالي دل على علو القهر والغلبة، واسم الأعلى دل على علو الشأن والعظمة، تنسجم في ذلك الأدلة اللغوية مع الأصول القرآنية والنبوية¹⁹³.

واسم الله تعالى (المتعالي) ضمن تشكل صوتي يحيل إلى الكبير والعلو والسمو ففيه حرفان من حروف المد هما الألف والياء، ممّا يحتاج نفساً طويلاً عند قراءته ممّا يخلق جواً معرفياً طول مدة نطقه للتبصر به والتعمق والوصول إلى سبر أغواره، فيثير في النفس الرهبة والرغبة، فالرهبة تحيل إلى الخوف منه جلّ جلاله، فالتعالي صورة موحية بالخوف الشديد الذي يهزّ الابدان فترتعش الأطراف وتخرج القلوب من الصدور إلى الحناجر، صورة مرعبة مضطربة تتبعها أزمة نفسية واهنة، وهذا التشكل النفسي المضطرب يدعمه صورة من صور القيامة التي رسمها لنا القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}{194}، هذه الآية الكريمة رسمت صوتي الرحمة بالاصطفاء، والخوف المتحقّق في النفس الإنسانية ضمن سياق بدأ

¹⁹² - الفروق اللغوية ج 1 ص 375.

¹⁹³ - أسماء الله الحسنى ج 32 ص 204.

¹⁹⁴ - غافر 15 - 16.

بالإنذار قبل يوم التلاق. فالسياق هنا يتمثل في عرض مشاهد القيامة، وهذه وتلك تتناثر في سياق السورة وتتكرر بشكل ظاهر وتعرض في صورها العنيفة المرهوبة المخيفة متناسقة مع جو السورة كله، مشتركة في طبع هذا الجو بطابع العنف والشدة¹⁹⁵.

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ) أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالى ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه ويجعلهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: (يُلْقِي الرُّوحَ) أي: الوحي الذي هو للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى (يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ) الذي فيه نفع العباد ومصلحتهم. (عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ) وهم الرسل الذين فضلهم الله واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده.

والفائدة من إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم وديناهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم وديناهم وآخرتهم، ولهذا قال: (لِيُنذِرَ) من ألقى الله إليه الوحي (يَوْمَ التَّلَاقِ) أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه. وسماه (يوم التلاق) لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزاؤهم.

195 - في ظلال القرآن، ج 6، ص 243.

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ) أي: يظهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد لا عوج ولا أمت فيه، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر. (لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ) لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال. (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ) أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. (الْقَهَّارِ) لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ 196.

أما الرغبة فهي لا تكون إلا للمؤمنين بالله تعالى، فهذه الصفة يتحقق فيها الإيمان الحقيقي، إذ يقول تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 197 والمحبة: انفعال نفساني ينشأ عند الشعور بحسن شيء من صفات ذاتية، أو إحسان، أو اعتقاد أنه يُحِبُّ المستحسنَ وَيُجْرُّ إليه الخير. فإذا حصل ذلك الانفعال عقبه ميل وانجذاب إلى الشيء المشعور بمحاسنه، فيكون المنفعِلُ محباً، ويكون المشعور بمحاسنه محبوباً، وتعدّ الصفات التي أوجبت هذا الانفعال جمالا عند المحبِّ، فإذا قوي هذا الانفعال صار تهيجاً نفسانياً، فسُمي عشقاً للذوات، واقتنأنا بغيرها.

والشعور بالحسن الموجب للمحبة يُستمدّ من الحواسِّ في إدراك المحاسن الذاتية المعروفة بالجمال، ويُستمد أيضاً من التفكّر في

196 - السعدي، ج 1، ص 734.

197 - آل عمران 31.

الكمالات المستدلّ عليها بالعقل وهي المدعوة بالفضيلة، ولذلك يحبّ المؤمنون الله تعالى، ويحبّون النبي صلّى الله عليه وسلّم تعظيماً للكمالات، واعتقاداً بأنّهما يدعوانهم إلى الخير، ويحبّ الناس أهل الفضل الأوّلين كالأنبياء والحكماء والفاضلين، ويحبّون سعاة الخير من الحاضرين وهم لم يلقوهم ولا رأوهم¹⁹⁸. وقد عبّر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن المحبّة المتحقّقة، فعن عبادة بن الصّامت أنّ نبيّ الله - صلّى الله عليه وسلّم - قال "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ"¹⁹⁹. وهنا نعود إلى يوم التلاق لنستعرض فيه من هم المحبّون؟ والمحبّون هم من يتشكّلون من القرآن الكريم وسنة النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ونقصد بالتشكّل هنا أتباع ما جاء في القرآن الكريم وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلّاة والسّلام، والمحبّة وردت في النص القرآني في خطاب الله سبحانه وتعالى للمؤمنين، إذ يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }²⁰⁰، فإن محبّة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحبّ الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووقفه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبّة والوداد. وفي هذا السياق ورد قول الرّسول عليه الصلّاة والسّلام: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ إِيَّيْ أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحَبَّهُ - قَالَ - فَيُحِبُّهُ

198 - التحرير والتنوير، ج 3، ص 84.

199 - صحيح مسلم، ج 8، ص 65.

200 - المائدة 54.

جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبُوهُ. فَيُحِبُّهُ
أَهْلُ السَّمَاءِ - قَالَ - ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ
عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ - قَالَ - فَيَبْغِضُهُ
جِبْرِيلُ ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ - قَالَ
- فَيَبْغِضُونَهُ ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ" 201، المتعالي جل
جلاله هنا يرسم للخلق أجمعين صورة عظيمة، فهو المتعالي تبارك
وتعالى يحب مخلوقا ضعيفا، وهذا الحب يأخذ منحأ آخر، إذ يتشكل
مع العبد ويجعل منه قوّة كبيرة مستمدة من حبّ الله تعالى له، عَنْ أَبِي
هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: - "إِنَّ اللَّهَ قَالَ
مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ
أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى
أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ،
وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطَيْتَهُ، وَلَئِنْ
اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ
الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ" 202. فضلا عن ذلك تنال
محبة الله بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تعالى: {قُلْ إِنْ
كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ} 203، فمن اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم أحببه الله، ومن
عصى الرسول صلى الله عليه وسلم أبغضه الله.

ولابدّ أيضا من المحبة المنافية لضدها، فلا يحصل لقائلها معرفة إلا
بقبول ما دلت عليه من الإخلاص، ونفي الشرك؛ فمن أحبّ الله
أحبّ دينه، ومن لا فلا، يقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ

201 - صحيح مسلم، ج 8، ص 40.

202 - صحيح البخاري، ج 21، ص 392.

203 - آل عمران 31.

دُونَ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحَبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعَذَابِ {204، فصارت محبتهم لله ولدينه، فأحبوا من أحبه الله،
وأبغضوا من أبغضه الله، وفي الحديث: "وهل الدين إلا الحب
والبغض" 205 هذه صورة الحب التي يجب أن يكون عليها الخليفة
ولهذا وجب أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم أحب إليه من
نفسه وولده ووالده والناس أجمعين.

حب الله يستلزم الانقياد لأوامره ونواهيه، ومن علامات محبته
صلى الله عليه وسلم: بُغْضُ مَنْ أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَمَعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُ،
ومجانبة من خالف سنته، وابتداع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف
شريعته، قال تعالى: {لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 206.

ومن الحب أيضا أن يحب القرآن الذي أنزل عليه صلى الله عليه
وسلم ويحب سنته ويقف عند حدودها، قال سهل بن عبد الله:
"علامة حب الله حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبي صلى
الله عليه وسلم، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة،

204 - البقرة 165.

205 - تفسير ابن أبي حاتم، ج 12، ص 267.

206 - المجادلة 22.

وعلامه حبّ السنة حبّ الآخرة، وعلامة حبّ الآخرة بُغض الدنيا،
وعلامه بُغض الدنيا ألاّ يدّخر منها إلاّ زادا وبلغة إلى الآخرة"207.

الله سبحانه وتعالى متعالٍ عن الوصف والإدراك والإحاطة، إذ
يقول تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا
شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ
الْعَظِيمُ}208، هذه الآية هي إخبار من الله تعالى بأنه هو المتفرد
بالألوهية لجميع خلقه، وهو الذي يستحقّ أن يُعبد دون سواه، فالآية
الكريمة ترسم ضمن صفات متعددة متتابعة فتبدأ بالحي القيوم، الحي
في نفسه الذي لا يموت أبداً. والقيم على غيره، وهو القائم بتدبير أمر
عباده، يكلّؤهم ويحفظهم ويرعاهم ويرزقهم، ولا قوام للمخلوقات بدون
أمره.

لا تأخذه سنة ولا نوم، لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن
خلقه، ومن تمام القيومة ألاّ يعتريه سنة ولا نوم، لأنّ اعتراء النعاس
والوسن دليل على العجز والضعف. له ما في السماوات وما في
الأرض، وهو إخبار بأن جميع من في الكون عبيد له وفي ملكه وتحت
قهره وسلطانه، وهو المتصرف بشؤونهم، الحافظ لوجودهم.

من ذا الذي يشفع عنده إلاّ بإذنه، ومن عظمتها، جل شأنه
وعلا، لا يجروء أحد على أن يشفع لأحد عنده إلاّ إذا أذن له
بالشفاعة، ولا يتكلم أحد بدون إذنه.

207 - البدع الحولية، ج 1، ص 131.

208 - التوبة 255.

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وهذا دليل على إحاطته علما بكل شيء في الماضي والحاضر والمستقبل، وهو يعلم أمور الدنيا التي خلفوها، وأمور الآخرة التي يستقبلونها.

ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - ولا يطلع أحد من خلقه على شيء من علم الله إلا ما علمه الله، وأطلعته عليه، وأذن له به. ولا يعرف إذنه تعالى إلا بوحي منه.

وسع كرسيه السماوات والأرض، والكرسي غير العرش، وهو أصغر منه. وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة في الأرض.

ولا يؤوده حفظهما، ولا يعجزه حفظ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما بل هو سهل عليه يسير؛ فلا يعزب عن علمه شيء، ولا يغيب عنه شيء.

وهو العلي العظيم، وهو الكبير المتعالي عن النقص، العظيم بجلاله وسلطانه²⁰⁹. وهذا يقين بأنه تعالى الكبير المتعالي عن النقص، فهو سبحانه منزّه عن أي نقص فهو العظيم بجلاله وسلطانه. هذه الآية الكريمة تشكلت مع اسم الله تعالى (المتعالي) فجاءت بأنساق مختلفة كل واحدة تفضي إلى الأخرى لتشكّل لنا حزمة معرفية تفتح لنا أفقا رحبة في التعرف على ربنا جلّ جلاله.

وفي هذا السياق نتذكر قول الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية العظيمة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه - قَالَ وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَخْتُو مِنِ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فُقُلْتُ لِأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -

²⁰⁹ - أسعد حومد، ج 1، ص 262.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَصَّ الْحَدِيثَ فَقَالَ إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ
فَأَقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَفْرُتُكَ شَيْطَانٌ
حَتَّى تُصْبِحَ. وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - "صَدَقَكَ وَهُوَ
كَذُوبٌ ذَاكَ شَيْطَانٌ" 210.

والتعالى صفة لا يختص بها إلا الله تعالى، وهذه الصفة عند
التحلى بها إنسانيا لها وجهان:

. محمود، وهو تعالٍ مطلوب في حق الخليفة ويتجسد في التعالى
عن الرذائل والنقائص، فيجب على الخليفة التعالى بالطاعة عن
المعصية وبالإيمان عن الكفر وبالعدل عن الظلم، وبالمطلق بالحق عن
الباطل.

. مذموم، ليعلم الخليفة أن أول من تعالى عليه عدوه إبليس لعنة
الله عليه، يقول المتعالى جل في علاه: { إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي
خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ
سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ
مِنْ طِينٍ } 211، من هنا يجب على الخليفة أن يستشعر التعالى
المذموم الذي هو من أسباب دخول جهنم والعياذ بالله، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ
بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ (لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ
كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ). قَالَ رَجُلٌ إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ
ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ "إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطْرٌ

210 - صحيح البخاري، ج 16 ص 499.

211 - ص 71-76.

الحقَّ وَعَمَّطُ النَّاسِ"212. هنا الحديث النبوي يقطع صورة التكبر
الإنساني، ويرسمها ضمن شكل دقيق لا يرى بالعين المجردة في بعض
الأحيان ممَّا يجعلها خاصة بالمتعالى جلّ جلاله، فلا تكون إلا له.

وحظ الخليفة من اسم (المتعالى) جلّ جلاله، أن يتخلق به فلا
يتعالى على الخلق، إمَّا يتعالى على كل شيء يبدد تشكل الخليفة
الذى أراد الله تعالى، ويمثّل لقول الله تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ
السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ
فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ}213، هذا الإتيان والنهي يمثل دائرة مغلقة يكون الخليفة
بداخلها فتكسبه حصانة وأمانا وقوة، فضلا عن ذلك تعالوا يتماشى
مع تشكّله ممَّا يمنحه صفة الإصلاح فى الأرض، فىكون قادرا على
هذا الإصلاح لأنّه امتلك أدواته التى يتحقّق من خلالها التغيير
المطلوب من الله تعالى، من ذلك جاء قول الله تعالى مخاطبا داود عليه
الصلاة والسلام، إذ يقول: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ
فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ
الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ
الْحِسَابِ}214.

المتعالى جلّ جلاله يسقط أمامه كل كبير، والكبير وفق تشكّلنا
الإنساني يميلنا إلى صورة كل متكبر وطاغية ومتجبر على فى الأرض
واستحكم عليها وملك المال والأنفس، وبطبيعة الحال إن ملك المال

212 - صحيح مسلم، ج 1 ص 65.

213 - الحشر 7.

214 - ص 26.

والنفس هو من باب المجاز، فالله سبحانه وتعالى هو مالك الملك وييده كل شيء، ولنبدأ من فرعون تلك الشخصية التي أصبحت مضرباً للمثل، فضلاً عن ذلك صارت معياراً للتجبر والتكبر، فهذه الشخصية رُسمت صورتها وفق إطار التملك والقوة والجبر، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} 215 جمع فرعون قومه ونادى فيهم متبجحاً متفاخراً بملك مصر، وتصرفه فيها، وفي أنهارها الجارية في أرضها، وسياق الخطاب هنا تشكل من مفردات مختلفة كلها تحيل إلى القوة وعظم المكانة التي عليها هو، فضلاً عن ذلك أراد تشبيهم في طاعته، وصرّفهم عن التأثير بموسى وما جاء به من آيات.

فإذا تتبعنا النص القرآني وجدناه قد رسم فرعون في صورة لم ترسم لغيره، ألا وهي صورة العلو التي شغلت حيزاً واضحاً في سرد قصته، إذ يقول تعالى: {فَمَا أَمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ} 216 وقوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} 217 وقوله تعالى: {وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ} 218 هذه الآيات الكريمة في كل سياقاتها بينت لنا صورة فرعون صاحب القهر والغلبة، وفي الوقت نفسه هو عاتٍ متكبر، هذه

215 - الزخرف 51.

216 - يونس 83.

217 - القصص 4 - 5.

218 - الدخان 30 - 31.

الصفات عند قراءتها والتمعن فيها تحيلنا إلى مخلوق قوي متمكن متسلط جبروت يفعل بالخلق ما يريد لا أحد يقف أمامه، لكن هذه الصورة تتهاوى أمامنا حين نقرأ قول الله تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ أَمُنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} 219 هنا تتهاوى كل شيء، أين الجنود؟ أين المدافعون؟ أين الحماية؟ أين العلو الذي زعمته؟ {فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} 220 الكل تفرق عنه وذهب كل يريد النجاة بنفسه، نُفي عنه الأيمان لأنه لم ينفعه إيمانه لأنه جاء به في وقت حصول الموت. وهو وقت لا يقبل فيه إيمان الكافر ولا توبة العاصي، يقول تعالى: {وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} 221 تحقق أمر الله تعالى بغرقه في البحر، إلا أن الغرق تبعه أمر مهم بقي خالدًا في الذاكرة يتشكل معها ويوقظها عند سماع اسم فرعون، يقول تعالى: {فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدْنِكَ لَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} 222، الإنجاء بالبدن صورة تبقى على طول الزمن واضحة معبرة لكل الخلق، فعندما تقع أعينهم على البدن يذكرون المتعالي جلّ جلاله، الذي يسقط أمامه كل من أراد العلو والتكبر والجبروت في الأرض، سبحانك ربنا لا اله إلا أنت، أنت المتعالي.

219 - يونس 90 - 92.

220 - النازعات 24.

221 - النساء 18.

222 - يونس 92.

ولنتقل إلى شخصية أخرى وهي شخصية قارون، فقد قص علينا النص القرآني قصته، يقول تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ إِنَّهُ لَدُوٌّ حَظِيظٌ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآئِنَّا اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآئِنَّا لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} 223، قصة قارون تعرض سلطان المال والعلم، وكيف ينتهي بالبوار مع البغي والبطر، والاستكبار على الخلق وجحود نعمة الخالق. وتقرر حقيقة القيم، فترخص من قيمة المال والزينة إلى جانب قيمة الإيمان والصلاح؛ مع الاعتدال والتوازن في الاستمتاع بطيبات الحياة دون علو في الأرض ولا فساد.

تبدأ القصة فتعين اسم بطلها (قارون) وتحدد قومه (قوم موسى) وتقرر مسلكه مع قومه، وهو مسلك البغي (فبغى عليهم) وتشير إلى سبب هذا البغي وهو الثراء:

(وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة).

ثم تمضي بعد ذلك في استعراض الأحداث والأقوال والانفعالات التي صاحبته في النفوس.

لقد كان قارون من قوم موسى، فآتاه الله مالا كثيرا، يصور كثرته بأنه كنوز والكنز هو المخبوء المدخر من المال الفائض عن الاستعمال والتداول وبأن مفاتيح هذه الكنوز تعيي المجموعة من أقوى الرجال. من أجل هذا بغى قارون على قومه. ولا يذكر فيم كان البغي، ليدعه مجهولا يشمل شتى الصور. فرما بغى عليهم بظلمهم وغصبهم أرضهم وأشياءهم كما يصنع طغاة المال في كثير من الأحيان وربما بغى عليهم بحرمانهم حقهم في ذلك المال²²⁴. ثم يأتي الخطاب القرآني بعد سرد قصة قارون ليبين صفات المستحقين للآخرة، يقول تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} 225 ومن بين هذه الصفات صفة العلو التي تشكل محورا مهما في حياة المؤمنين فهم لا يريدونها لأنهم متواضعون وعارفون أنها لا تكون إلا للواحد الأحد المتعالي جلّ جلاله.

وقوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} 226 هذه الآية الكريمة فيها إطلاق معرفي، فالله تعالى يعلم كل شيء مما يشاهده العباد، ومما يغيب عنهم من عوالم لانهاية لها، ولا يخفي عليه شيء منه. و(الكبير) العظيم الشأن الذي كل شيء دونه و(المتعالي) المستعلي على كل شيء في ذاته وعلمه وسائر صفاته

224 - في ظلال القرآن، ج 5 ص 442.

225 - القصص، 83.

226 - الرعد، 8 - 9.

سبحانه، وجوز أن يكون المعنى الكبير الذي يجلب عما نعت به الخلق من صفات المخلوقين ويتعالى عنه، فعلى الأول المراد تنزيهه سبحانه في ذاته وصفاته عن مداناة شيء منه؛ وعلى هذا المراد تنزيهه تعالى عما وصفه الكفرة به فهو رد لهم كقوله جلّ شأنه: {سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ} 227 قال العلامة الطيبي: إن معنى (الكبير المتعال) بالنسبة إلى مردوفه وهو (عالم الغيب والشهادة) هو العظيم الشأن الذي يكبر عن صفات المخلوقين ليضم مع العلم العظمة والقدرة بالنظر إلى ما سبق من قوله تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} 228 إلى آخر ما يفيد التنزيه عما يزعمه النصارى والمشركون 229.

التوازن الاجتماعي قضية مهمة تكتسب أهميتها في أنها ترسم للحياة جوانب الاستقرار التي إن تحققت تصبح الحياة تسير وفق تشكل خاص ورؤية خاصة تلملم الفكر المتشنت، وتبصره إلى الصورة المثلى التي يجب أن تتحقق، وهذه الصورة المثلى التي تتحقق تركز على صورتين مهمتين تستندان إلى مرجعيات سابقة، ونقصد بالمرجعيات السابقة أن هناك أحداث وقعت، وعند استدعاء هذه الأحداث وتوظيفها تتشكل صورتان تنطقان بالتوازن الاجتماعي الذي يحصل حين التفكير بهما، الصورة الأولى تقول إن أي متعالٍ أو جبارٍ من البشر حين يتفكر بما حصل لقارون يندك جبروته وتعالیه، إذ يقول تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَرُزُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَآكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ

227 - الصافات 159.

228 - الرعد 8.

229 - تفسير الالوسي، ج 9 ص 210.

وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ} 230 وقوله تعالى: {فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَحَسِّنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ} 231 هاتان الصورتان تنطقان أن كل متكبر وكل عال في الأرض يكون هذا مصيره، فعند التفكير بهاتين الصورتين ينسج عقل المتكبر صورة جديدة واعية تركز على الخضوع والخشوع والطاعة لله تعالى، فيبني لنفسه حياة جديدة يشكلها وفق الوعي الذي تشكل معه نتيجة التفكير المتحقق بعد طول تأمل وتبصر واستدعاء، هذا الأمر لا يقتصر على فرد واحد بل يستمر ليتشكل مع الأسرة أيضا، ولا يقف عند الأسرة الواحدة بل يستمر أيضا ليشمل المجتمع والأمة جميعها، وبهذا يتحقق للمجتمع صورة جديدة مُشَبَّعة برضا الله تعالى، فضلا عن ذلك حتى لا يتخلف أحد من الوصف الذي ذكره الله تعالى بقوله: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} 232.

أما الصورة الثانية: فهي صورة الإنسان الضعيف الذي يعلم أن له سندا أعلى لا ينال منه أحد فيطمئن ويعيش آمنا، هذه الصورة تحيلنا إلى قوله تعالى: {اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمِعُ وَأَرَى فَاْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ

230 - الدخان 25 - 29.

231 - القصص 79 - 81.

232 - آل عمران 110.

مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامَ عَلَيَّ
 مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى {233}. قولهما كما جاء في قوله تعالى: (والسَّلَامَ
 عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى) يدلُّ على أنَّ السَّلَامَ هو مرتكز دعوتها، وذلك
 لأنَّهما مسالمن هداية وحرصا على نجاه المهمة الرِّبانية التي اصطفاهما
 الله إليها، أي أنَّها لا يمكن لهما بالاعتداء أو الظلم ولكنَّها سيكونان
 الداعيان الحريصان على أداء الرِّسالة، وكان الأمر كذلك وفقا لما
 استمده من سلام من اسمه السَّلَامَ جلَّ جلاله، قال تعالى: والسَّلَامَ
 "هو الذي سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من كل ما لا يليق بكماله.
 وكذلك من اسم السَّلَامَ اشتق الإسلام وهو دين الله" 234 مصدقا
 لقوله تعالى {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} 235.

ويقول الإمام ابن القيم في اسم السَّلَامَ جلَّ جلاله قولان:
 "أحدهما أنَّه مصدر وإطلاقه عليه كإطلاق العدل عليه، والمعنى أنه ذو
 السَّلَامَ وذو العدل على حذف المضاف، والثاني: أن المصدر بمعنى
 الفاعل أي السَّلَامَ كما سميت ليلة القدر سلاما أي سالمة من كل
 شر، بل هي الخير لا شر فيه" 236.

قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ
 الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا
 يُشْرِكُونَ} 237 في هذه الآية كل اسم من أسمائه الحُسنى يؤكد على
 الصفة التي تسبقه ويحتويها، فالمملك هو الله، والقدوس هو الله،

233 - طه 43 - 74.

234 أحمد عبد الجواد والله الأسماء الحسنى فادعوه بما. الدار البيضاء. دار الثقافة ص 37.

235 آل عمران 19.

236 مشرف على عبد الله منهج ابن القيم الجوزية في شرح أسماء الله الحسنى. الدمام. دار ابن

الجوزية الطبعة الأولى 2005 ص 279.

237 الحشر 23.

والسلام هو الله، ولذا فإنّ جميع الأسماء الحُسنى هي الله جلّ جلاله؛
ولأنّها هي الله تعالى فهي بطبيعة الحال تحتوي كل صفات الكمال
فيها. ولذلك فإنّ اسم الله تعالى يحتويها.

مع أنّ هذه الآية ثلاثية الأبعاد إلا أنّها نزلت وحدة واحدة
متماسكة بنيانا مرصوصا فالبعد الأول: (هو الله الذي لا إله إلا هو).
في هذا البعد ينفي وجود إله غيره، ويتم التأكيد على أنّ الله الذي لا
شريك له في الأمر، إنّ الله واحد أحد ولا وجود لغيره. وهذا يعني إذا
كان هناك من يعتقد بوجود لغير الله تعالى فلن يجده، ولن يجد له
مكانا، ولن يجد له صفات. ولذلك كفر الذين قالوا: إنّ الله ثالث
ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ
إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ 238

والبعد الثاني (الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار
المتكبر). هذه الأسماء جميعها هي الله الذي تم التأكيد عليه بالبعد
الأول، بأنّه لا إله إلا هو. وهذا يعني أنّ هذه الأسماء وغيرها من
الأسماء الحُسنى هي غير متعددة، بل هي صفات تتعدد، أي أنّها
صفات لواحد لا يتعدد. ولذلك فإن القاعدة هي: تتعدد الصفات
للواحد ولا يتعدد الواحد في صفاته. فالكريم عندما يكون صادقا،
وعادلا، يظل هو مفردة واحدة وصفاته متعددة، ولهذا فإنّ الله واحد
أحد وصفاته متعددة فالحمد لله الواحد المتعدد الصفات الحسان.

والبعد الثالث (سبحان الله عما يشركون) هذا البعد يؤكّد بالتمام
مقاصد البعدين السابقين بأن الله واحد أحد، وهو الملك القدوس

السّلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر أي هو الذي له الأسماء الحُسنى، ولذلك جاء قوله تعالى (سبحان الله عمّا يشركون) لينفي وجود الشريك ويؤكد على الواحد الأحد متعدد الصفات.

السّلام: هو الكامل غير المنقوص، الدائم على البقاء حيا لا يموت، وهو الذي بذكره تطمأن القلوب.

السّلام الحقّ هو الله تعالى، والسّلام بالإضافة هو الخليفة. ولذا فإنّهُ السّلام الحقّ لكامل صفاته، أمّا السّلام بالإضافة (الخليفة) فيرتبط بدرجة الالتزام بما يأمر السّلام الحقّ به. ولذلك السّلام الحقّ جاء مطلقا بلا شروط، والسّلام بالإضافة لا يتم إلا بالترام شرطي وفقا لنص من السّلام الحقّ، وهي (الشرعة). التي إن التزم بها قولا وفعلا كان الخليفة في الأرض، وإن لم يلتزم قولا وفعلا فلن يكون الخليفة، وذلك لنقصه عمّا يراد له أن يكون عليه من شرعة. {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} 239. شرع لكم تعني بيّن لكم كل شيء في الدين، والدين عند الله هو الإسلام، والإسلام لا يعني الرسالة المحمّدية فقط، بل كل الدين من عند الله واحد، وهو الإسلام الذي كان خاتم أنبيائه محمّد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. ولهذا لا نفرق بين أحدٍ من رسله {لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ

239 الشورى 13.

الْمَصِيرُ} 240. وقال خير قائل: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 241.

ومن آثار الإيمان بهذا الاسم الآتي:

1 . الله تعالى هو السّلام، السالم من كل نقص وآفة وعيب وهو اسم عظيم وفي معناه قريب من القدوس جلّ جلاله.

2 . الله سبحانه وتعالى هو المسلم على عباده وأوليائه في الجنّة قال تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ} 242.

3 . الله تعالى هو المسلم على أنبيائه ورسله لإيمانهم وإحسانهم وطاعتهم التامة له وتحملهم في سبيل الطاعة الشدائد، فيؤمنهم في الآخرة فلا يخافون ولا يفزعون، قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ} 243، وقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} 244، وقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ} 245، وقال تعالى: {سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} 246، وقال تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ} 247.

4 . الأمر بإفشاء هذا الاسم وأنّه سبب في دخول الجنّة، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا

240 البقرة 285.

241 الجاثية 18.

242 ياسين 58.

243 الصافات 79.

244 الصافات 109.

245 الصافات 120.

246 الصافات 130.

247 الصافات 181.

تؤمنوا حتى تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا
السّلام بينكم"248.

. قال الشاعر:

وهو السّلام على الحقيقة سالم من كل تمثيل ومن نقصان.

بناء على ما تقدم فإن السّلام الحقّ، شرّع شريعة تستوجب
الإتباع من قبل من يراد له أن يكون الخليفة، ولهذا التزم رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم كما التزم من قبله الرّسل الذين اصطفاهم الله
ليبلغوا رسالاته، والذين برسالاتهم أسلم المسلمون وأمنوا، حتى أصبحوا
هم السّلام بالإضافة. وفي مقابل ذلك كان غيرهم خوالف، ولهذا
أصبح المؤمنون هم الخليفة، وأصبح غيرهم، هم الخوالف.

في سورة الحشر الآية 23 سابقة الذكر جاء اسم السّلام مرتبا في
الموضع السادس، هذا الأمر جعله في وضع التأكيد على ما سبقه من
صفات، ويجعله في وضع الاحتواء لما يأتي من بعده من صفاته تعالى،
وهي التي بدورها لا تأتي إلا لتؤكد على كل صفة سابقة عليها.

ولأنّ الله تعالى واحد أحد لا شريك له في الملك، لذا كان السّلام
صفة ومسمى من أسمائه الحسنى، أي لو لم يكن السّلام صفة لله
تعالى لفسدت الأرض، ولذلك لو لم يكن الله واحد أحد ما كان
السّلام قاعدة للاستقرار والطمأنينة، بمعنى لو كان . مع الاستغفار. كما
يدّعي البعض بأن الله ثالث ثلاثة لفسدت السماوات والأرض بين
اختلاف وغضب الآلهة المتعددة، ولو كان في الوجود أكثر من إله
واحد ما جاء اسم السّلام صفة مطلقة لله تعالى الذي بسلامه كان
الوجود في حالة حركة ذاتية وجميع الكواكب دوارة حول ذاتها وحول

248 مسلم 45.

بعضها البعض، وهكذا ما بينها المجزآت التي تُحيط كل منها في دوائر متداخلة دون أن يحدث التقاطع والاصطدام. فمع أنّ الأرض تدور حول نفسها في حركة دائرية وتدور حول الشمس في حركة دائرية، إلا أنّ ما عليها من كائنات هي في حالة استقرار وثبات وسلام وكأنّ الأرض ثابتة لا تتحرك برغم السرعة التي هي عليها، الأرض تدور دون توقف، ومنازلنا وأبوابها ثابتة بين المشارق والمغارب هي كما هي. مع أنّ الأرض على سرعتها الكروية فنحن لم نشاهد ولنحظ أنفسنا نتقلب مع حركة دورانها الكروية، ولم يحس أحدنا بالدوران، الحركة شديدة ونومنا عميق. ولذا لولا السّلام ما كُنّا في سلام آمنين، {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَاوِيٌّ مِّنَ الدُّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا} 249.

ولأنّ الله واحد أحد لا شريك له، فإنّ جميع صفاته صفات سلام، ممّا يجعلنا نقول في الرحمة السّلام وفي البرّ الرّحيم السّلام، وفي العدل السّلام، وفي الحقّ السّلام، وفي الكيد السّلام، وفي العزة السّلام، وهكذا في كل صفة من صفات الله تعالى السّلام. وهذا لا يعني إنّ الله تعالى صفة واحدة هي صفة السّلام، بل له الصفات الحسان المتعددة.

ولذا فالسّلام هو الذي بيده أمور الحياة والممّات، والبعث والثواب والعقاب، وكل أمرٍ هو بيديه. ولهذا فالمؤمن ليس لديه مجهولا يخشاه، بل كل شيء بالنسبة له معلوم، فالجنة معلومة وطرقها ممهدة معلومة، والنّار معلومة والطرق المؤدية إليها معلومة، {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 250. كيف

249 الإسراء 111.

250 الزلزلة 7، 8.

يخاف المؤمن وهو ينظر بأمر عينيه طريق الخير مفتوحاً أمام من يريد أن يعمل صالحاً، وطريق الشر مفتوحاً أمام من يريد أن يخشى الله ويكفر عن سيئاته.

إذن بدون شك السّلام بالإضافة (الخليفة) هو الذي يختار بإرادة حرة طريق الجنة ويتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي به إلى النار. أمّا أولئك الذين لم ينتهوا فهم الضالون الذين لن يُستخلفوا في الأرض، {وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 251 وقوله تعالى: {كَأَلَّا لَنْزِلَ لَمْ يَنْتَهُ لَنْسَفَعَنَّ بِالنَّاصِيَةِ} 252.

وقد يتساءل البعض: لماذا الانتهاء؟

من أجل أن يعمّ السّلام. ولذلك جميع المفسدات منهي عنها، وجميع المفسدين مطلوب منهم الانتهاء عن كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الفتنة، وجميع المسلمين مطلوب منهم قول الحقّ وفعل الحقّ طاعة للسّلام الحقّ.

السّلام أمر يعمّ النّاس ويخصّ البعض: يعمّ النّاس باعتباره حقّ عام من السّلام الحقّ. ويخصّ البعض باعتباره لن يكون إلا للذين يعملون عليه. ولهذا فالسّلام قوّة لا يُمكن أن يحقّقه الضعفاء. ولذلك فإن الذين لم ينتهوا هم الضعفاء، والذين استجابوا هم الأقوياء. وعليه فالسّلام قوّة تحقّق الاستقرار والأمن والعدل {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 253. وإن جنحوا للسّلام تعني إن جنح الخصم أو العدو إلى القبول بإحقاق الحقّ فلا

251 المائدة 73.

252 العلق 15.

253 الأنفال 61.

ينبغي المكابرة وعلى المسلم أن يقبل بذلك قبل غيره، وفي مضمون وإن جنحوا أن يكون المسلمين في حالة قوّة، فالقوّة هي التي تجعل العدو ينجح إلى ما يبتغيه المسلم وهو السّلام.

السّلام اسم لله تعالى، يحفظ من كل سوء سواء كان مصدره أنس أو جن، فبسم الله الرّحمن الرّحيم تفتح أبواب النّجاح وتحفظ من كل شر، ولذلك فهي الآية المفتاح، التي بها يتم التمكن من الدخول إلى والخروج من. ولهذا جاءت استجابتها بالآية الحمد لله ربّ العالمين، الدالة على ضمان النّجاح للعمل الذي يؤسس على اسمه تعالى، ممّا يستوجب الحمد لمن كان اسمه فاتحا لكل خير وغلقا لكل شر، فالحمد لله ربّ العالمين الحافظ من شر ما خلق {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} 254 و{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} 255.

قال تعالى: {وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 256 قال قتادة والحسن: "السّلام هو الله وداره الجنّة، وسميت الجنّة دار السّلام لأن من دخلها سلم من الآفات" 257. وقال ابن عباس: "الجنان سبع: دار الجلال، ودار

254 الفلق 1 . 5.

255 النَّاسِ 1 . 6.

256 . يونس 26، 27.

257 القرطبي الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثامن ص 328.

السّلام، وجنة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخلد، وجنة الفردوس، وجنة النعيم"258.

وفي كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى سميت الجنة بدار السّلام، وفي إضافتها إلى السّلام ثلاثة أقوال: "الأول: أنها إضافة إلى مالکها السّلام سبحانه.

الثاني: أنّها إضافة إلى تحية أهلها، فإن تحيتهم فيها سلام.

الثالث: أنّها إضافة إلى معنى السّلامة، أي دار السّلامة من كل آفة ونقص وشر.

والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها"259.

الله يدعو إلى دار السّلام، فهو يدعو إلى دار الحقّ، ولأن الجنة لا ظالم ومظلوم فيها ولا سيد وعبد، ولا حاكم ومحكوم، ولا خائف ومخيف، ولا فقير وغني، بل أصحاب الجنة هم أصحابها الذين لهم الحقّ فيها، لذا فهي دار السّلام وذلك لانعدام معطيات الخصام والاختلاف والصراع والافتتال والفرقة والحسد والغيرة. إنها دار المحبة التي فيها تُشبع الحاجات. {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهِونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِفُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ سَلَامًا قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ}260 السّلام: الحجّة أي لهم الحجّة من ربهم تعالى التي بها يتمكنوا من دخول الجنة، وها هم اليوم يعيشونها وأزواجهم حقيقة فيها يتلذذون من كل طيب، مع الوصف

258 المصدر السابق، ص 329.

259. مجدي كمنصور الشورى القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة. مكتبة العلم

1999 ص 116.

260 ياسين 58.

البديع لاستجمامهم تحت الظلال وهم على الأرائك متكئون، في سلام ولذة دائمين لا ينقطعان. وهم في هذا السلام الدائم يدخل الملائكة عليهم من كل باب. {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} 261 ودخول الدار كان مترتبا على أربعة رضاءات:

1 . رضاء الله على عباده الذين استخلفهم في الأرض. {وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ} 262 وقوله تعالى: {رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} 263.

2 . رضاء الرسل والأنبياء الذين كانت دار السلام استجابة بما دعوا به لله تعالى. {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} 264

3 . رضاء الداخلين من عباده على أنفسهم بما جازاهم الله به من جنة وسلام دائم. {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} 265.

4 . رضاء الملائكة وتقديرها للصابرين، هو الذي جعلهم يدخلون عليهم من كل باب مهنتين لهم دخولهم الجنة.

261 الرعد 23، 24.

262 . آل عمران 15.

263 . المائدة 119.

264 الأنفال 64.

265 الأعراف 44.

فالدار كبناء يمكن أن يتصوره عقل الإنسان، وهذه الدار المتصورة بالتأكيد لن تكون هي دار السلام، فالجنة واسعة عرضها عرض السماء والأرض، وللمقارنة بين الدارين يقول الله تعالى: {اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب وهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ساقطوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورأسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم} 266.

الفرق كبير بين دار دنيا (سُفلى) وبين دار جنة (عليا) فالدار الأولى مادة تعيش فيها الحسنات جنباً إلى جنب مع السيئات، (الطيب مع العفونة، والإنسان مع الديدان) إنها دار المخاوف. أما دار السلام فهي دار الجنة التي بُنيت بالفضل لا بالتراب كما هو حال دار الدنيا، فالتراب عمره الزمني منتهى، أما فضل الله الذي من أجله بنيت دار السلام فلا نهاية له. فدار السلام لا عداوة فيها ولا فساد ولا مظالم ولا خوف ولا جوع ولا مرض ولا ألم، ولهذا فالدار التي تخلوا من النقائص والمخاوف هي بحق دار سلام.

ولأنّها دار سلام فالله يدع إليها {وَاللّٰهُ يَدْعُوْا اِلَى الدّٰرِ السَّلَامِ وَيَهْدِيْ مَنْ يَشَاءُ اِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيْمٍ} 267 يدع الله عباده أن يعملوا صالحاً في دنياهم حتى يتمكنوا من دخول دار السلام، ودعوته إليها صريحة لعلمه بما فيها من نعيم، ودعوته صريحة لأنها جزاء منه للعاملين

²⁶⁶ الحديد 20، 21.

²⁶⁷. يونس 25.

عليها، مع أنّ أبواب الجنّة مُفْتَتحة للجميع إلا أنّ بلوغها سيكون متعذرا على من لم يعمل عليها.

ولأنّ السّلام هو الميّزّة من كل نقص وعيب، والمنزه من الشرك في الملك، والميّزّة من الوالد والولد، والميّزّة من الحاجة والعوز، وهو المالك لكل الملك، وهو الذي بيده الخير، وهو الفعّال لما يُريد، وهو الغفور الودود، لذا فجميع الكائنات تسبح بحمده، {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 268.

التنزيه إيمان يقيني بأنّ الله تعالى هو الحقّ، وهو بالمطلق على كلّ شيء قدير، ولهذا فإنّ التنزيه براءة من النّار وعبادة لأهل الجنّة.

قال الله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِيَّاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} 269. ولأنّ الدّار الدنيا مكانا للالتقاء الأضداد، فهي معرضة لمغالبة الضّد على الضّد، ولأنّها كذلك ضرب الله لنا الأمثال العديدة التي من بينها مثال القرية التي كانت آمنة وأهلها يعيشون السّلام وكيف أصبحت شقية بعد أن كفر أهلها.

بناء على المثال الذي تضمنته الآية الكريمة السابقة نستنتج أن في الأساس القاعدي أن اختيار الله لعباده السّلام أولا، ثم يترك لهم بعد ذلك ما يختارون كيفما يشاءون، فإن اعتمدوا ما اختاره لهم الله تعالى واتبعوه كانت لهم دار السّلام، وإن غيروا الاختيار فلن يبلغوا إلى ما

²⁶⁸ التغابن 1، 2.

²⁶⁹ النحل 112.

هو أفضل وأجود وأحسن وأمتع وأجود مما اختاره الله لهم، فإن استبدلوا ذلك فليس لهم إلا البديل، والبديل لا حول ولا قوّة إلا بالله. فالله جعل لهم قريتهم داراً آمنة مطمئنة (دار سلام) يأتمها رزقها رغداً من كل مكان، رزقا وافرا ميسرا برا وبحرا، فكفروا بهذه النعم والمكارم، فأذاقهم الله لباس الجوع المدقع والخوف الشديد بما كسبت أيديهم من أعمال وأفعال.

وعليه فالله تعالى جعل في الأرض خليفة بعد أن جعل له الرزق الرغد، حتى إن البعض يرى بأنّ الجنة التي كان فيها أبونا آدم عليه الصلّاة والسّلام هي الأرض النعيم، ولكن لعدم إتياعه أوامر الله تعالى تغير حال الأرض إلى ما هي عليه. وهذه آية لمن يريد أن يعتبر فاعتبروا يا أولي الألباب.

السّلام هو الذي منه جاءت السّلامة، ولذا فإن السّلامة تابعة للسّلام السابق عليها، فهو تعالى السابق على كل سابق، وتحتوي السّلامة البراءة من كل شرّ وسوء، ومن كل مرض وألم، ومن كل جهل وفقر، ومن كل حسد وعلّة. وفي مقابل ذلك فهي القوّة التي تتضمن المقدرة والاستطاعة والسيطرة والعطاء، وفي هذا الأمر يقول الأستاذ مجدي منصور الشورى: "فالسّلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى وقال على لسان أهل العلم: الله جلّ ثناؤه هو السّلام لسلامته ممّا يلحقّ المخلوقين من العيب والنقص والفناء"²⁷⁰. ويقول ابن قتيبة: "إنه الباقي الدائم الذي تبنى الخلق ولا يفنى وهو على كل شيء قدير"²⁷¹.

²⁷⁰ مجدي منصور الشورى القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة. دار العلم 1999

ص 113.

²⁷¹ المصدر السابق ص 113.

السّلام في الدار الدنيا أمل، والسّلام في الدار الآخرة واقع، ولهذا اتخذه البعض شعارا يناضلون من أجل إحقاقه، وقبلوا في سبيله أن يدفعوا الثمن، وثمنه المجاهدة في سبيل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، ورفع راية الخليفة على الأرض تحت شعار لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولأنّ الله جعلنا شعوبا وقبائلا تعددت رؤانا وآراؤنا، ممّا جعل وجهات نظرنا هي الأخرى تتعدد، ولهذا تجادلنا وتخاصمنا وتنازعنا وغلظت قلوب بعضنا على بعضٍ، حتى تقاتلنا وكل فئة ممّا تعتقد أنّها على الحقّ ومن أجله. وهي في حقيقتها تقاتل الآخرين لتنتزع منهم السلطة، وتفرض رؤاها على حساب رؤى الآخرين. هكذا أصبحت العلاقة بين قوي يمتلك السلطة والثروة والسلاح وبين ضعيف يفترق للإرادة التي تمكنه من ممارسة الحرية. ولهذا أصبح السّلام شعار لإشعال نار الفتنة، عوضا عن إطفائها. ومن ورائها أصبحت الديمقراطية للمغالبة بدلا من تعميمها عدلا على كل من يتعلق الأمر بهم (أمر السلطة والثروة والسلاح، وأمر السلم وأمر الحرب، وأمر ممارسة الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات).

ولأنّ تحت شعار ما سبق تُزوّر الحقائق، لذا فالسّلام الحقّ، هو إحقاق الحقّ سواء في الدار الدنيا أو في الدار الآخرة، وعلى من يريد أن يكون الخليفة، عليه بقبول الآخر الذي له علاقة بالأمر المشترك، واستيعابه هو كما هو، ومشاركته والإحسان إليه، ومبادلتة الحبّ بالحبّة، والقصاص منه إذا أراد أن يُفسد في الأرض أو يسفك فيها الدماء، والعمل معه على إحداث النقلة، التي من خلالها يتمكن من إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل.

في باطن الأرض تركز البراكين، وفي باطنها النار ونحن منها خلقنا
وعليها نعيش بسلام.

الشمس كتلة من النار، ونحن كل يوم ننام مع غروبها ونصحوا مع
شروقها آمنين بسلام، وهكذا ينمو النبات وتفتق الأزهار مع كل
ضياء شمس.

ركبنا الطائرات وغزونا الفضاء بسلام، ولم يصيبنا إلا ما كتبت لنا.
والحروب نارها لم تطف بعد والقتال والعداء والمكائد والدسائس
والفتن، وهكذا بقدر ما يحيط بنا من مخاطر فنحن آمنين برعاية من
السلام. {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} 272.

الخليفة هو المؤمن الذي يعرف عن أنه يقين لن يموت قبل أن يتم
يومه، ولهذا فالمؤمن لا يخاف الموت. وإذا مرض لا يذهب للطبيب
ليعالج من الموت، بل يذهب للطبيب ليعالج من المرض، وذلك لإيمانه
بأنه إذا مرض لابد أن يُشفى، {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} 273 أمّا
إذا انتهى يومه فليس له إلا أن يموت على الطاعة والشهادة وهو واثق
من أنه سيحيى من جديد {وَالَّذِي يُبَيِّنُ لِي ثُمَّ يُخَيِّنُ} 274.

وقد يتساءل البعض: عما هي مخيلات تحقيق السلام؟ وما هي
مُحَقَّقَاتِهِ؟

فتكون الإجابة: المخيلات هي: ارتكاب المحرمات.

272 التوبة 51.

273 الشعراء 80.

274 الشعراء 81.

والمحققات هي: الالتزام بحدود الله، في إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي: "الن يوصف بالسّلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده، وكيف يوصف به من لا يسلم هو من نفسه؟"275 يتمّ الاتفاق مع هذا الاقتباس الذي تتضح فيه صفة السّلام بالإضافة، وهو الذي لا يلحق أحدا من بني جنسه بسوء، سواء كان هذا السوء قولاً أو فعلاً. ولأن البعض لم تسلم حتى أنفسهم منهم، فكيف يمكن أن يسلم منهم الآخرون. وبما أنّ الأمر في بعض الأحيان على مثل هذا الحال، فهل يُعتقد أن مثل هؤلاء هم المراد بهم الخليفة؟ كلا. الله بصفاته الحسنى، لا يستخلف إلا حسناً. فمن بين الذين يراد لهم أن يكونوا الخليفة هم أولئك الذين ارتبطت أرواحهم بأنفسهم وأقوالهم وأعمالهم بالسّلام، {وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا}276.

وقال تعالى: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}277.

وقال تعالى: {قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَعْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}278.

وقال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}279.

²⁷⁵ محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة. أخبار اليوم قطاع الورق ص 155.

²⁷⁶ مريم 15.

²⁷⁷ مريم 33.

²⁷⁸ مريم 47.

وقال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} .280.

وقال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي
الْعَالَمِينَ} 281.

وقال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى
إِبْرَاهِيمَ} 282.

وقال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى
وَهَارُونَ} 283.

وقال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ} 284.

وقال تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ} 285.

هؤلاء ومن هم على أمثالهم من الصالحين والذين تبعوهم بالإيمان
هم الذين يراد بهم الله تعالى أن يكونوا الخلفاء في الأرض، هؤلاء هم
أصحاب رسالات السلام الذين يراد لهم أن يعمروا الأرض ولا
يُفسدوا فيها ولا يُسفكوا الدماء، وأن يُسبِّحوا بحمد الله ويقدموه.
ولهذا نزل قوله عز وجل: {أَفَعَبَّرَ دِينَ اللَّهِ يَتَعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي

279 النمل 59.

280 القصص 55.

281 الصافات 79.

282 الصافات 109.

283 الصافات 120.

284 الصافات 130.

285 الصافات 181.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ {286}.

السَّلَام مصدر للسَّلَامَة، والسَّلَامَة مصدر للإِسْلَام، أي خلق السَّلَام جلّ جلاله السَّلَامَة أولاً، ثم اشتق منها الدين الذي أرتضى وأسلم له من في السماوات والأرض، طوعاً اختيارياً، وكرهاً حيث جعل الخلق مُسَيَّرِينَ بالقوّة في كل ما ليس لهم سلطا عليه، كالحركة والزمان وما يترتب عليهما من فعل ورد فعل. ولذا فإنّ الإِسْلَام يعني أنه الحقّ، ولهذا عندما يكون الإِسْلَام قول حقّ وفعل حقّ، ألا يكون السَّلَام هو المصدر لكل سلام.

وقد يتساءل البعض: كيف يكون هو السَّلَام جلّ جلاله، الذي جعل في الأرض خليفة، واصطفي منهم الأنبياء والرّسل، وجعل فيهم الصالحين والأبرار، ولم يعمّ السَّلَام الأرض التي أراد لهم أن يكونوا الخلفاء فيها؟

تكمن حقيّة هذا التساؤل في الآية السابقة وبالتحديد فيما يتعلق (بالطوع والكره)، وما يحمله من معنى (الاختيار والتسيير). فبطبيعة الحال الإنسان الذي يريده الله خليفة له في الأرض هو الذي بإرادته الحرة وعن وعي ويقين يستمد صفاته من صفات خالقه، أي لا يمكن أن يكون الإنسان حراً ما لم يعرف حقيّة أمره، من هو؟

286 آل عمران 83 . 85.

ومن خلقه؟ وكيف خلقه؟ ولماذا خلقه؟ وما العلاقة التي ينبغي أن يكون عليها مع من خلقه؟

المخيّر هو الذي يتمكّن من الإجابة بإرادة على الأسئلة السابقة بعد معرفة تامة ووعي يقيني، هذا الوعي هو الذي يجعله مُدركا لما يجب ولما لا يجب، وبمعرفة هذه يستطيع أن يقرر ما ينبغي الأقدام عليه، وما يجب تجنبه، وما ينبغي الابتعاد عنه. وبناء على ذلك تترتب أفعال الإثابة وأفعال المعاقبة، وما بين الاثنين فهو المخيّر.

والمكروه (المجبر) هو الذي لم طرح على نفسه هذه الأسئلة، وإن طُرحت عليه فقد يتجنب الغوص فيها، وقد يدّعي أن هذه الأسئلة لا تخرج إجاباتها عن الطبيعة. وفي هذه الحالة يلحظ عليه الغفلة عن التساؤل: بما أن الطبيعة مخلوقة وليست بخالقة ألا يكون من ورائها خالق؟ وإلا هل يمكن أن تكون الأشياء لو لم يكن من ورائها من يصدر الأمر لخلقها ويقوم به؟ مع أنّه الجاحد والناكر لذلك إلا أنه لن يستطيع أن يغير أمرا من الأمور التي عليها خلقت الطبيعة، {أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً

لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ
قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {287}.

القاعدة الطبيعية: (وراء كل مخلوق خالق)، قال تعالى: {أَمْ
خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ
لَا يُوقِنُونَ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُسَيْطِرُونَ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ
يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ
أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ
أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ
اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ {288}.

وبما أنَّ الطبيعة مخلوقة، إذن لا بدَّ وأن يكون من ورائها خالق.

والقاعدة الثانية: (الخالق خير من المخلوق)، قال تعالى: {وَلَهُ
الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {289}.

وبما أنَّ الخالق أفضل من المخلوق وخيرا منه، إذن ألا يكون
وجوبا أن يتم التعرف على الخالق، والاستماع إلى ما يقوله، وجعله
المصدر لكل شيء بدلا من الطبيعة التي هي أقل شأنٍ. نحن بني
الإنسان الذين خلقهم الله في أحسن تقويم وجعلهم السَّلام بالإضافة
والخليفة في الأرض، قد صنعنا بأيدينا القلم والمسطرة، لأجل أن نكون
على الصراط المستقيم كما يريدنا خالقنا أن نكون عليه، مع أننا عرفنا
القلم والمسطرة إلا أننا جِدنا عن القلم والمسطرة حتى اعوجاجنا، ومع
ذلك بعضنا يعرف أنه المعوجَّ عندما ينظر إلى اعوجاج ظله ويتظاهر

²⁸⁷ البقرة 258، 259.

²⁸⁸ الطور 35 - 43.

²⁸⁹ الروم 27.

بإصلاحه دون أن يفكر في تصحيح اعوجاج ظهره، ولذا لن يستقيم الظل والعود أعوج.

وعليه لقد صنعنا المقعد والتلفاز والطائرة والصاروخ، وجميع وسائل المواصلات وصنعنا بأيدينا أدوات كثيرة لتوفر لنا الراحة والاستجمام، ومع ذلك نحن الصّانعون أفضل من كل ما صنعنا، وفقا للقاعدة (الخالق خير من المخلوق).

نحن الذين صنعنا الجرة من الفُحَّار، ونحن بإرادتنا إذا أردنا كسرها كسرناها، وإذا أردنا تجبيرها جبرناها، وإذا أردنا البديل الأفضل استطعنا والحمد لله ربّ العالمين. ولأنّ العلاقة نسبة وتناسب، فكما نحن نفعل بالجرة وبما خلقنا، هكذا خالقنا يفعل بنا وبما خلق متى ما يشاء وكيفما يشاء، ولأننا نعي ذلك فليس لنا إلا أن نقول اللهم يا الله بيدك الخير فارحمنا يا رحمن يا رحيم ولا حول ولا قوّة إلا بك سبحانك ما أعظم شأنك نقدِّسُك ولا نُشرك بك.

قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْثًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} {290}. أي أنّ الدين عند الله هو الاعتراف بالحقّ، والتسليم به، وبيدأ الحقّ بوجودنا الذي لو لم يكن حقّ ما كنّا، والأرض التي نحن عليها لو لم تكن حقّ ما كنّا نحن عليها، وإلا نحن الآن أين نكون؟ ولو لم تكن الكواكب حقيقة ماثلة أمام أبصارنا ما رأيناها، ولو لم يكن الخوف فينا ما حسينا به، ولو لم يكن الموت حقّا ما سلمنا أمرنا إليه، ولو لم يكن الدين حقّ ما اصطفى الله الرّسل والأنبياء وكنّا من المتعطين. ولهذا أصبحت السّلامه للخليفة مطلب

²⁹⁰ آل عمران 19.

حقّ من كل سوء، ونجاة من العذاب، ومن النار والعار، ومن الفاقة والحاجة، ومن النقيصة والعيب، ولهذا فهي المشتقة من السلام الذي هو سلام من كل نقص، ومن الخطيئة، ومن الوالد والوالدة والولد والسلامة من الشريك. ولذا فالسلامة بالنسبة للخليفة هي: البراءة والنجاة والستر والأمن والطمأنينة والمخافة من العذاب. والسلام جلّ جلاله معناه "هو الذي سلمت ذاته وصفاته وأفعاله من كل ما لا يليق بكماله" 291.

قال تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا} 292. السلام عنوان عام لكل من يريد أن يكون مسلماً، وخاص بالذين أسلموا وجههم لله تعالى. ولذا في أساس السلام التعميم دون التخصيص، وبالإرادة يكون التخصيص سابق على التعميم.

السلام اسم لله تعالى، ومصدراً للسلامة، ومبعثاً للإسلام، وشعاراً للمسالمة، وتحية للمسلمين، ومفتاح آمناً لأهل الجنة {أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ} 293. أي أدخلوا الجنة وأنتم مطمئنون فلن يصاحبكم بعد اليوم حزناً ولا خوفاً ولا ألم ولا محمصة ولا يرهقكم ذلاً. فادخلوها بسلام آمنين تحمل في مدلولها مصاحبة السلام للداخلين إلى الجنة، أي أدخلوها بقوة السلام جلّ جلاله فهي لكم وأنتم إليها. اللهم اجعلنا من الداخلين إليها بسلام آمنين.

قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا

291 أحمد عبد الجواد والله الأسماء الحسنى فادعوه بما. الدار البيضاء. دار الثقافة ص 37.

292 الأحزاب 44.

293 الحجر 46.

خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ
الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {294}.

السَّلام في هذه الآية سلام استقبال لأهل الجنَّة، فخزنة الجنَّة هم
الذين قالوا السَّلام على أهلها، وذلك وفقا للقاعدة: (السَّلام المطلق
لغة أهل الجنَّة) ولذا فإن الجنَّة مملوءة بالسَّلام الكامل، ولا حيز للفراغ
في غير ذلك.

وتتضمن الآيتان السابقتان مدلولاً قيميا يربط دخول الجنَّة
بالسَّلام مع من ورثوا الأرض، ولهذا فكانت الوراثة مرتين:

الأولى وريثة الأرض بقول الحقّ وفعل الحقّ فيها، أي بأقوال وأفعال
الخير في الحياة الدنيا.

والثانية: بالجزاء الأوفر لمن فعل الخير في حياته الدنيا. ولذا فمن
يريد أن يكون من وريثة جنت النعيم فعليه بأفعال الخير في الحياة
الدنيا.

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله
صلّى الله عليه وسلّم: "لا تدخلوا الجنّة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى
تحابوا، ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلام
بينكم"295. فأفشوا السَّلام بينكم أي تمسكوا بالقاعدة وهي:
(مطلقية السَّلام) وهي كما سبق أن بينا أن السَّلام جاء للعامة ولا
تخصيص فيه، وعلى ذلك يترتب أمران:

294 الزمر 73، 74.

295 صحيح مسلم مجلد 1 ص 53.

الأمر الأوّل: بما أن القاعدة السّلام عام، إذن كل من يريد أن يعمل عليه فهو في دائرة الممكن، وهذا الأمر هو الذي يجعله وكأنه في دائرة التخصيص. وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ 296

الأمر الثاني: وفقا لقاعدة مطلقية السّلام، فالاستثناء لا يلحق أحدا إلا إذا هذا الأحد استثناء نفسه من الأخذ بمعطيات السّلام. وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ 297.

السّلام صفة سرمدية أخص بها الله ذاته العلية، التي لم يكن من بين صفاتها ما يؤدّي إلى ظلم، ولهذا وصف نفسه بالسّلام والعدل، وبما أنه لا وجود لأي صفة من صفات الظلم في ذاته، لذا فالسّلام هو الصفة الباقية بين الراغبين فيها وصفة دائمة لأصحاب الجنة. ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ 298.

قال الإمام الغزالي: "السّلام هو الذي تسلم ذاته من العيوب، وصفاته من النقص، وأفعاله من الشر، حتى إذا كان كذلك لم يكن في الوجود سلامة إلا وكانت معزية إليه صادرة منه، وقال: لقد فهمت أن أفعاله تعالى سالمة من الشر" 299 ولأن أفعاله سالمة من الشر فهو لم يظلم أحدا، ولأنّ الظلم لم يكن صفة من صفاتها جاء السّلام والعدل صفتين مطلقتين فالحمد لله الرّحمن الرّحيم الملك القدوس السّلام.

296 الأنعام 54.

297 النساء 173.

298 النحل 118.

299 صحيح مسلم مجلد 2 ص 94.

ولأنّ السّلام الحقّ، فإنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا أراد أن ينصرف من صلاته أستغفر ثلاثة مرات ثم قال: "اللهم أنت السّلام ومنك السّلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام"300.

ولأنّ السّلام في أساسه المطلقية، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: اللهم أنت السّلام ومنك السّلام، ولم يقل أنت السّلام ومنك السّلام، ولذا فهو استمد مضمون الشيء كما هو عليه، ولم يستمد ما يُشتق منه. وذلك لأن الرّسول صلّى الله عليه وسلّم جاء بالرسالة الخاتمة للناس كافة. ولأنه في مخاطبة مع الله تعالى، فقال له أنت السّلام جلّ جلاله. ومنك السّلام في اعتقادي أنّها تدل على الدين. ولهذا فإن الدين الحقّ هو عند الله الإسلام { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ } 301 وقال تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ) ولأنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم اصطفاه الله تعالى، وكلفه بالرسالة الخاتمة للناس كافة، فبعد أن عرف مهمته الإلهية، عرف أن مهمته هي السّلام أي (إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل). ولذا فمن خلال قوله (أنت السّلام ومنك السّلام) عرفنا أنه الملمم بالأمر الذي أنزل عليه والذي فهمناه من خلال المخاطبة منك السّلام بأنه يعني الدين الخاتمة للناس كافة.

وعليه فإنّ السّلام في الدار الدنيا يرتكز على الآتي:

1 . التوحيد وعدم الشرك به تعالى: ولأنّ الله واحد أحد، إذن لماذا الادعاء بأنه ثالث ثلاثة؟ ألا يُعد هذا القول هو إشعال نار فتنة؟

³⁰⁰ المصدر السابق ص 94.

³⁰¹ آل عمران 19.

ولأَنَّهُ كَذَلِكَ فِإِنَّهُ الْمَخِجَلِّ بِمَحَقَّقَاتِ السَّلَامِ. ولذا قال تعالى: { وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ } 302

2 . الإيمان بأَنبيائه ورسله دون أن نفرِّق بينهم: { لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } 303 وقال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } 304 اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد صلاة تامة تجمع الصلاة والتسليم على جميع أنبيائك ورسلك من أقصت علينا ومن لم تقصص. لذا لو لم يكن التفريق بين رُسُله ما كان الاختلاف بين الذين بُعث فيهم الأنبياء والرُّسل، ولو كان الإيمان بهم لكان السَّلَام هو القيمة السائدة بين النَّاس، ولم يكن السَّلَام ثالث ثلاثة كما يدع الجاهلون.

3 . التسليم بأوامره ونواهيهِ: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } 305 فلو كان التسليم بالحق ما كان الاختلاف سائدا بين مؤمن وكافر، فسيادة الخلاف بين من يراد لهم أن يكونوا هم خلفاء في الأرض هو الذي أوجد الفساد فيها بدلا من سيادة السَّلَام بين من يتعلق الأمر بهم.

4 . طاعة الوالدين في غير معصية الله تعالى: { وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاحْفَظْ

302 آل عمران 17.

303 البقرة 285.

304 الأحزاب 56.

305 الحشر 7.

لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا {306
 السَّلام يبدأ أول ما يبدأ بسيادة المحبة بين أفراد الأسرة، التي فيها تُقدَّر
 الزبجة والأبوة والأمومة والأخوة والعمومة وذوي القربى، وعندما تنعدم
 هذه القيم أو تضعف يحل الشقاق والانفصال والطلاق محلها، وهذه
 الأمور هي التي تجعل السَّلام نسبيًا بين المستخلفين في الأرض الذين
 منهم من غفل عنه ومنه من يتغافل ممَّا جعلهم من الظالمين لأنفسهم
 ولذي العلاقة بهم.

5. العمل على إحقاق الحقِّ وقوله ومناصرة أصحابه: {وَلْتَكُنْ
 مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} {307 وقوله تعالى: {وَإِنْ
 اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ
 وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} {308. إن انعدام قول الحقِّ وفعل الحقِّ هو
 الذي جعل الشقاق والفراق بين من ينبغي أن تكون بينهم المحبة
 والوحدة.

6. تجنب النواهي: {إِنْ بَحْتَبْتُمْ كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ
 سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا} {309 وقوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي
 كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ
 وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ} {310 وقوله تعالى: {فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ

306 الإسراء 23، 24.

307 آل عمران 104، 105.

308 الأنفال 72.

309 النساء 31.

310 النحل 36.

وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} 311 وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَحْسَبُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ} 312 القرب من المفسدات فعل تخريبي، وغير إنساني، ويؤدّي إلى الضرر، وهذه أسباب لتفشي الفساد على حساب سيادة السّلام بين النّاس. ولهذا لا يمكن أن يسود السّلام إلا بتجنب ما نهى عنه الله تعالى.

7 . الابتعاد عن المحرمات: { إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} 313 وقوله تعالى: { قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 314. كل المحرمات التي حرمها الله تعالى هي التي فيها تكمن العلل المفسدة لتحقيق السّلام، ولذلك الالتزام بما أمر الله بالإقدام عليه حلالا طيبا، أو بتحريمه قطعاً هو الذي يحقّق السّلام بين بني آدم عليه الصّلاة والسّلام.

8 . العدل بين المحتكمين: { وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} 315 قال إذا حكمتم بين النّاس، ولم يقل إذا حكمتم النّاس، فالفرق كبير بين حُكم النّاس، وبين الحكم بينهم عدلا فيما هم

276 الحج 30

312 الحجرات 12.

313 المائدة 72.

314 الأعراف 32، 33.

315 . النساء 58.

فيه يختلفون، فإذا ارتضوا الناس من يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون فيجب أن يحكم بينهم من اختاروه حكما عدلا، وإذا انحاز لطائفة أو فئة أو جماعة، فإنه سيكون من الذين يوقدون نار الفتنة وله عذاب أليم من رب العالمين.

أما أولئك الذين يحكمون الناس فهؤلاء لا تعنيهم هذه الآية في شيء، ولم يجد نصا يستوجب حكمهم للناس.

إن الذين يعتقدون في تفسيرات البعض فهذه التفسيرات لم تكن مطلقة، فقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } 316. الطاعة جاءت طاعتين:

أ. طاعة مطلقة لله والرَّسُولِ.

ب. طاعة نسبية لأولي الأمر من الذين يتعلق الأمر بهم. ولهذا قال تعالى: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرَّسُولِ) ولهذا تم استثناء أولي الأمر منكم.

وأولي الأمر منكم، لم يكونوا هم أولي أمرنا، ولذلك لم يقل عز وجل أولي أمركم، بل قال أولي الأمر منكم. ويقصد بذلك الذين تختاروهم لأن يسيروا أموركم التي تتعلق بممارسة حقوقكم وتادية واجباتكم، وحمل مسؤوليتكم، ولذا فإن أولي الأمر منكم هم الذين يتم اختيارهم إراديا من قبل الذين يتعلق الأمر بهم، سواء كان هذا الأمر سياسة داخلية أو خارجية، أو أمر سلم أو حرب، أو ما كان متعلقا بالحاجات ومشبعاتها المحققة للسلام لهم ولمن تربطه بهم علاقة.

والسبب الداعي لطاعة أولي الأمر منكم، واجبة فيما يتعلق بالتزامهم بالأمر الموكل إليهم، ولا طاعة لهم إن خالفوا الأمر الذي يستوجب طاعته من قبل الذي قرر واختار من يرى أنه مناسباً لأن يتولى المسؤوليات الجسام المتعلقة بهذا الأمر.

9 . المعاملة بالمثل: {فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} 317 وقال تعالى: {وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} 318. المعاملة بالمثل أو المعاملة بما هو أفضل تؤدي إلى نيل الاحترام والتقدير من قبل المعنيين بالأمر إن كانوا يعتبرون، وكذلك من قبل المحايدين الذين ليس لهم في الانحياز.

10 . العفو عند المقدرة: {وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 319 وقوله تعالى: {وَأَنْ تَعَفُّوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ} 320. العفو والصفح والغفران تُعد قيم رحمة بين الناس، وهي التي كلما سادت بينهم ساد السلام. وكلما انعدمت حل محلها الطغيان والفساد وسفك الدماء بغير حق. ولذلك فمن يريد العفو والصفح والمغفرة من الله تعالى فعليه بها مع من تستوجب في الدار الدنيا، وعليه بالعمل على تعميم الفضل وتقديمه لمن هم في حاجة إليه.

³¹⁷ البقرة 194، 195.

³¹⁸ النساء 86.

³¹⁹ التغابن 14.

³²⁰ البقرة 237.

ولو لم يكن السّلام صفة من صفات الله تعالى لكانت الشقاوة
فيها إلى يوم يبعثون، فالحمد له تعالى الذي جعل في أنفسنا الرحمة،
وجعل بيننا المحبة والألفة { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ خَبِيرٌ } 321.

قال تعالى: { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا } 322. جاء الكيد
في هاتين الآيتين الكرمتين على صفتين:

الصفة الأولى للفساد في الأرض. ولذا فهي تتعلق بكيد البعض
من أهل مكة لإطفاء نوره تعالى، وهذا كيد ضعيف أمام كيد القوي.

الصفة الثانية للسلام في الأرض، هي كيد الله تعالى لكيد الكفرة
من أهل مكة الذي به يريد الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ولهذا
فكيد الكفرة يتمركز على ما يقوموا به من عراقيل في سبيل منع إعلاء
كلمة الحق، من خصومات وصدامات وتزوير للحقائق مع المسلمين
في فجر الإسلام. أما كيد الله فكان لكيد الكفرة الذي به يتم إبطال
كل ما من شأنه أن يعيق تقدم انتشار الإسلام وفي هذا الأمر قال الله
تعالى: { وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } 323.

وبناء على ما تقدم فإننا نتفق مع ما قاله الدكتور الصلابي في
تمائل السّلام والقدّوس وذلك بتضمنهما للكمال المطلق "القدوس
كالسّلام ينفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال
المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفي، ثبت الكمال

321 الحجرات 13.

322 الطارق 15، 16.

323 التوبة 32.

كله"324 وصدق الله تعالى وهو خير قائل: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأْتَمًا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}325.

وقوله تعالى: {وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}326.

وعليه السَّلَام اسم من أسماء الله تعالى وصفة من صفاته، وهو من الأسماء التي تعود إلى تنزيه الخالق سبحانه عن مشابحة الحوادث، وهي: (السَّلَام، القدوس، الغني، الصمد، الأول، الآخر، الباقي) ف (السَّلَام) ذو السَّلَامَة من كل نقص في ذاته وصفاته وأفعاله فهو سالم سبحانه من كل مالا يجتمع عقلا مع معنى الألوهية والرَّبوبية، كمشابحة الحوادث ومعلوم أن كل ما عدا الله تعالى ناقص في ذاته وصفاته وأفعاله، لذا: فلا يمكن أن يكون بينه وبين الله تعالى مشابحة حَقِيقية، ولو في وجه من الوجوه، أو جزء من الأجزاء، ومخالفة الحوادث معناها: أن الله تعالى ليس مُمَثِّلا لشيء من الحوادث الموجودة والمعدومة مطلقا، فهي عبارة عن سلب الجريمة، والعرضية، والكلية، والجزئية، ولوازمها عنه تعالى فلازم الجريمة هو التحيز، ولازم العرضية هو القيام بالغير، ولازم الكلية هو الكبر، ولازم الجزئية هو الصغر. وضدها الممثلة للحوادث.

أما الدليل العقلي على ذلك فهو:

324 على محمد الصلابي من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين. بيروت. دار المعرفة الطبعة

الأولى 2005 ص 188.

325 الأنعام 125.

326 الصافات 182.

1 . أنه تعالى لو لم يكن مخالفا للحوادث لكان ممثلا لها، ولو كان ممثلا للحوادث لكان حادثا مثلها، ولو كان حادثا لاحتاج إلى محدث، ومحدث يحتاج إلى محدث وهكذا فيلزم الدور أو التسلسل، وكلاهما باطل فتثبت مخالفته للحوادث.

2 . كل من وجب له القدم، استحال عليه العدم، ولا شيء من الحوادث يستحيل عليه العدم، فلا شيء منها بتقديم فتثبت المخالفة.

قال تعالى: { فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } 327 فالله تعالى لا يشبهه ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسماءه كلها حسنى، وصفاته صفة كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثل شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه. 328

اسم الله تعالى (السلام) يحمل في ثنياته كل ما ينزه الله تبارك وتعالى، ويفرد له صفات الكمال، فكل صفة سلاما ممّا يضاد كمالها. فمن خلال الثنائيات المتحققة للبشر يتبين من خلالها خاصية اسم (السلام) كثنائية الحياة والموت والعلم وعدمه والصدق والكذب والعدل والظلم وغيرها من الثنائيات، هذه الثنائيات وغيرها خلقها الله تبارك وتعالى وجعلها تشكلا من تشكلات خلقه، لتمثل دلالة تشير إلى قدرته وعظمته.

327 - الشورى 11

328 - أصول الدين الإسلامي د رشدي عليان ود قحطان عبد الرحمن الدوري ج 1 ص 106

فمن بين هذه الثنائيات:

الموت - الحياة:

تحدث النص القرآني عنها في مختلف المجالات الفكرية، ومن خلال أشكال تعبيرية متنوعة. فالله تعالى هو الذي خلق الموت والحياة، يقول تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَقُورُ} {329}، والله تعالى بحكم ألوهيته للكون كله وخلقته للحياة والموت، هو الذي بيده وهب الحياة وعدمها بالموت، يقول تعالى: {وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا} {330} ولا أحد من خلق الله تعالى يملك قدرة الإحياء والإماتة، يقول تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا} {331} فكل السياقات التي وردت تشير إلى أن خالق الحياة والموت هو الله تعالى، إذ يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} {332} فالموت هو النهاية الطبيعية لكل حي، فالخالق هو المالك لهما في الوقت نفسه، فضلا عن ذلك أن ثنائية الحياة والموت تنزه الله تعالى عن الموت وتثبت له صفة الحياة، إذ يقول تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ} {333} كلكم لا بد أن يموت فهي النهاية الحتمية لكل البشر فليس هنا أحد خالد، يقول تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ

329 - الملك 2

330 - النجم 44

331 - الفرقان 3

332 - آل عمران 185

333 - الزمر 30 - 31

نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ {334}

فالآية هنا جاءت في إثبات البعث، فجمعت الآية الموت والحياة والنشر. وكلها تقلبات كل واحدة تحيل على الأخرى للوصول إلى يوم القيامة المتحققة فيه صورة الخلود الدائم لله تعالى، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} {335} والسؤال هنا يرد ومعه الإجابة، والإجابة هي من الله تعالى، وليس هناك من أحد مجيب لأن الجميع أموات فلا يصدر عنهم شيء. وقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} {336} هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى تحقق الناس موته، مع قوله: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} {337} فسياقات الموت كلها تشير إلى ثبات صفة الحي لله تعالى، فضلا عن ذلك أن القرآن الكريم صور لنا صورتين متقابلتين للموت، إحداهما تمثل موتا للمؤمنين بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام، حينها يكون الموت أجمل من الحياة الدنيا، إذ يقول تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} {338} فالموت وإن كان هنا قتلا فهو حياة أخرى لا نعلم حقيقتها، لذا قال تعالى في موضع آخر: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} {339} أي أنها

334 - الأنبياء 34، 35

335 - غافر 16

336 - الزمر 30

337 - آل عمران 144

338 - البقرة 154

339 - آل عمران 169

حياة خاصة لذا قال - عند ربهم - تأكيداً على أنها غير حياتنا الدنيا. وليس هناك من سبيل للوصول إلى الحياة الأخرى عند الله تعالى إلا بالموت، الذي يعني في ظاهره الفناء وفي دلالاته القرآنية الخلود والبقاء، ولهذا مَنْ الله تعالى به على عباده كما مَنْ بالحياة والرزق، فقال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} 340.

أما غير المؤمنين فقد رسم لنا القرآن الكريم صورة مخيفة لموتهم وما يلقونه في هذا الموت من عذاب وشدائد، فقال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ} 341 والمشهد الذي يرسمه السياق في جزاء هؤلاء الظالمين {أي المشركين} مشهد مفزع مرعب مكروب مرهوب. الظالمون في غمرات الموت وسكراته - ولفظ غمرات يلقي ظله المكروب - والملائكة يسطون إليهم أيديهم بالعذاب، وهم يطلبون أرواحهم للخروج وكله مما يضفي على المشهد ظلالاً مكروبة، تأخذ بالحناق من الهول والكآبة والضيق! 342 هذا الموت هو الذي هدد به القرآن المشركين والكافرين من العرب، لأنهم كانوا يرهبونهم وما فكرة الطلل البالي إلا تعبير دقيق عن إدراك مفهوم الموت لديهم من خلال متغيرات الزمان والمكان. قال تعالى مشخفاً الموت: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ

340 - الروم 40

341 - الأنعام 93

342 - في ظلال القرآن، ج 3، ص 100

مَلَائِكِكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} 343. إنَّ القرآنَ يضيفُ سمةَ الحياةِ على الموتِ فيجعله كائناً حياً يفر منه الظالمون ظناً منهم أنهم ناجون منه، فيصدمهم القرآن بالحقيقة الواقعة أنه - ملائكتكم - أينما كنتم!

العلم وعدمه:

هذه الثنائية ارتسمت بدايتها من خلق آدم عليه الصلّاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 344 فسياق الآية ارتكز على (أعلم) التي رسمت صورة العلم المطلق لله تعالى الذي لا يصل إليه أحد مهما كانت منزلته حتى الرسول عليه الصلّاة والسلام، يقول تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 345 فضلاً عن ذلك أنّ من الخطابات التي وردت على لسان الرسول عليه الصلّاة والسلام تحيل إلى بيان علم الله الواسع الذي لا يعرفه أحد إلا الله تعالى، يقول تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} 346 وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا

343 - الجمعة 8

344 - البقرة 30

345 - الأعراف 188

346 - الأنعام 50

يَسْتَفْقِدُونَ} 347 ويتجلى علم الله في الإتقان العجيب، والإحكام الغريب، في هذا الكون الكبير، كما أن ما يجري فيه بالتسلسل والتتابع، يجري وفق تنظيم رائع لارتجال فيه، ولا مصادفة، والنظرة إلى النفس الإنسانية نجد فيها قابلية للعلم والمعرفة، وهي مخلوقة من ضعف، عرفنا أنّ صفة العلم فيها من صفات الكمال، وأن صفة الجهل وعدم المعرفة من صفات النقص. والخالق العظيم الذي أتقن خلق الكون وأحكمه، وخلق هذا الإنسان القابل للعلم والمعرفة، لا بدّ أن يكون هو بذاته عليماً خبيراً، لا تخفي عليه خافيه، ولذلك صدر عنه هذا الإتقان البديع، والإحكام الكامل، والدقة البالغة، في كل مخلوق من مخلوقاته، يقول تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ بَلِ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ} 348. والله تعالى وصف نفسه في القرآن الكريم بأنه عليم خبير، وبأنه محيط بكل شيء علماً، إذ يقول عزّ وجلّ: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 349 وقوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} 350 كما ارتسمت إحاطة الله تعالى بالعلم في آية الكرسي، وهي آية عظيمة، اشتملت على عشر جمل مستقلة، يقول تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ

347 - يونس 49

348 - النمل 65، 66

349 - الأنعام 59

350 - سبأ 3

لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} 351 ففي قوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} أي لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علم الله إلا ما علمه الله، وأطلعته عليه، وأذن له به. ولا يعرف إذنه تعالى إلا بوحي منه.

العدل - الظلم:

العدل في اللغة أنه ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور، وفي أسماء الله سبحانه العدل هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم 352 وورد في القرآن الكريم بصيغ الأمر الدالة على وجوب تحقيقه، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} 353 يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبر والفاجر، والولي والعدو. والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به هو ما شرعه الله على لسان رسوله من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل ليحكم به، وهنا الإحالة تكون إلى العلم فلا يكون هناك عدل دون وجود معرفة واضحة بأحكام الله تعالى التي أرادها لعباده، فالمعرفة واجبة كي يتحقق العدل المطلوب. وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ

351 - البقرة 255

352 - لسان العرب، ج 11 ص، 430

353 - النساء 58

يَعْظُمُ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 354 فالعدل المتحقق يكون أولا في ذات المسلم يقول تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} 355 فضلا عن ذلك يكون أيضا مع بقية الخلق، يقول تعالى: {وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمُ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 356.

أما يوم القيامة فهو بطبيعة الحال يمثل عملية حساب لكل دون تفریق، وأن الإنسان لا بد أن يأخذ جزاءه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، لتجزى كل نفس بما تسعى، ويتحقق العدل الإلهي، قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 357 وتتجلى العدالة الإلهية يوم القيامة بالفصل بين الخلائق، فالمحاسبة تكون من قبل الله تعالى، يقول تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ} 358.

السياق هنا يستعرض عدالة الله تعالى للخلق أجمعين، والله تعالى يضع الموازين العادلة، التي توزن بها الحسنات والسيئات، فلا ظلم بينهم سواء أكانت النفس مؤمنة أم كافرة، فلا تنقص الحسنات ولا تزداد السيئات، كلا حسب عمله واستحقاقه، (وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) يعني بذلك نفسه الكريمة فكفي به حاسبا أي عالما بأعمال العباد

354 - النحل 90

355 - البقرة 195

356 - الأنعام 152

357 - الزلزلة 7، 8

358 - الأنبياء 47

حافظا لها مثبتا لها في الكتاب عالما بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها موصلا للعمال جزاءها، فكل عمل وكل كلام مدون أمام الكل، يجدونه أمامهم، إذ يقول تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} 359 فضلا عن ذلك أن المحاسبة يوم القيامة تطلب من الإنسان نفسه، مما يحيل ذلك على العدالة المطلقة لرب العالمين، يقول تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} 360.

حقيقية لفظ السلام:

قال ابن القيم: حقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها فمن ذلك، قولك: سلمك الله وسلم فلان من الشر. ومنه دعاء المؤمنين على الصراط رب سلم اللهم سلم 361. ومنه سلم الشيء لفلان. أي: خلص له وحده، فخلص من ضرر الشركة فيها، قال تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} 362 أي: خالصا له وحده لا يملكه معه غيره.

ومنه السلم ضد الحرب، قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 363 لان كل من

359 - الكهف 49

360 - الإسراء 13، 14

361 - صحيح البخاري جزء من الحديث، ج 20، ص 238

362 - الزمر 29

363 - الأنفال 61

المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر ولهذا يبنى منه على المفاعلة.
فيقال: المسالمة مثل المشاركة.

ومنه القلب السليم وهو النقي من الغل. وحقيقته الذي قد سلم
لله وحده فخلص من دغل الشرك وغله ودغل الذنوب والمخلفات.
بل وهو المستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته. فهذا هو الذي
ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته.

ومنه أخذ الإسلام فائه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد
لله، والتخلص من شوائب الشرك فسلم لربه، وخلص له كالعبد الذي
سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون؛ ولهذا ضرب سبحانه هذين
المثلين للمسلم والمخلص الخالص لربه والمؤمن به.

ودور الخليفة في تجليات اسم (السلام) إفشاء السلام بين عباد
الله، فهو من الخصال الحميدة، فمن خلال استذكار أهم الأحداث
التي كان للسلام فيها حضور واضح نذكر قول الله تعالى: {وَلَقَدْ
جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ
جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ
خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْفَ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْت
فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} 364 إن طريقة
السلام هنا جاءت في حالة حركة من الملائكة، فما أجدد أن يأتي
سلامهم بصورة تنبئ بالفعلية التي تعكس الحركة! أما سلام إبراهيم
عليه الصلاة والسلام فقد جاء مبتدأً محذوف الخبر، فهو بالصورة
الاسمية التي توحى بالثبات الذي هو فيه أثناء دخولهم عليه. فضلا عن
ذلك أن الرفع فيه تناسي معنى الفعل فهو أدل على الدوام والثبات.

ولذلك خالف بينهما للدلالة على أنّ إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام ردّ
السّلام بعبارة أحسن من عبارة الرّسل زيادة في الإكرام 365.

للحديث عن اسم الله تعالى (السّلام) يحيلنا إلى قصة إبراهيم عليه
الصلّاة والسّلام، وتحديدًا في قوله تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ
كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا
لِلْعَالَمِينَ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} 366
إن اقتراح قتل إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام جاء عارضا لكن الإصرار
كان على تحريقه، رغم أن القتل لا يحتاج من الجهد ما يحتاج إليه
التحريق! ولكن لماذا بنى له قومه بنيانا يحرقوه فيه؛ هذا التساؤل يحيلنا
إلى أمرين: الأمر الأوّل: أن فعل إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام لم يكن
صغيرا بالنسبة إلى قومه، فتكسير الأصنام يعد أمرا عظيما وخرقا
 لعبادة الآباء والأجداد، إذ يقول تعالى: {إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ
التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ هَاهُنَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا هَاهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ
كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} 367.

الأمر الثاني: فهو بيان عظمة الله تعالى وسلامه الدائم لعباده
المطيعين المتشبثين بدينه مع كل الصعوبات والحن التي يتعرضون لها،
قال تعالى: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ
الْمُؤْمِنِينَ} 368 وصورة الحرق غير المتحققة لإبراهيم عليه الصلّاة
والسّلام، والمتحققة في هيئتها لمن يرمى فيها، ترسم عظم البارئ جلّ

365 - التحرير والتنوير، ج 7، ص 168

366 - الأنبياء 68 - 72

367 - الأنبياء 52 - 54

368 - يونس 103

جلاله وحفظه لإبراهيم عليه الصلّاة والسّلام، فضلا عن ذلك أن النجاة المتحقّقة هنا رسمت أبعادا معرفية للنص وخاصة في لفظة (سلاما) التي تعد المركز في عملية النجاة. وذكّر (سلاما) بعد ذكر البرد كالاحتراس لأن البرد مؤذ بدوامه ربما إذا اشتد، فعُقب ذكره بذكر السّلام لذلك. وعن ابن عباس: لو لم يقل ذلك لأهلكته ببردّها. وإنما ذكر (بردا) ثمّ أتبع ب (سلاما) ولم يقتصر على (بردا) لإظهار عجب صنع القدرة إذ صيّر النّار بردا369.

أما قصة يونس عليه الصلّاة والسّلام، فهي صورة من صور السّلام المتحقّق، الدال على الحفظ الرّباني في مكان يتسم بظروف غريبة غير متوقّعة ولا تدرك حتى التفكير فيها مستبعد، يقول تعالى: {وَدَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ} 370 وهنا النص يركز على لفظة (الظلمات)، والظلام هنا متعدد، بطن الحوت ظلمه، والبحر ظلمه، والظلام في ذاته صورة مرعبة يرافقها صوت بطن الحوت، وصوت البحر بما فيه، تشكلات مختلفة، وكلها تحيل إلى هلاك متحقّق إلا أنّ قدرة الله تعالى وعظمته تحيل الهلاك المتحقّق إلى صورة تخيلية فقط عند ذكر بطن الحوت مع وجود إنسان بداخلها، وتحقّقت النجاة وخرج يونس عليه الصلّاة والسّلام من بطن الحوت، إلا أنّ وضعه بعد الخروج اختلف اختلافا جذريا نتيجة ما حصل له داخل بطن الحوت، فكان كالفرخ المتوف ليس عليه شعر ولا جلد ومع ذلك كان فضله عليه كبيرا، وصورته هذه يتبين منها التحول

369 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 182

370 - الأنبياء 87، 88

الموصل إلى الموت في حالة البقاء في بطن الحوت، إلا أنّ حفظ الله تعالى كان سباقاً له، وتلك رحمة من الله تعالى يمن بها على عباده الصالحين المستخلفين في الأرض، يقول تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَبْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ} 371.

يرتبط اسم الله تعالى (السّلام) بأمر مهم تجلت فيه رحمة الله تعالى ألا وهو إرسال الرّسل، وإرسال الرّسل كان بحكمة من الله تعالى لما آل إليه الخلق من معاصي وذنوب وتجاوز على الله تعالى، ومهمة الرّسل اقتضت تعريف النّاس بمعبودهم الحقّ، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، إذ يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} 372 وقوله تعالى: {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ} 373 هنا كانت بداية الدعوة إلى الله تعالى مع نوح عليه الصّلاة والسّلام، لا بدّ من التّغيير، لا بدّ من الوقوف على الخطأ كي يصحح، لا بدّ من تغيير العقول وردم الهوة الفاصلة بينها وبين الحقّ، لا بدّ من التحذير حتى لا يقع المحذور. ويتبع عبادة الله تعالى إقامة الدين والنهي عن التفرق فيه، يقول تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} 374 ثم يتبعه التبشير والإنذار، يقول تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

371 - الأنبياء 88

372 - الأعراف 59

373 - الأعراف 65

374 - الشورى 13

بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {375} وتبشير الرسل وإنذارهم دنيوي وأخروي، فهم في الدنيا يبشرون الطائعين بالحياة الطيبة، يقول تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {376}، ويحذرونهم العذاب والهلاك الدنيوي يقول تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ} {377}. وفي الآخرة يبشرون الطائعين بالجنة ونعيمها يقول تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} {378}. وكل هذه الخطوات المتحققة غايتها السلامة للخلق أجمعين، للفوز بالجنة والنجاة من النار، يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ} {379}.

وعليه الفوز بالجنة والنجاة من النار سلام، وفي حفظ الله ورعايته السلام، وفي هيمنته وورقه السلام، وفي ملكه ورحمته السلام، وفي عدله وحكمه وحكمته السلام، وفي إحيائه وإماتته وبعثه السلام.

وعليه فإنّ إبلاغ موسى وهارون لفرعون بأتهما جاءا للهداية سلاما، فهما قد أظهرتا له حسن النية والغاية من الهداية، ولهذا

375 - البقرة 213

376 - النحل 97

377 - فصلت 13

378 - النساء 13

379 - آل عمران 185

فالسّلام دائما هو أفضل سلاح لفك الفتيل، وللعفو والتسامح وإحقاق الحقّ ونشر العدالة، (جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسّلام عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى).

هذه الآيات الكريمة نسجت صورة عظيمة ارتكزت على قوله تعالى: { قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسّلام عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى } 380؛ فهذا الأمر يفتح لنا هنا ملفا معرفيا يتشكل فيه ثبات المؤمن، فضلا عن ذلك الجانب النفسي الذي يكسب المؤمن الثقة العالية في مواجهة كل ما هو متوقّع وغير متوقّع. وغير المتوقّع هو ما حصل للنبي يونس عليه الصّلاة والسّلام، إذ يقول تعالى: { وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِثَّةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُونَ فَاْمُنُوا فَامْتَنَّاهُمْ إِلَى حِينٍ } 381 وهذا ثناء منه تعالى، على عبده ورسوله، يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: (إِذْ أَبَقَ) أي: من ربه مغاضبا له، ظاننا أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما أغضبه عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، تكريما لنبي الله يونس، وإنما دُكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرّسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقبض له ما هو سبب صلاحه.

380 طه 46، 47.

381 - الصافات 139 - 148.

فلما أبق لجأ (إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ) بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن من قرع وغلب، ألقى في البحر عدلا من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمرا هيا أسبابه. فلما (اقترعوا) أصابت القرعة يونس (فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) أي: المغلوبين. فألقى في البحر (فَأَلْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ) وقت النقامه (مُؤَلِّمٌ) أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبه لربه. (فَقَوْلًا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ) أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه، وتسبيحه، وتحميده، فضلا عن ذلك قوله في بطن الحوت حيث قال: (لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) (لَلْبَيْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) أي: لكنت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين، عند وقوعهم في الشدائد 382. فكان هنا مقابلة غير المتوقع بأمرين، الأمر هو عبادة الله تعالى والإيمان به في كل الأوقات وبخاصة في أوقات الرخاء، أما الأمر الثاني فهو مواجهة الأمور الصعاب والعظام بالدعاء، ذلك لان الدعاء هو مخ العبادة أو هو العبادة، وبذلك يكتسب المؤمن قوّة تحصنه وتعينه في حياته، فضلا عن ذلك أن كل الأمور التي يتعرض لها هي خير، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ" 383.

382 - السعدي، ج 1، ص 707.

383 - صحيح مسلم، ج 8، ص 227.

المتعالى جلّ جلاله هو المقصود فى الحوائج، فإذا توجه العبد إلى الله تعالى أصبح فى علو. فالعبد يقصد الله تعالى فى كل الأمور سواء أكانت الأمور دنيوية أم أخروية، ولهذا جاء الخطاب القرآنى وفق نص مفتوح لا يتقيد بأى شىء، ممّا يرسم صورة عظيمة للرحمة التى يريدّها الله تبارك وتعالى لعباده، إذ يقول تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 384 وقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} 385 فالعبد حين يطلب حاجته من الله تعالى يكون فى علو، لأنه يطلب الحاجة من المتعالى جلّ جلاله، فالتشكل هنا يكون وفق تحقّق صورة عظيمة، العبد يطلب من المتعالى العظيم جلّ جلاله ممّا يجعله فى حالة نفسية قوية، تفيض روحه بالتعالى المستمد من المتعالى جلّ جلاله.

والمتعالى جلّ جلاله متعالٍ فى كل شىء وفى أى شىء نفكر فيه، ممّا يجعلنا ندور فى حلقة مفرغة لا نصل إلى نتيجة تتفق مع علم الله تعالى بنفسه، ومن خلال النص القرآنى تتضح لنا صفة المتعالى فى عدة تشكلات منها:

1. المتعالى خارج قياس الحيز:

ورد فى النصّ القرآنى الكثير من النصوص التى تبين أنّ الله تعالى متعالٍ عن الحيز والجهة، ومن بين ما ورد قصة إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى

384 - البقرة 186.

385 - غافر 60.

الشَّمْسُ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي
 بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
 حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {386} إِنَّ الوجهة المتحققة هنا ليست
 توجيه وجه القلب إليه، لأنه متعال عن الحيز والجهة، بل توجيه وجه
 القلب إلى طاعته لأجل عبوديته، فترك كلمة «إلى» هنا والاكتفاء
 بحرف اللام دليل ظاهر على كون المعبود متعاليا عن الحيز
 والجهة 387.

والحيز يتحدد وله أبعاد، ويكتسب اتجاهات أربعة شمال، جنوب،
 شرق، غرب، وهذا كله لا يمد الله تعالى بأي صلة، فهو متعالٍ عن أي
 حيز أو جهة سبحانه.

2 - الله متعالٍ عن العقوبة:

والعقوبة إنما هي لإحفاق حقّ وإبطال باطل. والعقوبة وردت في
 الدين الإسلامي من أجل إعطاء كل ذي حقّ حقه، فضلا عن ذلك
 تكون حياة لكل الخلق، يقول تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا
 أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} 388 كلام في غاية الفصاحة والبلاغة
 من حيث جعل الشيء محلّ ضده، وعرف القصاص ونكر الحياة،
 ليدل على أن في هذا الجنس من الحكم نوع من الحياة عظيما، فالحياة
 لا بدّ أن يسودها الأمن والأمان من أجل أن يعيش الناس حياة طبيعية
 يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وهذه الأمور لا تتحقق
 إلا إذا نفذ القصاص بالخارجين عن القانون، ففي القصاص ارتداع
 للناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛

386 - الأنعام 76 - 79.

387 - تفسير الرازي، ج 6 ص 354.

388 - البقرة، 179.

لأن أشد ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، وذلك لأن العلم به يردع القاتل عن القتل، فيكون سبب حياة نفسين. ولأنهم كانوا يقتلون غير القاتل، والجماعة بالواحد، فتثور الفتنة بينهم. فإذا اقتصر من القاتل سلم الباقيون فيكون ذلك سببا لحياتهم. وعلى الأول فيه إضمار وعلى الثاني تخصيص. وقيل: المراد بها الحياة الأخروية، فإن القاتل إذا اقتصر منه في الدنيا لم يؤاخذ به في الآخرة³⁸⁹. فكل العقوبات التي وردت في النص القرآني والحديث النبوي تدل على أن الله سبحانه متعالٍ عنها، إنما وضعها تبارك وتعالى من أجل تنظيم أمور الحياة في كل تفاصيلها، وجعلها تسير ضمن نسق محدد واضح، فلا يحدث أي تجاوز أو خروج عن الحدود التي وضعها الله تبارك وتعالى، يقول جل شأنه: { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ }³⁹⁰.

3. الله تعالى متعالٍ عن الحاجة:

الله سبحانه وتعالى ليس في حاجة إلى أحد، بل الكل في حاجة له تبارك وتعالى، إذ يقول تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ }³⁹¹ الآيات الكريمة هنا تتشكل ضمن سياقين، السياق الأول: يبين الله تعالى فيه أن خلقه للجن والإنس هو من أجل

³⁸⁹ - البيضاوي، ج 1 ص 214.

³⁹⁰ - النساء 13 - 14.

³⁹¹ - الذاريات 56 - 59.

العبادة، وهذا السياق يفتح ملفا مهما يكون على أساسه الحساب الأخرى المتحقق في الآخرة، والعبادة لم تتحقق عند جميع الخلق، لأن الله تعالى أراد منهم أن يعبدوه مختارين لا مضطرين إليها، ولو أرادها على القسر والإجاء لوجدت من جميعهم. والعبادة المطلوبة هي عبادة الله تعالى، المتضمنة لمعرفته ومحبتته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

أما السياق الثاني وهو محور كلامنا في سياق الحاجة، فقولته تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾³⁹² فالله تعالى لا يريد منهم من رزق وما يريد أن يطمعوه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق، فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ) أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، (ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته، أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى، وعصفت بتراجم الرياح، وابتلعتهم

392 - الذاريات 57 - 59.

الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين 393.

ولنتقل إلى الحديث القدسي الذي يرسم صورة للمتعالى جلّ جلاله، إذ يتمحور على تشكيلات مختلفة كلها تنطق بقدرة وجلال المتعالى تبارك وتعالى، عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ "يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أَطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفِي قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفِي قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أَوْفِيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ حَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ. قَالَ سَعِيدٌ كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثًّا عَلَى رُكْبَتَيْهِ" 394. الحديث القدسي يفتح أمامنا الحاجة

393 - السعدي ج 1 ص 813.

394 - صحيح مسلم ج 8 ص 16.

ضمن وجهين، الوجه الأول وقد مر ذكره أن الله تعالى ليس في حاجة إلى أحد، حتى العبادة تبارك وتعالى ليس في حاجة إليها، فتحققها وعدم تحققها يعود إلى المخلوق، أي أن مصيره مرتبط بالعبادة، فمن كفر يكون مصيره من الداخلين إلى نار جهنم والعياذ بالله، إذ يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتَأَبُوا فِيهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ {395}.

أما من آمن فيكون مصيره من الخالدين في جنات النعيم ورضوان الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ {396}.

أما الوجه الثاني: أن الخلق أجمعين لو سألوا الله تعالى وأعطاهم ما يريدون لا ينقص من ملكه جلّ جلاله شيء، يقول تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ {397} وهذا الوجه يدخل في سياق الحديث عن ملك الله تعالى، فقد ورد في النص القرآني وفي كثير من المناسبات، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ

395 - الزمر 71 - 72.

396 - الزمر 73 - 74.

397 - النحل 96.

لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ} 398 هذه الآيات الكريمة تبدأ بأمر الملك، ففيه عرض لملك الله تعالى بما يحاكي العقل البشري، فضلا عن ذلك أن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته؛ ويشي وراءه من يد تدبره بحكمة، ويوحى بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة وحساب وجزاء إنما يدرك هذه الدلائل ويقرأ هذه الآيات ويرى هذه الحكمة، ويسمع هذه الإيحاءات (أولو الألباب) من الناس الذين لا يعمرون بهذا الكتاب المفتوح وبهذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين غير واعين!

وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هذا (الكون) والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة، وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبه من غاية وحكمة وقصد من جهة أخرى. وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الإنسان من الكون و(إله) الكون سبحانه وتعالى، فهي ركيزة من ركائز التصور الإسلامي للوجود.

يلي هذه الحقيقة في سياق الدرس استجابة الله (لأولي الألباب) وقد توجهوا إليه سبحانه بدعاء خاشع منيب؛ وهم يتدبرون كتاب الكون المفتوح، ويتأملون ما ينطق به من الآيات، وما يوحى به من

الغايات. استجابته لهم استجابة توجيهية إلى العمل والجهاد والتضحية والصبر، والنهوض بتكاليف هذا الإيمان، الذي ثابوا به من جولتهم الخاشعة في كتاب الكون المفتوح. مع التهوين من شأن الذين كفروا وما قد يستمتعون به من أعراض هذه الحياة. وإبراز القيم الباقية في الجزء الأخروي، التي ينبغي أن يحفل بها المؤمنون الأبرار³⁹⁹.

4. الله تعالى متعالٍ عن النقص:

النقص مفردة تتردد في سياق الحديث عن المخلوقين، أمّا الله تبارك وتعالى فله الكمال المطلق جلّ جلاله، وقد بين الله تعالى أنه أحقّ بالكمال من غيره وأن غيره لا يساويه في الكمال، إذ يقول تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ} 400 فالخلق صفة كمال وهي من الدلائل الدالة على وجود القادر الحكيم على الترتيب الأحسن والنظم الأكمل وكانت تلك الدلائل كما أنها كانت دلائل، فكذاك أيضا كانت شرحا وتفصيلا لأنواع نعم الله تعالى وأقسام إحسانه أتبعه بذكر إبطال عبادة غير الله تعالى والمقصود أنه لما دلت هذه الدلائل الباهرة، والبيّنات الزاهرة القاهرة على وجود إله قادر حكيم، وثبت أنه هو المولي لجميع هذه النعم والمعطي لكل هذه الخيرات فكيف يحسن في العقول الاشتغال بعبادة موجود سواه لا سيما إذا كان ذلك الموجود جمادا لا يفهم ولا يقدر، فلهذا الوجه قال بعد تلك الآيات: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) والمعنى: أفمن يخلق هذه الأشياء التي ذكرناها كمن لا يخلق بل لا يقدر البتة على شيء أفلا تذكرون فإن هذا القدر لا يحتاج إلى تدبر وتفكر ونظر. وبكفي فيه أن تتبها على ما في عقولكم من أن العبادة لا

399 - في ظلال القرآن، ج 2، ص 27.

400 - النحل 17.

تليق إلا بالمنعم الأعظم، وأنتم ترون في الشاهد إنسانا عاقلا فاهما ينعم بالنعمة العظيمة، ومع ذلك فتعلمون أنه يقبح عبادته فهذه الأصنام جمادات محضة، وليس لها فهم ولا قدرة ولا اختيار فكيف تقدمون على عبادتها، وكيف تجوزون الاشتغال بخدمتها وطاعتها⁴⁰¹.

والخلق صفة كمال، وأنّ الذي يخلق أفضل من الذي لا يخلق، وأن من عدل هذا بهذا فقد ظلم. يقول تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ممل} 402 هذا مثل ضربه الله تعالى للكافرين في إشراكهم بالله الأوثان والأصنام، والمثل بين عبد مملوك عاجز عن التصرف وبين رجل حر يملك مالا ينفق منه كيف يشاء، ويتصرف فيه كيف يريد، هذا المثل يحمل تبعات معرفية مترتب عليها تشكل ثنائي يحيل إلى كمال الله تعالى مقابل النقص المتحقق الذي مثله العبد المملوك العاجز عن التصرف، وهذه الثنائية ألغت التسوية بين الإله القادر وبين الأصنام التي لا تملك شيئاً، ولا تقدر على شيء. فبين أن كونه مملوكا عاجزا صفة نقص، وإن القدرة والملك والإحسان صفة كمال.

وقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 403 هذه هي سورة الإخلاص، سورة تعدل ثلث القرآن الكريم، وفيها جميع صفات الكمال لله تعالى، وفي الوقت نفسه فيها نفي لجميع صفات النقائص والعيوب. وهذه السورة الكريمة انحصرت فيها الصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة التي لا نظير

401 - الرازي، ج 9، ص 368.

402 - النحل 75.

403 - الإخلاص 1 - 4.

لها ولا مثيل. فالله تعالى هو الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) لكمال غناه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى، فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

وقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} {404} هذه أعظم آية في كتاب الله تعالى، إذ اشتملت على جانبين مهمين يتشكل منهما إثبات الكمال لله تبارك وتعالى، وهما النفي والإثبات، نفي النقائص عن الله تعالى، وإثبات الكمال لله عز وجل، ويتشكل النفي في قوله تعالى: (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) فالشفاعة أمر مهم جعله الله تبارك وتعالى خاصا لا يتحقق لأحد وإن كان من الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء أو الصالحين، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله تبارك وتعالى، وهنا تتشكل لنا صورة الكمال المتحققة لله تعالى، وفي الوقت نفسه السياق هنا في باب الرد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء بدون إذنه سبحانه وتعالى في ذلك، وزعموا أن هؤلاء الشفعاء يقومون بما يريدون منهم عند الله عز وجل، إذ يقول تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتِئْتُونَ اللَّهَ بِمَا

لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ {405.

5 . الله متعالٍ عن الظلم:

الظلم من المفردات التي تشكلت مع النسق المعرفي للبشر من آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة، فهي سمت بشرية متحققة بين البشر، وورد الظلم في النص القرآني في مواضع كثيرة وبمعاني مختلفة، ومن بين هذه المعاني إضافة الظلم إلى الكافرين ونفيه عن الله عز وجل، وكان ذلك في عشرة مواضع شكل منها الخطاب القرآني سمة نفي الظلم عن الله تعالى وإضافته إلى الكافرين، إذ يقول تعالى: {أَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} 406 وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} 407 وقوله تعالى: {فَكَرَّهَا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} 408 هنا السياق القرآني عمد إلى خلق صورة معرفية للظلم المتحقق، وكل الذين ذكروهم الله تعالى تتحقق ظلمهم على أنفسهم، فقد جاءتهم رسل الله بالبينات

405 - يونس 18.

406 - التوبة 70.

407 - الروم 9.

408 - العنكبوت 40.

والدلائل والبراهين، فصدوا عنها، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا وَرَبُّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} 409.

وقد نفي عن الله تعالى ظلم هؤلاء لأنَّ إيلاهم كان جزاء على أعمالهم وكل ما كان من نوع الجزاء يوصف بالعدل وقد نفي الله عن نفسه الوصف بالظلم فوجب الإيمان به سمعا لا عقلا في مقام الجزاء، وأما في مقام التكوين فلا. وظلمهم أنفسهم هو تسببهم في عذاب أنفسهم فجرُّوا إليها العقاب لأن النفس أولى الأشياء برأفة صاحبها بها وتفكيره في أسباب خيرها.

والاستدراك ناشئ عن نفي الظلم عن الله في عقابهم لأنه يتوهم منه انتفاء موجب العقاب فالاستدراك لرفع هذا التوهم 410.

والله سبحانه وتعالى في أكثر من آية نفي الظلم عن نفسه، إذ يقول تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ

409 - الكهف 54 - 59.

410 - التحرير والتنوير، ج 10 ص 499.

لِلْعَبِيدِ {411} وقوله تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ} {412} وقوله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ} {413}. وصيغة الخطاب هنا تأخذ أبعادا كثيرة يرتسم في كلها أن الله تعالى يريد الرحمة والغفران لكل البشرية، لكن تصرف البشرية يسعى نحو الظلم الذي يكون الطريق الموصل نحو الهلاك المتحقق المرسوم قبل تحقق الظلم.

6. الله متعالٍ عن الكيد بغير حق:

الكيد ورد في القرآن الكريم ضمن سياقات عدة، من ذلك قوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْمِلُهُمْ رُؤُودًا} {414} هذه الآيات الكريمة رسمت صورة المشركين المكذابين، فبين للسامع أنّ عملهم ذلك كيد مقصود، فهم يتظاهرون بأنهم ما يصرفهم عن التصديق بالقرآن إلا ما تحقّقوه من عدم صدقه، وهم إنما يصرفهم عن الإيمان به الحفاظ على سيادتهم فيضللون عامتهم بتلك التعليقات الملققة والكيد، إخفاء قصد الضر وإظهار خلافه، فكيدهم مستعمل في حقيقته، وأما الكيد المسند إلى ضمير الجلالة فهو مستعمل في الإمهال مع إرادة الانتقام عند وجود ما تقتضيه الحكمة من إنزاله بهم وهو استعارة تمثيلية، شبهت هيئة إمهالهم وتركهم مع تقدير إنزال العقاب بهم بهيئة الكائد يخفي إنزال ضره ويظهر أنه لا يريده وحسنها محسن المشاكلة {415}.

411 - آل عمران 182.

412 - الحج 10.

413 - فصلت 46.

414 - الطارق 15 - 17.

415 - التحرير والتنوير ج 16 ص 210.

7. الله متعالٍ عن الانتقام بغير حق:

وردت لفظة الانتقام في النصّ القرآني في مواضع خاصة، أراد الله تعالى أن يبين أنّ الانتقام يتحقّق وفق معايير خاصة، ضمن تشكّل خاص، ضمن سياق خاص، إذ يقول تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ} 416 هذه الآية الكريمة تشكّلت ضمن ثلاثية متتابعة وهي الظلم - المجرمون - المنتقمون، فالسياق التتابعي يدلّ على تدرج في المخاطبة، فقد بدأ بقوله (وَمَنْ أَظْلَمُ) فالمخاطبون أصبحوا من أهل الظلم لأنهم ذكّروا بآيات الله تعالى ولم يؤمنوا بها، ثم دخل المخاطب في مرحلة جديدة وهي الإعراض عن آيات الله تعالى، ممّا تبع هذا الإعراض اكتسابه صفة جديدة تجاوزت صفة الظالم ألا وهي صفة المجرم، وهي صفة تفوق الظلم ممّا يتحقّق له الحصول على درجة جديدة في الابتعاد عن الله تعالى، وبعد كل ذلك لا بدّ من نهاية تتحدد لهم، وهذه النهاية تكون من جنس عملهم لتحقّق العدالة الإلهية وفق معايير خاصة أرادها الله تبارك وتعالى، فكان الانتقام منهم جزاء ما عملوه رغم التذكير المستمر لهم.

وفي سياق الانتقام ورد قوله تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَمَا نَنْدُهَبُ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَّتْكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ

إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ {417} وقوله تعالى: {إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ} {418}

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجنة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعالجة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة والحمود من انتقام العبد أن ينتقم من أعداء الله تعالى وأعدى الأعداء 419.

8. الله متعالٍ عن المكر بغير حق:

المكر: تبييت فعل السوء بالغير وإضماؤه. وقد ورد في النص القرآني ضمن سياقات عدة منها قوله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ} {420} هذه الآية الكريمة ترسم لنا صورة المكر المتحققة من الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنوردها كما ذكرها الزمخشري لنرى أبعاد المكر المتحقق من الكافرين، فضلا عن ذلك لنرى مكر الله تعالى المتحقق الذي يكون فيه العدل والحق. " لما فتح الله على رسوله عليه الصلاة والسلام، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة، ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح الله له من حسن العاقبة، والمعنى: واذكر إذ يَمْكُرُونَ بك وذلك أن قريشا - لما أسلمت الأنصار وبايعوه - فرقوا أن يتفاقم

417 - الزخرف 39 - 43.

418 - الدخان 15 - 16.

419 - المقصد الأسنى، ج 1، ص 139.

420 - الأنفال 30.

أمره، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال: أنا شيخ من نجد، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها؛ وتتربصوا به ريب المنون. فقال إبليس: بئس الرأي؛ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم. فقال هشام بن عمرو: رأيي أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم؛ فلا يضركم ما صنع واسترحتم. فقال إبليس: بئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم. فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما وتعطوه سيفا صارما، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم، فإذا طلبوا العقل عقلناهم واسترحنا. فقال الشيخ - لعنه الله - : صدق هذا الفتى، هو أجودكم رأيا. فتفرقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله. فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه، وأذن الله له في الهجرة، فأمر عليا رضي الله عنه فنام في مضجعه، وقال له: اتشح ببردتي، فإنه لن يخلص إليك أمر تكراهه، وباتوا مترصدين، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه، فأبصروا عليا فبهتوا وخيب الله عز وجل سعيهم، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم (ليثبتوك) ليسجنوك أو يوثقوك أو يثخنوك بالضرب والجرح، من قولهم: ضربوه حتى أثبتوه لا حراك به ولا براح، وفلان مثبت وجعا. وقرئ: (ليثبتوك)، بالتشديد. وقرأ النخعي: (ليثبتوك)، ومن البيات. وعن ابن عباس: (ليقيدوك)، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق (وَيَمَكُرُونَ) ويخفون المكاييد له (وَيَمَكُرُ اللَّهُ) ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة (والله خَيْرُ الماكِرِينَ) أي مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ

تأثيراً، أو لأنه لا ينزل إلا ما هو حقّ وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب"421. وهنا تتضح صورة المكر التي اكتسبت درجة عالية جعلتها تذكر دائماً، وتدخل سياق المكر من أوسع الأبواب، لكن في الوقت نفسه تحقق مكر الله الذي فيه الخير العظيم بحفظ رسوله عليه الصلّاة والسّلام وفي سياق المكر أيضاً ورد قوله تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ}422.

9. الله متعالٍ ببسطه للرزق:

الرزق مفردة يشترك فيها خلق الله تعالى جميعاً، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}423 هذه الآية الكريمة ترسم لنا صورة الرحمة المتحققة للخلق فمن أثر رحمة الله تعالى حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون ببلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة، يقول تعالى: {وَإِذَا كُنتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُنْدَا إِلَيْكَ قَالَ عِدَايَ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}424 هذه الآية طرحت دعاء المؤمنين ضمن نسق معرفي تابع إلى معرفتهم برحمة الله تعالى المتحققة لهم في الدنيا والآخرة، فكان الدعاء وفق الآتي (واكتب لنا) حياة طيبة في هذه الدنيا، من عافية وبسطة في الرزق، وتوفيق لطاعة، ومثوبة حسنة في الآخرة

421 - الزمخشري، ج 2، ص 357.

422 - إبراهيم 46 - 47.

423 - الإسراء 20.

424 - الأعراف 156.

بدخول الجنة، ونيل رضوانك، إننا تبنا إليك (هدنا إليك) مما فرط من سفهائنا من عبادة العجل، ومن تقصير العقلاء منا في نهيهم والإنكار عليهم.

وردّ الله تعالى على دعاء موسى قائلاً: لقد أوجبت أن يكون عذابي خاصاً أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة، الذين لم يتوبوا، أما رحمتي فقد وسعت كل شيء، وسأثبت رحمتي بمشيئتي للذين يتقون الكفر والمعاصي، ويؤدون الزكاة المفروضة، ويؤتون الصدقات التي تتزكى بها نفوسهم، وللذين يؤمنون ويصدقون بجميع آياتي الدالة على الوحدانية، ويصدقون رسلي، وما جاؤوهم به⁴²⁵.

وعليه فإنّ الرّب عزّ وجلّ هو الذي جعل موسى وهارون هما الأعلى، قال تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} 426؛ أي عظم ربّك الأعلى، حيث لا ربّ أعلى منه.

وقال تعالى: {فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى} 427، وهنا جاء تقديم هارون على موسى، وفي آية أخرى يقدّم موسى على هارون عليهما السّلام. قال تعالى: {قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} 428؛ فقدّم اسم هارون اعتباراً بكبر سنّه، وقدموا اسم موسى في القول الآخر اعتباراً بفضله على هارون بالرسالة وكلام الله تعالى، فاختلفت العبارتين باختلاف الاعتبارين⁴²⁹.

425 - أسعد حومد، ج 1، ص 1111.

426 الأعلى 14..

427 - طه 70

428 - الأعراف 121 - 122

429 - تفسير التحرير والتنوير، ج 9، ص 69

ولقد جاء هارون في مقام الخليفة مصداقا لقوله تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} 430 جعل الله سبحانه وتعالى مدة المناجاة ثلاثين ليلة تيسيرا عليه، فلما قضاها وزادت نفسه الركية تعلقا ورغبة في مناجاة الله وعبادته، زاده الله من هذا الفضل عشر ليال، فصارت مدة المناجاة أربعين ليلة، ولكنه لما أمره بها أمره بها مفرقة، إما لحكمة الاستئناس، وإما لتكون تلك العشر عبادة أخرى فيتكرر الثواب، والمراد الليالي بأيامها فاقصر على الليالي؛ لأنّ المواعدة كانت لأجل الانقطاع للعبادة وتلقي المناجاة.

فبعد أن ترك قومه مع هارون صلى الله عليه وسلم، ثم بعد ذلك عاد إليهم وجدهم يعبدون عجلا.

إنّ هذه الواقعة تعد علامة فارقة في دعوة موسى صلى الله عليه وسلم، ذلك إن بني إسرائيل شكلوا حالة معرفية غير متوقعة لا على مستوى الإدراك ولا على غيره، فهؤلاء تلقوا دعوة السامري بفكر مستشري فيه كل الإرهاصات التي انقادت دون أدنى شك لما يريده السامري، وهذا يحيل ألينا أن بني إسرائيل يقعون حول مركزية شديدة التأثير تجذب نحوها الترسبات الفكرية المتأتمية من الوعي الجمعي الذي رسخ كثير من الأفكار البدائية التي لا تقبل التغيير لا على مستوى الصورة العينية المتحققة ولا على مستوى الإبلاغ المتشكل فيه خطاب الله تعالى.

إن هذه الرؤية لبني إسرائيل تفتح أفق الأحداث أمامنا، أي أن مستقبل الأحداث المتعلق بهم سيشهد إخفاقات قد تقترب أو تبتعد إلا أنها ستكون مصاحبة لهم على مر السنين.

رجع موسى صلى الله عليه وسلم فوجد أمامه صورة مغايرة لما تركه:

. السامري.

. العجل.

. فعل بني إسرائيل.

اشتد غضب موسى صلى الله عليه وسلم، وأخذ بلحية أخيه هارون صلى الله عليه وسلم مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ تَرَفُّبٌ قَوْلِي } 431.

إن ثنائية الحضور والغياب مثلت فتنة لبني إسرائيل، إذ يقول تعالى: { فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ أَفَلَا يَرُونَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ } 432.

431 - طه 92 - 94

432 - طه 88 - 91

إنّ السياق هنا يتمثل به مركز يدور حوله الفكر السامري دون النظر إلى الفكر الذي جاء به موسى صلّى الله عليه وسلّم، وهذا الكلام يتعلق ببني إسرائيل أكثر من السامري فهم المحور الرئيس في الدعوة، ولهذا، اشتط غضب موسى صلّى الله عليه وسلّم، في صورة تدعو إلى التساؤل، يقول تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَفْقُتُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 433

إن هذه الآية الكريمة فيها سمة العرض الواسع لكل الأحداث التي تحققت قبل موسى صلّى الله عليه وسلّم ضمن آليات البحث عن مرتكزات بينية مترابطة سبقت بإبلاغ من الباري جلّ جلاله، ولهذا كان الغضب أول موقف ظهر على موسى صلّى الله عليه وسلّم دون غيره من الأفعال، فالخطاب هنا كان "لهارون ووجوه القوم، لأنهم خلفاء موسى في قومهم فيكون (خلفتموني) مستعملا في حقيقتة، ويجوز أن يكون الخطاب لجميع القوم، فأما هارون فلأنّه لم يكن كما كان متوقّع منه من قبل موسى بأسباب لها مبررات من وجهة نظر هارون، وأمّا القوم فلأنهم عبدوا العجل بعد غيبة موسى، ومن لوازم الخلافة فعل ما كان يفعله المخلوف عنه، فهم لما تركوا ما كان يفعله موسى من عبادة الله وصاروا إلى عبادة العجل فقد انحرّفوا عن سيرته فلم يخلفوه في سيرته، وإطلاق الخلافة على هذا المعنى مجاز فيكون فعل (خلفتموني) مستعملا في حقيقتة ومجازه" 434.

433 - الأعراف 150

434 - تفسير التحرير والتنوير، ج 5، ص 465

مع أنّ هارون رسول مرسل من عند الله مع أخيه موسى إلا أنّه على مهمة الوزارة مصداقا لقوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وُزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي} 435.

. لذلك كانت نظرة قومه ومعهم السامري إلى هارون على أنّه واحد منهم لا يرقى إلى مرتبة موسى من وجهة نظرهم، وإن السامري أدرك ذلك في نفسية بني إسرائيل. ولأنّ موسى غير موجود بأسباب المهمة الربانية التي هو فيها فقد استغل السامري هذه الفرصة لتكون الفتنة قد شبت نارها في كل ما قاله لهم موسى، فطرح السامري قضية عبادة العجل في غياب موسى، قال تعالى: {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ} 436.

مع أنّ هارون قد نصح لهم وهو نبيهم وخليفة نبيهم، ونبههم إلى أن هذا ابتلاء من الله تعالى فقد قال: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} 437.

ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى، وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربه على الجبل إلا أنهم كانوا عاصين؛ فقالوا كما جاء في الكتاب الحكيم: {قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى} 438.

رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا، فسمع منهم حجتهم التي تكشف عن مدى ما أصاب نفوسهم من خلل، وأصاب تفكيرهم من فساد، فالتفت إلى أخيه وهو في فورة الغضب لله تعالى، يأخذ بشعر

435 - طه 29 - 30

436 - المدثر 18 - 20

437 - طه 90

438 - طه 91

رأسه وبلحيته: {قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي} 439؛ فهو يؤنبه على تركهم يعبدون العجل دون أن يبطل عبادته، اتباعا لأمر موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألا يحدث أمرا بعده ولا يسمح بإحداث أمر يغضب الله تعالى، فقد أنكر عليه عدم تقيد به بما أوصاه به، فهل كان ذلك عصيانا لأمر موسى من قبل هارون عليهما الصلوة والسلام؟

لقد قرر السياق القرآني ما كان من موقف هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو يطلع أخاه على مجريات الأحداث التي لم يشهدها موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وموضحا التزامه بما أوصاه به: {قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَيْنَ تَرْفُتٍ قَوْلِي} 440.

وهكذا نجد هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يذكر أخاه بالتزامه فيما أمره به: {وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} 441، إنه القول الاشتراطي من حيث أن يخلفه في قومه والإصلاح بينهم وألا يتبع سبيل المفسدين.

ولذا؛ فإن ذلك لم يكن شدة وغضبا من موسى، ولا لنا وضعفا من هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن دخل هارون في حديثه مع أخيه من جانب عاطفي ليس من أجل أن يسكن غضب موسى ويلمس مشاعره في نقطة حساسة، وإنما ذلك زيادة الثبات على العهد من ناحية الرحم وهي أشد حساسية، ويعرض له وجهة نظره في صورة الطاعة لأمره حسب وصية موسى له، وأنه خشي إن هو عاج

439 - طه 92-93

440 - طه 94

441 - الأعراف 142

الأمر بالعنف أن يتفرق بنو إسرائيل شيعة، بعضها مع العجل، والبعض الآخر مع نصيحة هارون، فكيف يكون ذلك وقد أمره بأن يحافظ على بني إسرائيل ولا يحدث فيهم أمرا، فهذا الموقف عبر فيه عن الطاعة وامتنال الأمر وفق وصية موسى وتوجيهاته.

وعليه: فإنّ النبوة من عند الله تعالى ليس للإنسان فيها خيار أو تدخل وعلى هذا فهي تدخل في الاضطفاء، والإنباء بها علم غيب لا يظهره الله إلا على أيدي الأنبياء والمرسلين بطرق الوحي أو التكليم كما قال تعالى: { وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه ما يشاء إنّه عليّ حكيم } 442.

هارون صلّى الله عليه وسلّم نبي من أنبياء الله تعالى بدلالة النص القرآني حيث قال تعالى: { وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا } 443.

فهارون صلّى الله عليه وسلّم وإن كان نبيا، فإنما هو مبعوث بشريعة أخيه موسى صلّى الله عليه وسلّم، وعلى هذا ذهب البعض إلى أنه ليس رسول على معنى أن النبي من أوحى إليه ولم يأمر بالتبليغ، فكان هارون صلّى الله عليه وسلّم يبلغ بأمر موسى، إلا أنّ هذا الرأي لا يخلو من ضعف بدليل وجود النص في قوله تعالى: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَتَّى أَلْفَى الشَّيْطَانَ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ

442 - الشورى 51

443 - مريم 51-53

اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحَكِّمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {444}.
فدلت الآية على أن النبي مرسل فهو مأمور بالتبليغ.

وكذلك قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} {445}.

أن الله ذكر بعث النبيين وأنهم جاءوا بالتبشير والإنذار وأنزل معهم الكتاب بالحق، وطالما أنهم يحملون التبشير والإنذار والكتاب، فهم مكلفون بالتبليغ، والتبليغ لا يكون إلا من رسول، وهارون صلى الله عليه وسلم بلغ قومه مرات كثيرة، فاجتمعت له النبوة والرسالة.
ولقد كان هارون صلى الله عليه وسلم:

. نبيا.

. رسولا.

. وزيرا.

. خليفة.

ولما استخلفه موسى صلى الله عليه وسلم على بني إسرائيل عندما ذهب لميقات ربه، قال تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأْتَمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعِ السَّبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} {446}.

444 - الحج 25

445 - البقرة 213

446 - الأعراف 142

لقد حاول بنو إسرائيل استضعاف هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
فَعَكَفَ قَسَمَ مِنْهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْعَجَلِ الَّذِي صَنَعَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ، وَهَذَا
تَنَارُ قَضِيَّةٍ كَبِيرَةٍ:

. هَلْ أَنَّ هَارُونَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَصَى أَمْرَ مُوسَى صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

. وَأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ بَقُوا عَلَى عِبَادَةِ الْعَجَلِ إِلَى أَنْ عَادَ مُوسَى
وَنَسَفَهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا. لِمَاذَا هَارُونَ لَمْ يَتَّبِعْ مُوسَى بَعْدَ أَنْ رَأَاهُمْ قَدْ ضَلُّوا؟
إِنَّ هَارُونَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّمَا كَفَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ
عِبَادَةِ الْعَجَلِ، بَعْدَ أَنْ بَلَغَ فِي ذَلِكَ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَخَشِيَ عَلَى عَلَيْهِمْ
أَنْ يَتَفَرَّقُوا، وَهُوَ خَلِيفَةُ أَخِيهِ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ كَانَ
مَوْقِفُهُ لَيْسَ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقْتُلَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَإِنَّمَا هُوَ خَوْفٌ عَلَى
الدِّينِ وَالْمَلَّةِ، فَلَوْ أَنَّهُ قَتَلَ وَلَيْسَ فِيهِمْ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
لَكَانَتْ آثَارُ ذَلِكَ جَدًّا فَادِحَةً عَلَى الدِّينِ، فَأَيُّقِنُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ وَحِكْمَتِهِ،
أَنْ الصَّبْرَ عَلَيْهِمْ وَتَرَكَ التَّصَدِيَّ لَهُمْ حَتَّى يَعُودَ مُوسَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَسَلَّمَ، أَنْفَعُ لَهُمْ وَأَعْلَى لِلدِّينِ وَالْمَلَّةِ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى التَّصَدِيِّ
وَالِاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّ فِي اسْتِشْهَادِهِ خَيْرَ لَهُ وَحْدَهُ، وَهُوَ إِنَّمَا
يُرِيدُ الْخَيْرَ لِلدِّينِ وَالِدَعْوَةَ وَالتَّوْحِيدَ.

إِنَّ هَارُونَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا سَكَتَ مَخَافَةَ قَتْلِهِ فَقَطْ إِنَّمَا
خَشِيَ أَنْ يَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ شَيْعًا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ بَعْدِ قَتْلِهِ: {إِنِّي
خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلمَ تَرْتُبْ قَوْلِي} 447.

فحرصه على القيام بحق ما كلفه به موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو ذاهب إلى الميقات حيث قال تعالى: (اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ).

وهو السبب الرئيس إلى كفّ هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التصدي لهم بقتالهم، وإنما تصدى لهم بالموقف في الدعوة إلى الحقّ من أجل رجوعهم عن الباطل، وقد بلغ في دعوتهم والتصدي لهم مبلغاً عظيماً.

فهارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يعص أخاه موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه وسلم، وإنما موسى استفهمه لما رآه لم يفعل ما أشار به عليه:
. اخلفني في قومي.

. أصلح بينهم.

. لا تتبع سبيل المفسدين.

وحقيقة الأمر أن الخليفة هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخرج عن اتباع أوامر من استخلفه وتنفيذ تلك الأوامر بحذافيرها، وزاد على ذلك ما كان من خشيته أن يتفرقوا،

فالمانع هو خشيته أن يظن موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه فرّق بين بني إسرائيل فقبل موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عذره وعلم أنه لم يعصه لا باعتقاده بطلان مقتضى أمره موسى ولا بالمخالفة، لأن أمره لم يكن مطلقاً، بل مقيداً بعدم المانع وإن لم يكن التقييد موجوداً في اللفظ، وإنما موجود في الظرف، كما تقول لإنسان انتظر فلانا وكلمه، ثم إن ذلك لم يحصل لعدم حضور المقصود بالكلام، فتقول هل

عصيت أمري، فيكون الظرف هو المانع لعدم حضور المقصود بالكلام، وليس الأمر من العصيان في شيء.

ثم إن أخذ موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ برأس أخيه يجره إليه، نظنه ليقبل عليه بوجهه ويسمع عتابه له إذ تأخر عن اتباعه إذ رآهم ضلوا ولم يأخذ بشعر أخيه قط إذ ليس ذلك في الآية أصلا ومن زاد على ذلك فهو بعيد عن قول الله تعالى: {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَفْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 448.

لكن هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خشي بادرة موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عليه وسطوته إذ رآه قد اشتد غضبه، فأراد أن يهدأ الموقف بهذا الكلام عما تخوفه منه، وليس في هذه الآية ما يوجب غير ما نقول، ولا أنه مدّ يده إلى أخيه أصلا.

وأما من جهة ثانية فإن هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد يكون استحقّ في نظر موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النكران لتأخيره عن لحاقه إذ رآهم قد ضلوا فأخذ برأسه منكرا عليه، ولو كان هذا لكان إنما فعله موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضبا لله عزّ وجلّ وقاصدا بذلك رضاء الله تعالى، هذا ليس مستبعدا من الأنبياء عليهم الصلوة والسلام وإنما نبعد القصد إلى المعصية وهم يعلمون أنها معصية، وهذا هو معنى

ما ذكره الله تعالى عن إبراهيم خليله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ
تعالى: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} 449.

وقول الله تعالى لمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا
تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا} 450.

إنَّما الخطيئة المذكورة والذنوب المغفورة ما وقع بنسيان أو بقصد
إلى الله تعالى إرادة الخير، فلم يوافق الفعل مشيئة الله عزَّ وجلَّ بذلك
فقط، وكذلك نكران موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أقدم عليه العبد
الصالح الذي أراد موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتعلم ممَّا عُلِّمَهُ العبد
الصالح، فأنكر موسى أفعال العبد الصالح، قال: {فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا
لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِعَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا
ثُكْرًا} 451.

فأنكر موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفعل وهو لا يعلم وهو لا
يعلم السبب ولم يحط بالنتيجة، وقد كان أخذ عليه العهد ألا يسأله
عن شيء حتى يحدث له منه ذكرا.

إنَّ النبوة هي اصطفاء من الله تعالى لمن يشاء من عباده، والتي
هي وحي من الله تعالى بشرائع الأنبياء، وإنبائهم نبأ ذي شأن عظيم
في القوَّة، وإفادة اليقين بما أنبأ به الله تعالى أنبياءه، ولذا فهي لا تنال
بالتمرين والاستعداد الشخصي، وإنما هي فضل من الله يؤتیه من
يشاء، ومن آتاه الله هذا الفضل فقد اختاره من العالمين ليكون نبيا لله

449 - الشعراء 82

450 - الفتح 2

451 - الكهف 74

تعالى يبلغ ما يأمره به، فكيف يخرج هارون صلّى الله عليه وسلّم عن
هذا الناموس الإلهي وله من الصفات التي اختص الله تعالى بها أنبياءه
دون سائر الخلق.

من

صفات النبي هارون

1 . نبيا:

هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبي من أنبياء الله تعالى بدلالة النص القرآني حيث قال تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} 452.

فهارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإن كان نبيا، فإنما هو مبعوث بشريعة أخيه موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى هذا ذهب البعض إلى أنه ليس رسول على معنى أن النبي من أوحى إليه ولم يأمر بالتبليغ، فكان هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبلغ بأمر موسى، إلا أن هذا الرأي لا يخلو من ضعف بدليل وجود النص في قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَّتْ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 453. فدللت الآية على أن النبي مرسل فهو مأمور بالتبليغ.

وكذلك قوله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ} 454 أن الله ذكر بعث النبيين وأنهم جاءوا بالبشارة والندارة وأنزل معهم الكتاب، وطالما أنهم يحملون التبشير والإنذار

452 - مريم 51 - 53

453 - الحج 25

454 - البقرة 213

والكتاب، فهم مكلفون بالتبليغ، والتبليغ لا يكون إلا من رسول،
وهارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلَّغَ قَوْمَهُ مَرَاتٍ كَثِيرَةً، فَاجْتَمَعَتْ لَهُ
النَّبُوءَةُ وَالرِّسَالَةُ.

وعلى هذا فقد فرّق كثير من العلماء بين الرّسول والنبّي وأن هناك
اختلافات بينهما في قضية الرسالة ومعناها والنّبوءة ومبتغاها منها:

. أن الرّسول هو الذي حدّث وأرسل.

. أن النبي هو الذي لم يرسل ولكنّه أُلهم.

. أن كلّ رسول نبي، وليس كلّ نبي يكون رسولا.

. أن كلّ رسول نبي، وكل نبي رسول ولا فرق بينهما.

. إنّ الأنبياء صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أجمعين يأتون بأشياء من أمور
التفصيل في الحلال والحرام، أو يقودون التّاس ببلاغ ووحى من الله
سبحانه وتعالى.

وعلى هذا فالذين فرقوا بين النبي والرّسول يقولون: إنّ الرّسول
هو من جاء بشرع جديد إلى قوم كافرين، والنبي هو من بعث بشريعة
رسول قبله ليحدثها أو معه ليلغها، ويحيي معالمها، فهذا مأمور
بالبلاغ الجديد المستأنف لقوم كفار، وهذا مأمور بالبلاغ للمؤمنين
الذين ينتمون إلى شريعة سابقة، ولكنهم غيروا وبدلوا وضلوا وانحرفوا،
فكان على النبي تبليغهم وإعادةهم إلى طريق التوحيد والحقّ والعدل
كما فعل هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع بني إسرائيل.

فالله تعالى بعث الأنبياء لكي يكونوا حملة الخير والصلاح للنّاس،
ولما كان الإنسان بطبعه يرى الخير والصلاح من زاوية المنفعة والفائدة
التي تعود عليه وما ركّب به من شهوات النفس وميلوها وهواها فإن

الخير والصالح ينظر إليه بشكل جزئي يضر بالآخرين، لذلك كانت الأنبياء هي الوسيلة التي تضع الناس على المحجة البيضاء والنبى دليل البشر إلى المعرفة الله تعالى ومراده تعالى للوصول إلى السعادة والخير، فالنبى هو الوسطة الذي يبعثه الله تعالى إلى عباده.

إنّ الإيمان بالنبوة هو عملية تواصل بين الله تعالى وبين المجتمع الإنساني عن طريق الأنبياء، وذلك من خصائص الدين الحقّ، والنبى هو الإنسان الذي يختاره الله ليقوم بأداء رسالة معينة، وقد وجدت مذاهب كثيرة تؤمن بالله وتنكر النبوات، وتزعم أنّه لا حاجة لوجود النبى؛ لأن ما أتى به الأنبياء موافق للعقل، ففي العقل غنى عنه، أو مخالف له فلا حاجة لنا به، والعقل عندهم طريق الاستدلال.

غير أنّ الذي نردّ به على هؤلاء أنّنا لا نستطيع بالمنطق التجريبي والرياضي التوصل إلى حقائق ما وراء المادة والغيبيات، وبذلك يكون العقل قاصراً عن أداء ما يرجون منه في هذا الجانب، ولذا وجب بعث الأنبياء ضرورة للإخبار بما يغيب عن العقل أو أنّ العقل قاصر على إدراكه بنفسه، ولذا فالعلم الصحيح من هذا الجانب في ذات الله وما يكون بعد الموت من أوصافه الآخرة والحساب ونيل الجزاء من ثواب وعقاب، وكل ما يتعلق بعالم الغيب، فلا يستطيع العقل إدراكه بنفسه لأنّ ذلك لا يعرف إلا عن طريق الأنبياء.

ولذا؛ فقد غاب عن بني إسرائيل ما يترتب على اتخاذهم العجل، ومن هنا كان ضرورة النبى توضيح أمر عصيانهم ومترتبات ذلك العصيان حيث قال تعالى: { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي } 455.

فهارون صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأَنَّهُ نبي من الله تعالى أعلمهم بما لم تدركه عقولهم من فعلتهم في تصرفهم هذا حيث دعاهم إلى الحق ونصح لهم هارون ليبيّن لهم الحق من الباطل، فهو نبيهم والنائب عن نبيهم المنقذ ونبيهم إلى أنّ هذا من الابتلاء قال: (يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن) ونصحهم باتباعه وطاعته كما تواعدوا مع موسى وهو عائد إليهم بعد ميعاده مع ربّه على الجبل، ولأنّ هارون صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم نبي لهم فقد علم ما لم يعلموه من عودة موسى صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنهم قد أسخطوا الله تعالى، ولكنهم بدلا من الاستجابة له التوا وتلصوا من نصحه، ومن عهدهم لنبيهم بطاعته وقالوا: (لن نرجع عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى).

إن قضية النبوة لا يمكن أن يحل محلها العقل المنطقي أو الفلسفي، ولا يستطيع هذا العقل مهما أوتي من ذكاء وحجّة أن يكون بديلا أو يأتي بديل عن الخطاب الديني، لأنّه إذا حكمنا معايير العقل النظري في الخطاب الديني فلا مناص من هذا التناقض بين الاثنين، لأن عالم الغيب والإلهيات التي يتحدث عنها الدين، لا يمكن أن تختبر على صعيد العقل الفلسفي والمنطق الوضعي، ومن هنا وجب الأخذ بضرورة الفصل والتمييز بين الخطابين، (الخطاب الديني والخطاب العقلي المحض). ومع الاعتراف بشرعية كلّ من الخطابين في مناقشة القضايا، وجب أيضا ضرورة ألا تحاكم أيّ قضية إلا في صورة معايير النسق الذي تنتمي إليه. ومن ثم فالإيمان بالغيب قضية صادقة على صعيد العقل النقلي الذي أتى عن طريق النبوة، ولا يمكن أن تنطبق معايير العقل الفلسفي على هذه القضايا لقصوره تجاهها.

والنبوة ليست محصورة بنبي محدد، وإنما هي ظاهرة موجودة عند جميع الأقسام والأمم قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} 456.

والنبوة تثبت بالمعجزة، وهناك شهادات لا يمكن الطعن فيها على وجود هذه المعجزات، ومن ثم لا مهرب لنا من قبولها. فإذا سلمنا بذلك، فتلک هي بداية شرعية الخطاب الديني الذي قبل على أساسه. فإذا سلمنا بشرعية هذا الخطاب فعلينا فيما بعد ألا نحاكمه إلا في ضوء المعايير التي يقدمها.

فالنبوة صفة جليلة قائمة على العلم والحكمة والمعرفة، ولا يمنحها الله تعالى إلا لأصفيائه من خلقه ممن تميزوا بنقاء الفطرة، وصفاء السريرة، ونفاد البصيرة مع العناية الإلهية به والفضل الرباني عليه كون النبي من صفوة خلق الله تعالى.

وعلى هذا فالنبوة اصطفاء واجتباء وهبة من الله تعالى لمن يشاء من خلقه، ولا يمكن لأحد أن يكون نبيا أو أن يصل إلى مرتبة النبوة عن طريق العقل في البحث والتفكير والدراسة والتأمل والتدبر، ومهما أوتي الإنسان من صفات العقل الموجبة، فهو يستطيع أن يكون كذابا، ولكنه لا يستطيع أن يكون نبيا بأن يهيب نفسه لتلقي النبوة، فالنبوة لا تنال بالاستعداد والتمرين والممارسة، وإنما هي فضل من الله يؤتيه من يشاء.

وأبسط ما يدل على أن النبوة خارجة عن الذات هي أن ظاهرة الوحي معجزة خارقة لسنن الطبيعة، ولا صلة لها بالتأمل العقلي أو الاستعداد النفسي. إن الوحي أو الإلهام الذي تتمتع به النبوة خارج

عن الذات الإنسانية، وموقف النبي منها هو موقف المتلقي الذي لم يكن له أي دخل لا في المعنى ولا في المضمون ولا في القبول ولا في الرفض. فالنبوة هي قبول النفس الإنسانية الوحي من الله تعالى لحقائق المعلومات والمعقولات عن جوهر بجوهرها دون تردد ولا تدخل.

2. رسولا:

قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} 457.

لقد جاء النص في القرآن الكريم بإرسال هارون مع موسى صلى الله عليهما وسلم، وعلى هذا فهارون عليه الصلاة والسلام مرسل من الله تعالى مع أخيه إلى بني إسرائيل.

فالرسول هو الذي يحمل رسالة ومكلف برسالة إلى قوم يبلغهم بها، وهارون صلى الله عليه وسلم رسول اصطفاه الله تعالى مع موسى ليكون داعيا إلى الله بإذنه وهاديا لقومه ومبشرا لهم بما يصلح دينهم وديانهم في أخذهم بالإيمان وامتناعهم عن الكفر والشرك، وبذا يتحقق العدل والاستقامة والصلاح من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجاء في لسان العرب: "سُمِّيَ الرَّسُولُ رَسُولًا لِأَنَّهُ ذُو رَسُولٍ أَيْ ذُو رِسَالَةٍ وَالرَّسُولُ اسْمٌ مِنْ أَرْسَلْتُ وَكَذَلِكَ الرِّسَالَةُ وَأَرْسَلْتُ فَلَنَا فِي رِسَالَةٍ فَهُوَ مُرْسَلٌ وَرَسُولٌ" 458.

فالرسول هنا من أرسله الله تعالى برسالة سماوية تدعو إلى إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولذا لا يمكن أن يكون الرسول داعيا لما ينفر منه الطبع وتاباه النفس، لأنَّ الرِّسَالَةَ الَّتِي يَحْمِلُهُ رَسُولُ اللَّهِ (أَي

457 - المؤمنون 45

458 - لسان العرب، ج 11، ص 281.

رسول) لا تأتي وفق رغبات الناس وميولهم وأطماعهم وما تشتهي أنفسهم، بل الرسول الذي يرسله الله تعالى يعمل الحق ويأمر بالحق ويدعو إلى الحق، سواء أكان ذلك موافقا للرغبات والميول أم مخالفا لها. لأن الرسول الذي يبعثه الله تعالى، يبعثه بما يحقق العدل والمساواة بين البشر على اختلاف ألوانهم وأجناسهم.

إذا الرسل الكرام لم يأتوا إلا بالحق، ولهذا فهم لم يأتوا بما تهوى أنفس البعض الذين يسعون في الأرض فسادا مما يجعلهم مستكبرين على ما جاء به الرسل فيضلوا السبيل الله ويضلون، لأن الله تعالى لم يرسل الرسل لإقرار الناس على ما هم عليه مما يشتهون أو يريدون قال تعالى: { أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } 459.

إن رسل الله صلى الله عليهم وسلم يواجهون دائما من البشر بالإعراض عن الرسل أو اتهامهم بالتكذيب والضلال والجنون وما إلى ذلك عندما تنقصهم الحجّة في مواجهة الحق، وصفات كثيرة ما أنزل الله بها من سلطان نزه الله تعالى عنها رسله الكرام حتى أنّ بعض الذين يتبعون الرسول يأتون إلى مخالفته انصياعا لهوى النفس أو إشباعا لطمع أو هوى كما فعل السامري.

فيعمد الضالون المضلون إلى إذكاء نار الفتنة معارضة للرسول كما فعل السامري عندما حول لهم الذهب إلى عجل له خوار وقال: (هذا إلهكم وإله موسى) فكانت المفاجأة أمام أعين بني إسرائيل وأمام هارون عليه السلام أن الذهب قد تحول إلى عجل له خوار البقر والعجول.

فأخذ السامري ينادي ويقول: هذا إلهكم وإله موسى، فأذكى نار الفتنة بين بني إسرائيل بأن ردهم عن الإيمان إلى الضلال.

ولقد عانى رسول الله هارون من السامري ومن اتبعه في عبادة العجل بعد أن استخلفه موسى على قومه، حيث انجرف الناس إلى عبادة العجل والسجود له، فبعد أن صنع السامري العجل كانت الريح كلما دخلت في داخل العجل تخرج من فمه صوتاً يشبه صوت البقر له خوار فيزدادون فتنة وسجوداً لهذا العجل، وعبثاً حاول هارون صلى الله عليه وسلم أن يرجعهم عن هذا الضلال المبين رغم أنه اعترض عليهم بأقصى ما لديه من قوة وطاقة.

لكن القوم قد اختاروا طريق الضلال والغواية وعبدوا العجل الذهبي، وكادوا أن يقتلوا هارون صلى الله عليه وسلم وأعلنوا وجهتهم قائلين:

لن نرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى.

فإما أن تعبدنا معنا أو تنصرف عنا.

فظل ينادى عليهم قائلاً: أتعبدون عجلاً لا ينفع ولا يضر!

أهذا ما أوصاكم به موسى من طاعة!

فقال له السامري وهو يتزعم عبيد العجل: إن هذا هو إله موسى

ولئن رجع موسى ليعبده معنا.

فاعترضهم هارون صلى الله عليه وسلم ولم يستطع أن يقف أمام

هذا التيار الجارف من الضلال.

ظل موسى عليه السلام فترةً طويلةً غائبًا عن قومه وعن هارون، ولم يكن على دراية بما حدث لقومه، فأعطاه الله الألواح المكتوب عليها التوراة وأمره أن يرجع إلى قومه الذين ضلوا وأضلهم السامري على الرغم من وجود رسول بين ظهرانيهم وكانوا قبل ذلك مؤمنين.

فأخبره الله تعالى موسى صلى الله عليه وسلم أن السامري قد أضلهم بعبادة العجل، فحمل الألواح ورجع إلى قومه.

فلما وصل إلى قومه وجدهم عاكفين على عبادة العجل الذهبي، قال تعالى: {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَمْ أَبَدُكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أُوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلَا يَرُونَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي. قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا إِلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ

لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا {460}.

ومع ذلك فإن رُسل الله دائما هم الفائزون والمنتصرون، ولهذا لم يرسل الله رسولا إلا ليطاع ولو كره الكارهون، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ} {461}.

هناك أقوام كلما جاءها رسول من رُسل الله تعالى كذبوهم؛ فأصحاب الأيكة لقد بعث الله لهم الرُّسل مبشرين وهادين ومنذرين بالحق إلا أنهم كذبوا الرُّسل الكرام صلَّى الله عليهم وسلّم كما كذبوا شعيب الرُّسول الأمين، قال تعالى: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} {462}.

مع أن الكفرة والمشركين ينظرون في آيات الله ومعجزات رُسله إلا أنهم يعضُّون أبصارهم وهم في غيِّهم سادرون ولأنفسهم يظلمون، يظنون بالله غير الحق، فكان الرُّسول هو حجّة الله على عباده حتى لا يدع لهم مناصا في التكذيب أو أنهم لم يبلغوا، ولذا فإن إرسال الرُّسل سنة من الله تعالى في خلقه، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ} {463}

460 - طه 86 - 98

461 - النساء 64.

462 - الشعراء 176 . 180.

463 - النحل 36

لقد بعث الله تعالى في كل أمة رسولا لأسباب كثيرة منها:

. الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تعالى واحدا أحدا لا شريك له.

. إقامة الحجّة على العباد بأنهم قد بلّغوا من قبل الرّسل.

. تعدد الرّسل فيه إجماع على دعوة التوحيد مع خصوصيات كل

رسالة عدا الكافة.

قال تعالى: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} 464. هارون نبي مسالم اتخذ صفاته من صفات ربّه تعالى؛ فكان سلاما وكان رحمة (وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي)، إنّه المبشر بالرحمة بقوله (رَبَّكُمُ الرَّحْمَن).

وعليه فإيمان هارون برّبّه الرّحمن جعله رحيمًا في دعوته، الرّحمن: هو الذي "رحمته تمنع إهمال عباده" 465.

الرّحمن: "يختص بالله سبحانه وتعالى ولا يجوز إطلاقه في غيره. وقال بعض أهل التفسير الرّحمن الذي رحم كافة خلقه بأن خلقهم وأوسع عليهم في رزقهم" 466.

قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} 467 بما أنكم تدعون الله أيها المؤمنون، فبأي اسم من أسمائه ادعوه، سواء دعوتهم الله تعالى أم دعوتهم الرّحمن لا فرق في ذلك، فدعواؤكم لم يخرج عن أسمائه الحسنی. وفي جميع الحالات أنتم

464 طه 90.

465 شرح أسماء الله الحسنی في ضوء الكتاب والسنة - ج 1، ص 20.

466 تفسير أسماء الله الحسنی، ج 1، ص 28.

467. الإسراء، 110.

تدعون الله. فلا تدعوا آخر من دونه. وهذا لا يعني وجود ازدواجية، بل يعني أن الله واحد لا يُثنى ولا يُجمع ولا يُعد بأي متوالية حسائية. نزلت هذه الآية الكريمة حسبما رواه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما بعد ما سمع بعض من المشركين رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يدعو ربه بقوله (يا الله يا رحمن) فقالوا: "إنه ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إله آخر" 468. وكما يبدو أن لضعف اللغة أثر سالب على معرفة الدلالة بالدعاء السابق، فرسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم لم يقل في دعائه (يا الله ويا رحمن) بل قال (يا الله يا رحمن) فانعدام حرف الواو من دعاء رسول الله تأكيد لا يصاحبه الشك في أنّ المدعو هو واحد لا شريك له، ولأنّ الداعي يتضرع إلى ربه بالرحمة، فلا أفضل له إلا أن يدعو بالرحمن، ولهذا قال: (يا الله يا رحمن). وفي الدعاء الافتراضي جاء (يا الله ويا رحمن) وفي هذا الدعاء دخل حرف الواو الدال على إثبات وجود الآخر، الذي ورد في عقول أولئك المشركين وهو ما لم يقله الرسول في دعائه المبارك.

ولهذا جاء قوله تعالى: {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} 469 جاءت (إلهكم إله واحد) مطلقة دالة على من يستحق أن يُعبد، وواحد تعني ليس له ثان، و(لا إله إلا هو) رد على من يظن بوجود آلهة أخرى من دونه، ولأجل التنبيه والتفطين من الغفلة جاء التأكيد ب(لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) ولهذا تدل (هو) على الله الذي (لا إله إلا هو) الذي (هو) الرحمن الرحيم. وبذلك إثباتا لا فرق بين أن يُقال الله أو يُقال الرحمن فكلاهما واحد.

468 . تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل. محمد أحمد كنعان، بيروت: دار لبنان ودار

العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1984م، ص 379.

469 . البقرة، 163.

ولذا فالخليفة بدأ عمله في ممارسة شؤونه الحياتية باسم الله مصداقا لقوله تعالى: {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلقوا علىّ وأتوني مسلمين} 470 فما يود قوله سليمان صلى الله عليه وسلم هو: إنّ ما نود القُدوم عليه معكم فيه الرحمة، وبالتالي لا مجال لكم في التأخير عمّا من شأنه أن يجعل بيننا وبينكم رحمة، فاقبلوا ولا تتأخروا عن دخولكم ميادين المحبّة والرحمة، ولهذا بدأ سليمان بعنونة رسالته باسمه تعالى (الرحمن الرحيم). فالرحمن اسمه تعالى الذي لا يثنى ولا يجمع وذلك لارتباطه بالوحدانية وعدم المشاركة، ولذا لو لم يكن الله رحمن ما كان رحيم. فالرحمن شاملة جامعة لكل رحمة، ولهذا فالله تعالى هو مصدر الرحمة، ومن وجوده استمدت الرحمة أو اشتقت، فالله سابق الوجود على كل موجود، ولأنّ الرحمة من الموجودات (المخلوقات) لذا كان الرحمن سابق عليها وكانت هي مترتبة على وجوده.

وعليه لا يمكن أن يشتق الخالق ممّا خُلِقَ، ولكن كل شيء يشتق من خالقه. ولأنّ البشر كغيرهم من ورائهم خالق، ولأنّ المخلوق وفقا للقاعدة يشتق صفته من خالقه، لذا يستخلف البشر خالقهم بالرحمة؛ فالرحمة صفة التمام بين المحبّين، ولهذا فهي خاصية إنسانية تميّز بها البشر عن غيره من المخلوقات الأخرى. ومن يكتسي بالرحمة يُخلف الرحمن في شيء من خواص الرحمة، ومن لا يُخلفه يفقد هذه الخاصية التي بفقدانها لا يتمكن من أن يكون خليفة.

والفرق كبير بين الخليفة الكم، والخليفة الكيف: الخليفة الكم: كل من خُلِقَ فهو خليفة عددا. وكل من آمن بما أنزل الرحمن فهو الخليفة قيميا. ومن هنا يتضح الفرق في المعنى بين الكافر الذي له الحق في

470. النمل 30، 31.

الرحمة في هذه الدار الدنيا، وبين الخليفة الذي له الحق في الرحمة باستخلاف الدارين معا.

فالخليفة هو من يستمد صفاته من مستخلفه، ولأنّ الرحمن هو الخالق، فالمخلوق ينبغي أن تكون الرحمة من صفاته وخاصيته فهو في أساسه مخلوق عليها، وهكذا كلما تمسك الموصوف بصفته ارتبطت صفته به، وكلما تخلّى عنها انسلخت منه.

ولأنّ الرحمن تعالى خاصيته المطلقة هي الرحمة المتضمنة في اسمه، وجنس آدم مستخلف ممن له الخاصية المطلقة (الرحمة) كما يدل على ذلك قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ} 471، تتجلى في هذه الآيات دلائل عظيمة قُصد بها الخليفة ليتأمل ويعرف عن ربه الذي استخلفه في الأرض فيعمل بما يريد وينتهي عما نهي، ومن هذه الدلائل تقديم اسم الرحمن في السورة، وعلى الخليفة أن يعي أن الله سبحانه جعل للرحمة مرتبة عظيمة فسمى نفسه باسم الرحمن وهو الاسم الذي خص به ذاته في استدعاء الدعاء بعد اسمه الأعظم (الله) فقال: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} 472، هذه الآية توضح للخليفة أن كل أمر لله هو رحمة منه بالمخلوقات وبالمطلق، هنا تتجلى الدلالة العظيمة الأخرى فخلق الإنسان وتعليمه إنما هي من وجوه رحمة الله به وليس لأمر آخر، فليتصور من يشاء لو أن الإنسان لم يُخلق هل ستكون الجنة مأوى خلود له؟ هذه الرحمة المطلقة أن يُخلق لتكون له الجنة مأوى. ثم ليتساءلوا بينهم لو لم يعرف الإنسان هذا القرآن العظيم فهل له أن يعرف طريقا إلى الجنة؟ هنا ليفهم الخليفة وليعمل بما فهم فليجعل

471 الرحمن 1-3.

472 الإسراء 110.

الرحمة شعاره وداره، والطريق إلى تحقيق الاستخلاف الحقّ متذكرا قول الرّحمن جل في علاه لنبينا الأكرم: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 473.

ثم من عظيم الدلائل أن نعرف أن الرّحمن اسم الله والرحمة صفته المتضمنة فيه إلى جانب صفات أخرى، فالرّحمن عليم علّم الإنسان ما لم يعلم، والرّحمن خالق فهو الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وعليه وكما تنص الآية الكريمة فالاسم يتضمن صفة أساسية (رحمن) ويتسع لصفات أخرى (عليم وخالق).

ومن دلائل الآية أن الرحمة صفة مطلقة لأنها من الرّحمن المطلق واليك بعضا من دلائل هذا الإطلاق:

1- النبوة رحمة، {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} 474، فرحة دلالة عموم وهي مجهولة بالنسبة لمفرد اللفظ لكن سياق الآية يدل عليها إنها النبوة التي رحم الله بها عباده، فقد كان عليه الصلوة والسلام رحمة في الدين وفي الدنيا، أما في الدين فلأنه عليه السلام بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم لطول مكثهم وانقطاع تواترهم ووقوع الاختلاف في كتبهم فبعث الله تعالى محمدا صلّى الله عليه وسلّم حين لم يكن لطالب الحقّ سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحقّ وبين لهم سبيل الثواب، وشرع لهم الأحكام وميّز الحلال من الحرام، وأما في الدنيا فلأنهم

473 آل عمران 159.

474 الأنبياء 107.

تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب ونصروا ببركة دينه 475.

2- الرزق رحمة، {وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنِّي بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُمْ} 476، فرحمة هنا تدل على عموم الخير من مال أو ولد أو صحة أو جاه أو غير ذلك من مطلق الخير.

3- التثبيت على الدين رحمة، {وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا} 477.

4- الهداية رحمة {وَهَبْنَا لَنَا مِن لَدُنكَ رَحْمَةً} 478 أي: "رحمة من خزائن رحمتك وجلائل فضلك وإحسانك وهي الهداية بالمعرفة والصبر والرزق والأمن من الأعداء" 479.

5- الحفظ رحمة {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنِّي وَفَعَلْنَاهُ عَن أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} 480.

6- القوة رحمة، {قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا} 481.

⁴⁷⁵ تفسير الرازي ج 11، ص 80.

⁴⁷⁶ يونس 21.

⁴⁷⁷ الإسراء 86-87.

⁴⁷⁸ آل عمران 87.

⁴⁷⁹ تفسير الالوسي ج 10 ص 162.

⁴⁸⁰ الكهف 82.

⁴⁸¹ الكهف 98.

7- قوانين الأرض رحمة، {وَأَيُّهُمُ أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلِكِ
الْمَشْحُونِ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيحَ
لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَدُونَ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ} 482.

8- النجاة رحمة، {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} 483.

وهذا قليل من مطلق لا يمكن لبشر أن يحصيه ويعطيه حقه وإن
أفاض ولكنها بعض مما شاء الله له أن يظهر رحمة منه بمن أراد له أن
يعرف فيعلم ثم يعمل، اللهم أجعلنا ممن يعرفون فيعلمون، ثم يسر لهم
العمل بما تحب وترضى يا رحمن.

لذا فالخليفة يحمل في مكوناته شيء من خصائص من استخلفه.
ولأنّ الرحمة كما بيّنا خاصة مطلقة وثابتة للرحمن، لذا فهي لن تكون
خاصية مطلقة وثابتة للخليفة، ولهذا فهي في حالة اهتزاز بين الثبات
النسبي والاهتزاز النسبي. ممّا يجعل البعض في سلوكهم الرحمة والبعض
في سلوكهم يفتقدونها. فالذين لا يحكمون بالعدل، ويأكلون أموال
الناس بينهم بالباطل، ولا يتطهّرون ولا يتصدقون ويتزكون، ولا يتوادون
مع من تربطهم بهم صلة رَحِم، ولا يناصرون المظلوم ولا يقدمون على
أعمال البر والخير والإحسان فهؤلاء يعتبرون منحرفين عن القيم
والفضائل التي بها يُستخلفون في الأرض. وهذا الأمر يجعلهم من
تعداد الخليفة الكم، وليس من تعداد الخليفة الكيف (القيم والفضائل
الإنسانية).

482 يس 44.

483 هود 58.

الرحمة لا يمكن أن تتم إلا بوجود طرفين، طرف يمتلك مسببات الرحمة، وطرف في حاجة ماسة لهذه المسببات التي تطعمه من جوع وتأمنه من خوف {الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَّهُمْ مِنْ خَوْفٍ} 484 الطرفان هما خالق ومخلوق، فالرحمة من الذي يمتلكها؟ (الرَّحْمَنُ). والذي هو في حاجة إليها (الخليفة). ولأن الخليفة استمد خاصية الرحمة من خالقه الرَّحْمَن، ولأن الخلق بينهم فروق فردية من حيث القدرات والاستعدادات والإمكانات والمستوى الإيماني، لذا فهم يتراتبون على السلم القيمي للرحمة من حيث درجات الاقتراب والابتعاد عن (الرَّحْمَن) قال تعالى: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} 485 فعمل الخير رحمة مطلقة من الله بين الناس، وعمل الشر لا مطلقة فيه بينهم. لذا تتوزع الرحمة بين الناس تناسبيا وبتماثل مع ما يُقدم من أفعال الخير كبيرة كانت أم صغيرة، ما يجعل لها أثر موجب على كفة التماثل في ميزان الحسنات. ولهذا بنو الإنسان (الخليفة) في إيمانهم وأقوالهم وأفعالهم لم يكونوا على حالة من المساواة على السلم القيمي للرحمة. ممّا يجعلهم على درجات من التفاوت من حيث الاقتراب والابتعاد من الرَّحْمَن عزّ وجلّ. ولأنّ الخليفة يتعرض في حياته لظروف قد تجعله في حاجة لمن يُقدم له المساعدة، نتيجة عوزه وفقره وبما هو عليه من ظروف، أو نتيجة لما ألم به من كوارث، حتى يتمكن من النهوض ومن مغالبة الصعاب. وفي المقابل هناك من تهيأت له الظروف حتى أصبح قادر على العيش السعيد وقادر على مد يد العون للمحتاجين بدون منة، ما يجعله على الكفة التي تستطيع أن تُقدِّم المساعدة، في مقابل الطرف الذي يستلمها أو يأخذها. وهذه من دلائل الرحمة بين الناس.

484. قریش، 4.

485. الزلزلة، 7، 8.

(فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) جاءت سابقة على قوله (ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) وهذا الأمر يدل على أن الله تعالى يهب لنا الرحمة قيمة مطلقة في ذاتها، أما الشر فلم يكن كذلك فهو المترتب على ما تقدم أيادينا، ولهذا الرحمة المستمدة من اسمه (الرَّحْمَن) هي الصفة الفعلية السابقة في عمومها، والغضب هو الفعل اللاحق أو المترتب على ما تُقدم أيادينا ممّا يجعل الغضب عقاب لنا على ما قَدِمنا عليه من أفعال غير مرضية للرحمن.

اسم الرَّحْمَن عزّ وجلّ هو اسم الله، ولذا لا يعد الرَّحْمَن اسم آخر لله تعالى، بل هو اسم الله في ذاته، ولهذا فهو الاسم الذي لا يُثنى ولا يُجمع، ورحمته شاملة تسع الخلق من انس وجان وملائكة وطائر وحيوان ونبات وجماد وماء وهواء والنّار التي بوسع رحمته جعلها عزّ وجلّ بردا وسلاما على إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام. ولهذا الرحمة تعم كل شيء، وإلا لو لم تعم كل شيء ما كانت النّار رحمة على إبراهيم وعقاب للكافرين، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 486 فكما للجنة أصحاب من المؤمنين، كذلك للنار أصحابها من الكافرين، والذين كفروا هم في أساس خلقهم خليفة ترث الأرض، ولكن انسحابهم عن قيم الخليفة وتحليلهم عنها لن يجعل لهم مستقبل لنيل الجزاء الأوفر كما هو حال الذين استجابوا لله وللرسول. ولهذا لا يدخل النّار إلا الذي لم يحافظ على فضائل ما استخلف عليه، ومن لا يحافظ عليها سيلاحقه الخزي حتى ينال العقاب بالحقّ (بالنّار) مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ} 487.

486. البقرة، 39.

487. آل عمران، 192.

ولأن الرّحمن هو مصدر الرحمة، لذا فهو الذي يستحقّ العبادة والشكر والثناء، فمن خلقك وجعلك خليفة على الأرض التي فيها معاشك وجميع النعم التي تُشبع حاجاتك المتعددة والمتطوّرة ألا يستحقّ العبادة، وإذا كان من يعمل لك خيرا تشكره كثيرا، فما بالك بالذي خلقك وجعل لك الرحمة (الرزق والنعم)، ألا يكون هو الأولى بالشكر والثناء والعبادة؟ إنّ الشكر والعبادة صلة لا تنقطع بين الرّحمن وخليفته، فمن تمسّك بها تمسّك بالصلة، ومن تخلى عنها وقطعها انقطعت الصلة معه، وعندما تنقطع الصلة بمن يمدك بالخاصية والصفة تنعدم خاصيتك وصيقتك به، ولهذا عندما تنقطع صلة الخليفة بمن استخلفه يفقد صفته التي على أساسها استخلف في الأرض. ولذا لا يخلف الرّحمن إلا من آمن به واستمد منه صفة الرحمة التي على أساسها خُلق على الأرض، { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ } 488 جاءت الخلافة على حالة الجمع (خلائف) وهذه تدل على خليفة سابقة وأخرى لاحقة، وهكذا تتوالى، (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فهو لم يخلقكم أيها الخلائف نسخة واحدة، بل خلقكم على حالات من الفروق الفردية، وبطبيعة الحال لو خَلق الرّحمن بني الإنسان نسخة واحدة لكان أمر الخلق أهون مصداقا لقوله تعالى: { وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخُلُقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } 489، ولأنه هو مصدر الخلق والإعجاز، أراد لنا أن نكون غير متناسخين كورق السحب الذي يستخدم في الطباعة، ويريد لنا أن نعرف أنّه القادر على كل شيء (الكل والجزء والمتجزئ من الدقيق إلى الأدق منه وإلى ما لا نهاية)،

488. الأنعام، 165.

489. الروم 27.

ولهذا لم يخلق الرَّحْمَنُ في خلقنا اثنين متماثلين ومتطابقين بالتمام حتى ولو كانا توأمين، بل جعلنا متكاملين في خلقه، فرفع بعضنا فوق بعض درجات (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) في هذا الأمر يقول الشيخ متولي الشعراوي رحمه الله: "أي أن البعض قد رُفِعَ، والبعض الآخر قد رُفِعَ عليه، فكل واحد مرفوع في جهة مواهبه، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه" 490. ولو جعل الله تعالى البشر على نسخة واحدة، في هذه الحالة لا يحتاج أحدنا للآخر، ولو لم يحتج بعضنا لبعض، ما كُنَّا في حاجة للتراحم بيننا، ولهذا من مبررات نزول الرحمة أنّ البعض دائما في حاجة للبعض. ولذا فإنّ الرحمة لا تنزل إلا بين طرفين، مالك ومحتاج، فالمالك هو الذي بيده الخير، والمحتاج هو الذي يفتقد إليه. والمالك المطلق هو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، ومالك الجزء أو المتجزئ، هو الذي يمتلك شيء ويفتقد لأشياء، ولهذا مالك الجزء والمتجزئ مهما امتلك من أشياء فهو في حاجة لأشياء أخرى. كالطبيب يحتاجه المريض، وإذا مرض الطبيب هو الآخر سيكون في حاجة لطبيب غيره سواء في تخصصه أو في تخصص آخر، ولذا فإن المريض الواحد يحتاج إلى عدد كبير من الأطباء حيث تنوع الأمراض وتعدددها، وهكذا لو كان المريض صاحب حرفة فالطبيب هو الآخر في حاجة لخدماته الحرفية، فلو كان حياكا أو بناء أو سائقا أو طباحا أو حارسا فالطبيب سيكون في حاجة ماسة لخدماته، وهكذا تنوع المهن والحرف وتعدد مثلما تتعدد المهارات والخبرات، ليتمم البعض إشباع حاجات البعض، حيث لا كمال للخليفة، بل الكمال لمن خلق الخليفة.

490 . تفسير الشعراوي. المجلد السابع، القاهرة: أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص 0029.

يقول الله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} 491. الزَّبُورِ هو الكتاب الذي أنزل على داود عليه الصَّلَاة والسَّلَام، والذِّكْر هو التوراة، (إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) الصالحون هم الخلفاء دون غيرهم، فغيرهم هم الذين يعيشون عليها مادّة، ولا يعيشون عليها قيمة وفضيلة فالخليفة هو الذي استمد الخلافة من الله تعالى. هو الذي يستمد جميع صفاته وخاصياته من القوّة التي تحتويها أسماء خالقه تعالى التي ستتضح بعونه بإتمام هذا العمل الذي نأمل أن يكون فيه حجة لنا لا حجة علينا ونأمل أن يكون فيه خيرا.

مع أنّ الرّحمن عزّ وجلّ خلق الإنسان من صفاته الكاملة، إلا انه لم يخلقه على صفات الكمال، فلو خلقه على حالة الكمال، فلم يعد المخلوق في حاجة لخالقه، وحينها يصبح للخالق شركاء، ولهذا خُلِق الإنسان ضعيفا حتى يستمد الرحمة من القوي تعالى. وباستمداده من الرّحمن رحمة يمتلك مقاليد القوّة التي تجعله على الأرض خليفة.

خلافة الأرض مسؤولية وأمانة، فمن يحافظ عليها حافظ على الأمانة، ومن لم يحافظ عليها يخونها، ولذا فالأمانة قيمة طيّبة، ومن يتصف بها يقال له أمين، ومن لا يتصف بها يقال له خائن، وهكذا حال الخلافة: فمن كان مؤتمن عليها وُصِفَ بالخليفة، ومن خانها فلا يعد من الذين يتصفون بها من شيء. يقول الله تعالى: {وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} 492 أي يجعلكم سادة فيها، ولأجل أن تكونوا سادة فاعملوا على مكانتكم، وإلا ستكونوا عليها بدون مكانة، أي بدون قيمة تذكر، فالمكانة درجة من الرقي القيمي تجعل الإنسان في

491. الأنبياء، 105.

492. النمل، 62.

حالة هيبية حتى ينال الاعتراف والتقدير من الآخرين. {وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ} 493 فمكانة الدين لا يؤمنون هي البقاء في حياتهم على الكفر حتى بلوغ العذاب الأليم، ومكانة المؤمنين هي الرفعة في الحياة الدنيا والجنة في الحياة العظمى. ولذا فمن يكن على حالة الرفعة حتى بلوغ الجنة هو الذي يرث الأرض ولم يكن الأمانة (الخلافة) فينل الجزاء الأوفر.

{وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} 494 الأرض التي استخلفوا عليها يقدرونها كأمانة حق قدرها، فلا يعبثوا فيها فسادا، بل يحافظون عليها محافظة أمانة، ولأجل ذلك يمشون عليها هونا، برقة وأدب مع رفعة وتقدير للفضل الذي استخلفوا به. {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} 495 الأمانة هي الخلافة التي ليس بالأمر الهين أن تتم المحافظة عليها، ولهذا لو عرف الإنسان عاقبة تقصيره كيف تكون، ما حمل الأمانة باعتبار أنه لم يخلق على الكمال، فالإنسان فيه من القصور ما يجعله دون المستوى الذي تتم به المحافظة على الأمانة، ولهذا كان ظلوما جهولا. ولكن من يأتي الله بقلب سليم يجعله على حالة استثناء من قاعدة الجهولة مصداقا لقوله تعالى: {إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 496 ولهذا فالأعمال بالنيات، فمن آمن بقلبه اهتدى، ومن لا يؤمن به فقد ضل {فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ

493. هود، 121.

494. الفرقان، 63.

495. الأحزاب، 72.

496. الشعراء، 89.

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ {497}. ولهذا إذا قيل للكافرين { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا } 498 فكانت الإجابة بقوله تعالى { لِلرَّحْمَنِ عِلْمٌ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ } 499 في هذه الإجابة، فُدم تعلّم القرآن على خلق الإنسان، لأن المخاطب له ملكة التمييز التي بها يتبين الخطأ من الصواب، وبها يتبين ما يجب ويقدم عليه وما لا يجب ويتعد عنه، ولأنّ من يراد له أن يكون خليفة في الأرض وقع في الخطيئة، نتيجة الإغراءات والإقدام على ما نهى الله عنه، مع أنّ له عقل يُمكنه من التبيّن قبل الإقدام على الفعل، مع أنّه حُدِّرَ إلاّ أنّه غَفَلَ حتى غُرِرَ به ووقع في الخطيئة. وحتى لا يتكرر مثل هذا الفعل، قُدِّم القرآن الذي فيه البيان الكامل والواضح لمن يريد أن يتبين ويميز بين الحلال والحرام والصواب والخطأ (ما يجب الإقدام عليه وما يجب الابتعاد عنه) حتى لا تتكرر الخطيئة. ولذا ينبغي على الخليفة أن يتبين أولاً قبل أن يفعل أو يسلك ثانياً، ولهذا جاء (تعلّم القرآن) مُقدّماً على (خلق الإنسان) لِمَا يحتويه ويتضمنه من البيان المفصّل حتى يتيسر للإنسان الذي ورد لا حقاً في سورة الرَّحْمَنِ، أن يتعرف على ما يجب قبل أن يقدم على فعله.

بسورة الرَّحْمَنِ تتزيّن الأنفُس وتتطهّر وإذا تبين الخليفة تمكّن من الوقوف على ما ورد فيها من إعجاز، يُطمئن القلوب المؤمنة، وينير البصر كما هوّ ينير البصيرة، ويرشد الخليفة لدروب الحياة الطاهرة، وإلى خشية الرَّحْمَنِ والخشوع له عزة. ولهذا كانت سورة الرَّحْمَنِ عروس

⁴⁹⁷ يونس 108.

⁴⁹⁸ الفرقان 60.

⁴⁹⁹ الرَّحْمَنِ 1. 4.

القرآن كما روي عن عليّ رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "لكل شيء عروس وعروس القرآن سورة الرّحمن" 500.

قال الله جلّ جلاله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} 501 استغفر الله فالرّحمن (لم يلد ولم يولد) ولهذا لم يكن له مثيل بالمطلق. فلوا كان له ولد صدق من قال: {قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} 502 بمعنى قل يا محمّد صلّى الله عليه وسلّم، بدون تردد إن كان للرّحمن ولد لكنت أنا أول العابدين لله على انه لا ولد له، قلها لأنك تعرفني وتؤمن بما أنزلت، ولا تشرك بي، وقل بدون تردد: (الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار) ولذلك فمن أراد أن يؤمن فليؤمن ومن أراد أن يكفر فليكفر. {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} 503. إذن لسان حال الخليفة في خلقه لسان توحيد، وما الخروج عنه إلا ابتعاد عن قول الحقّ وفعل الحقّ. فلو كان لله ولد، لكان له بالضرورة والد، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 504. وعليه أتساءل: كيف يؤمن الكفرة بأنّ الله ليس له والد، ويؤمنون في الوقت ذاته بأنّ له ولد؟ فبطبيعة الحال بما أنّه لا والد له. إذن لا يمكن أن يكون له ولد. وهذا الأمر يجعله يختلف عن أمر الخليفة الذي خُلق ليتكاثر حتى النهاية، على قاعدة والد وولد.

⁵⁰⁰ القرطبي الجامع لأحكام القرآن. المجلد 17 دار الكتاب العربي ص 151.

⁵⁰¹ مريم 88.

⁵⁰² الزخرف 81، 82.

⁵⁰³ المائدة 73.

⁵⁰⁴ الإخلاص 1 . 4.

{ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتَنَلَّوْا عَلَيْهِمُ
الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ } 505 الأمة التي أنت فيها رسول هي
خالفة لأمم سابقة عليها، وجاءت كلمة (كذلك) لتدل على أحوال
الأمم السابقة التي هي الأخرى بَعَثَ اللهُ فيها رُسُلًا وكفر البعض من
كل أمة بهم، ولذا لا استغراب إن كفر بعض من قومك بالرحمن، لكن
عليك أن تقول الرحمن ربي لا إله إلا هو، وبلغ به وتوكل على ربك
الذي هو مرجعك في كل حين. فَإِنَّ تَمَسَّكَ بِالرَّحْمَنِ رِبًا وَاحِدًا
يَجْعَلُكَ الْقُدُوةَ الْحَسَنَةَ لِمَنْ آمَنَ بِكَ رَسُولَ وَرَحْمَةً، { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } 506 أيها النبي الكريم في رسالتك البيان، والحنان
فيك قدوة، يا محمد أنت رحمة، وبشائر للعباد، خاتم الأنبياء أنت،
واحد رب العباد، في الشهادة، والصلاة لا إله إلا هو، والخليفة في
ازدياد، جئتنا بالحق رحمة والسلام، فصحونا بعد غفلة، وصدقناك
الكلام، لا إله إلا أنت يا رحيمًا في البداية والختام. ورسولًا يا محمد
أنت رحمة للأنام.

ولأن محمد صلى الله عليه وسلم جاء رحمة للعالمين مصداقًا لقوله
تعالى: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } 507 لا استثناء لأحد من رحمة
الله، إلا الذي يستثني نفسه منها بمعصية أمر الطاعة، فرحمته الواسعة
في عمومها كرسالة محمد صلى الله عليه وسلم في عمومها، ولذا كانت
رسالته رحمة للعالمين. تستهدف الناس كافة بالرحمة، ولا تخص قوم أو
مجتمع بذاته. فخليفة الله وحدة واحدة، ولهذا يستهدفها الله برحمته
دون استثناء، { فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ

⁵⁰⁵ الرعد 30.

⁵⁰⁶ . الأنبياء 107.

⁵⁰⁷ . الأعراف 156.

سَاجِدِينَ} 508 النفخة هي الرحمة التي بها يخلف المخلوق مستخلفه، وهذه هي الرحمة، التي جعلت من بني آدم خلفاء على الأرض، فالنفخة هي انبعاث الحياة في النفس الإنسانية من الرحمن الرحيم. ولذا فمن استمد روحه من روح الله، يخلفه بالثبات والبقاء على روح الله، وروح الله ليس هي الأنفاس التي فيها حركة الأوكسجين شهيقا وزفيرا، بل هي الانطباع بروح الله في صلة الرحم، لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولإتباع ما أمر به وللانتهاء عما نهى عنه. ولعمارة الأرض.

فالإضافة في روحي للتشريف والتكريم، والروح جسم لطيف روحاني والدليل على ذلك قول الله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 509 في الآية أخبار بثلاثة أمور:

1- أخبار بتوفيها.

2- وإمساكها.

3- وإرسالها.

{فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} 510 بما أن الله تعالى هو خير حافظا. إذن هناك حافظين غيره، إلا أنهم قُصِّرَ عن التساوي معه في مستويات الحفظ ودرجاته. ولأنه هو الرحمن، والبشر الذين نَفَخَ فيهم من روحه هم خلفاؤه في الأرض، فهم بطبيعة الحال في أساس

508. الحجر 29.

509. الزمر 42.

510. يوسف 64.

خلقهم الرحمة، ولكن لا يمكن أن يتساواوا معه، بناء على القاعدة التي تقول (لا يمكن أن يستوي المخلوق مع خالقه) ولهذا قال تعالى: (ونفخت فيه من روحي) ولم يقل (نفخت فيه روحي) فلو قالها لكان الخليفة متماثل بالتمام مع مستخلفه وهذه تعترض مع قاعدة المخلوق والخالق من حيث انعدام التساوي أو حتى الاقتراب منه. فالرَّحْمَنُ هو اسم الله العظيم، ولم يكن صفة له، بل الرحمة صفة استمدت من اسم الرَّحْمَنِ، والفرق كبير بين أن تكون الرحمة صفة وبين أن تكون مستمدة من الأصل ومرتبة عليه. فاسم الرَّحْمَنِ مصدر لكل رحمة، ولو لم يكن للرحمة مكوّن ما كانت، أي لو لم يكن الرَّحْمَنُ ما كانت الرحمة صفة مفضلة بيننا. ولذا فالرَّحْمَنُ هو بيت الرحمة، وليس هو الرحمة، ولهذا بعث الرَّحْمَنُ لنا نحن بني الإنسان الأنبياء والرّسل رحمة. وجعل لنا الليل لنسكن فيه رحمة، وجعل لنا النهار معاشُ رحمة، وجعل لنا المحبّة والأرزاق والكثير من النعم التي لا تحصى رحمة. قال تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} 511 استوى على العرش بوسع رحمته، وتحكّم بسيطرة تامة على كل شيء خلقه، والحمد لله الذي استوى على العرش بالرحمة حتى عمّت كل شيء، ولأنها عمّت كل شيء، فكل شيء يُسَبِّحُ لِلرَّحْمَنِ. {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ خَلِيمًا غَفُورًا} 512 كل المخلوقات تسبح لله تعالى باللغة التي هي عليها، عرفانا بوسع رحمته التي عمّت كل شيء، ولهذا سبقت النعم وواسع الرعاية خلق الكائنات الحية، وإلا هل هناك من يعتقد أنّ خلق الكائنات كان سابقا على ما يُشبع حاجاتها المتعددة والمتنوعة؟ المأكّل والمشرب والمأمن كانت وفرة تامة (الجنة) في الحياة الأولى

511. الرَّحْمَنُ 5.

512. الإسراء 44.

بالنسبة للجنس البشري، ثم الأرض (الكنز المكثور) الممتلئة في باطنها وعلى ظاهرها بمسببات الإشباع، وهذه جميعها رحمة. ولولا ذلك ما كُتبت الحياة للكائنات الحية، وإلى يومنا هذا ويوم غدٍ فمعظم الكائنات ما دون الإنسان ترتع فتشرب وتأكل وتنام تحت واسع رحمته بدون أن تُسهم في إنتاج ما يُشبع حاجاتها، فلو لم يكن الماء سابق الوجود على من هو في حالة ظمئٍ ما شرب وارتوى، وهكذا لو لم يكن الكلاً سابق على من به جوع ما أكل وشبع وكلها تُسبِّح بحمد الرحمن الذي على العرش استوى، وفي ذلك يقول تعالى: {فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا} 513 فمن رحمته تعالى تجدد لأحياء الأرض بما ينمو عليها من خيرات ومما تفيض به من باطنها من ماء، فكلما جذبت انبتت عشب وكلاً جديداً وهكذا رحمة الرحمن تتجدد، والتسبيح باسمه وحمده وشكره على رحمته ومن حول العرش لا ينقطع.

{الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} 514 التسبيح شكر وعرفان بمن عمّت رحمته كل شيء، ولأن العرش محمول من قبل المكلفين به من الملائكة العظام، قال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ} 515.

ومن يستخلفه الرحمن ينبغي أن يكون أول المسبِّحين (الحامدين الشاكرين) له، ولذا فمن يخلقه الرحمن ينبغي أن يكون رحيمًا بنفسه

513 . الروم .50

514 . غافر .7

515 الحاقة .17

وبزوجه وأبنائه، ووالديه وعلى جميع من يُسبح للرحمن تعالى. ولأن
الرحمن استوى على العرش بالرحمة، وبعث الأنبياء والرسل رحمة للعباد،
ولم يرسلهم لغير ذلك، لذا فإن الخليفة هو أول المستهدفين بالرحمة،
ولهذا {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ
بِالطَّاعُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا
وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 516 فالإكراه هو ما يناقض الرحمة، حيث احتوائه
على المظالم والاستعباد، وعدم احترام من يراد له أن يكون خليفة
للرحمن الرحيم. ولهذا فُرسل الله رحمة يُبَلِّغون النَّاسَ بِمَا يُرْضِي الرَّحْمَنَ
تعالى، ويحرضوهم على فعل الخيرات، وينذروهم من الوقوع فيما يؤدي
إلى الشرور. ويحرضوهم على إتباع الحلال والابتعاد عن الحرام. ولذا
فهم رحمة، لإبلاغ العباد بما لا يعلمون، حتى لا يكونوا في غفلة من
أمرهم وما يُحيط بهم وبما ينتظرهم.

رحمن على وزن فعلان، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة،
والزيادة في الصفة، فكلمة زادت الصفة الراحة للخليفة كان خير
خليفة، وكلمة قلت قل خيره. وفي هذا الأمر يقول الله تعالى: {وَإِذَا
قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} 517 قراءة القرآن
عن تدبر بدون شك زيادة رحمة، لمن يقرأه ولمن يستمع له وينصت،
ولأن في الإنصات تتبع وانتباه عن وعي، لذا فهو يُمكن من الوقوف
على الحكيم التي يتضمنها في الكلمات والجمل المقروءة في زمن
الإنصات. ولأنها حكم من الله تعالى، فهي ذات أثر موجب، تؤدي
إلى الصحوة، بعد غفلة من الأمر، وهذه الصحوة فطنة إدراكية تجعل
المستمع والمنصت لكلام الله عز وجل على حالة من التبيين، وهذه

516. البقرة .256.

517. الأعراف .204.

رحمة من الرحمن الرحيم. حيث ظهور الفعل المترتب على الاستماع والإنصات للقرآن الكريم وهو الإيمان (الانتقال من حالة الخليفة الكم إلى حالة الخليفة القيم والفضائل).

إنّ الاستماع للقرآن والإنصات له ليس غاية في ذاته، بل الغاية هي بلوغ المترتب على قراءته، والاستماع له، والإنصات إليه، والمترتب على كل ذلك هو (الرحمة) التي تتحقّق بالهداية، أو الوقوف على إعجازه وإظهار كنوزه من مكانها، والانتقال من حالة الغفلة إلى حالات اليقظة، فالظالم إذا اهتدى يصبح عادلاً، والكافر يصبح مؤمناً، والكاذب والمنافق وشاهد الزور يصبحوا صادقين، فالمؤمن لا يأكل إلا حلالاً، ولا يسرق ولا يزنا، يقول الحقّ ويقدم على فعله، ولا يسلك إلا خيراً. وفي ذلك يقول الرحمن تعالى: ﴿الم تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ 518 تشير (تلك) إلى (الم) التي في ظاهرها تقرأ أحرف، وفي مضمونها تُدرك آيات إعجازية من الكتاب الحكيم تهدي للتي هي أحسن، وهي رحمة لمن هم يُحسنون القول والفعل، وخاصة في أدائهم للصلاة وإيتائهم للزكاة وإيقائهم بالآخرة. مع أنّ الرحمة مطلقة المفهوم والدلالة، إلا أنّها في هذه الآيات جاءت للخاصة (للمحسنين) فإذا أعجبك فاعل خير (مُحسن)، فعليك أن تعرف أن للإحسان معايير قيمية ودرجات قياسية، تتفاوت من عملٍ صالحٍ إلى عملٍ أكثرٍ إصلاحاً منه، وهكذا بما أن بين الناس محسنين، فبالطبيعة هم يتفاوتون في درجات إحسانهم عند الله، فكلما ازدادت عطاء في الأوجه الخيرة ازدادت إحساناً وبركة، ولهذا إذا رأيت محسناً تأكد بأن هناك من هو أكثر إحساناً منه، ولذا فإن الرحمة تعم

518. لقمان 1 - 3.

المؤمن وغير المؤمن وتخص بأعلى درجاتها المحسنين الذين يقدمون على فعل الخيرات.

يقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} 519 لعلكم تُرحمون ترتبط بما هو سابق وهو الإصلاح بين الأخوة، وبما هو آتي وهو الرحمة، حيث لا يتحقق اللاحق إلا بنوعية الفعل السابق، فإن كان خيرا تكون الرحمة هي الفعل المترتب عليه، وأن كان شرا يكون العقاب هو المترتب عليه، ولأن أفعال التفضيل إصلاحية، لذا تُقدّم أفعال الرحمة على أفعال العقاب.

الرحمة صفة تُغرس من الذات الإلهية في الذات الإنسانية، التي هي في أساس خلقها نفخة من روح الرحمن. ولهذا فالقاعدة هي: (خُلقت الأرض رحمة بالإنسان، وخلق الإنسان رحمة عليها)، والاستثناء هو: (أن يُفسد البعض من بني الإنسان الأرض التي خُلقت رحمة به وبجاله). ولذا فالخليفة هو الذي يستخلف في الأرض لإصلاحها لا أن يُفسد فيها. ولذلك يُعد إصلاحها رحمة.

ولذا فإن الرحمة تعم المؤمن وغير المؤمن وتخص بأعلى درجاتها المحسنين الذين يقدمون على فعل الخيرات: فالرحمة الخاصة وأقصد بها أن يتجلى الله على قلبك، فتمر عليك ساعة لا تعد لها الدنيا وما فيها والعبد الصالح يسعى للوصول للرحمة الخاصة، فهناك تقريب وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر وهناك نور يقذفه الله في قلبك، فترى به الخير خيرا والشر شرا وهناك شعور بأن الله يحبُّك، وهناك مشاعر لو وزعت على أهل بلد لأسعدتهم وهذه الرحمة الخاصة تحتاج لأن

519. الحجرات 10.

يكون للعبد مع الله مودة، سهر الليالي في ذكره، غض البصر عما نهي عنه، إنفاق الأموال في الوجه الحق، احترام العلماء وحضور مجالسهم، تفقد اليتامى والفقراء والمساكين وتقديم العون لهم، فحينما تشمر للعمل الصالح وحينما تقدم شيئاً ثميناً لأخيك المسلم. هذه الجهود المتتابعة المتراكمة الكثيرة المديدة تتوج بما يسميه العارفون بالله بتجليات الله على قلبك فتشعر بالسعادة التي لا يعادلها الدنيا وما فيها وهي من رحمة الله الخاصة وجنته في أرضه والرحمة الخاصة مشروطة بالطاعة والمجاهدة وبذل المال وعدم تذييره، ومعاونة الضعيف ومعاونة الأرملة وتفقد الجيران وتلاوة القرآن هذه من القنوات التي تصلك من خلالها الرحمة الخاصة.

وبناء على قاعدة الأرض رحمة للإنسان، والإنسان رحمة عليها، يستخلف البشر بعضهم بعضاً أمماً وشعوباً، على قاعدة عبادة الله والإحسان بالوالدين مصداقاً لقوله عز وجل: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا} 520 في هذه الآية الكريمة أمر ربك وحكم بعبادته دون غيره، وهذه رحمة لا تجعلك تفكر في معبود آخر من دونه، وأمر بالإحسان للوالدين، حتى يتم نيل رضاها، وهذه رحمة. وبما أنّ نيل رضا الوالدين رحمة على الأبناء. إذن الأبناء رحمة على الوالدين، ولهذا يُستخلف البشر على أساس قاعدة الرحمة المستمدة من (الرحمن). ولذا فإن نيل رضا الوالدين رحمة، ونيل غضبهما عذاب، فالرحمة مفاتيح خير، والغضب شواظ من نار ونحاس. قال أبو داود والترمذي، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

520. الإسراء 23.

وسلم: "الراحمون يرحمهم الله تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء" 521.

بناء على ما تقدم لا يسع الخليفة إلا أن يقول ما قاله الله تعالى:
{ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } 522.
{ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ } 523.

الرحمن من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته الكريمة، واسم الرحمن لا يطلق إلا على الله تعالى من حيث أن معناه لا يصح إلا له، إذ هو الذي وسع كل شيء رحمة، أما الرحيم فانه يستعمل في غيره وهو الذي كثرت رحمته، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 524 وقال في صفة النبي عليه الصلاة والسلام: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 525 والرحمن إحسانه في الدنيا يعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة يختص بالمؤمنين وعلى هذا قال: {وَاصْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَايُ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ} 526، وفي ذلك تدل الآيات الكريمة على رحمة الله الواسعة في الدارين، إلا أن رحمته في

521 المعجم الكبير للطبراني، ج 20، ص 108.

522 المؤمنون 118.

523 المؤمنون 109.

524 النور 5

525 التوبة 128

526 الأعراف 156

الدنيا عامة (المسلم والكافر)، ورحمته في الآخرة خاصة بالمستخلفين الوارثين.

الرَّحْمَنُ اسم عظيم لله الأعظم على صيغة فعلان الدالة على المبالغة، وهناك علاقة قوية وتداخل في الدلالة مع الاسم الودود في قوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} 527 وقوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْعَفُورُ الْوُدُودُ} 528.

وحظ الخليفة من اسم الله الرَّحْمَنُ أن يتخلق بشيء مما يدل عليه قدر الاستطاعة البشرية، فيكون رحيمًا بخلق الله، مؤيدًا لأرباب الحق، ناصرًا لأولياء الله، لطيفًا في معاملاته لخلق الله، رفيقًا بهم، مملوء القلب بالرفقة والرحمة، محبًا لله ومحبًا لكل من يحبهم الله، ولكل ما يحبه الله.

أكثر ما ورد اسم (الرَّحْمَنُ) في سورة الرحمة الكريمة، وهي سورة مريم، إذ تتبدئ هذه السورة بذكر الرحمة، يقول تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا} 529 ثم يبدأ تردد اسم الرَّحْمَنُ في هذه السورة خصوصًا في قصة مريم وإبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام، حين قالت مريم: {فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} 530 كما ورد اسم الرَّحْمَنُ ضمن سياق قصة إبراهيم عليه الصَّلَاة والسَّلَام، إذ يقول تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا

527 - هود 90

528 - البروج 13 - 14

529 - مريم 2

530 - مريم 26

تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ
أَهْلِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا {531} وقصة إبراهيم
عليه الصلّاة والسّلام تشكل أسلوبها وفق معيار الخير الذي يريده الله
تبارك وتعالى للخلق أجمعين، فإبراهيم عليه الصلّاة والسّلام صاحب
شخصية اتسمت بالرضا والحلم والود حاول أن يهدي أباه إلى الخير
الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه، فكان أسلوب الحوار في هذه القصة
مبني على الاحترام واللطف، وبهذا اللطف في الخطاب يتوجه إبراهيم
إلى أبيه، يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه، وعلمه إياه؛
وهو يتحبّب إليه فيخطبه: (يا أبت) فقد كرر (يا أبت) أربع مرات،
ففيها من التحبّب ما ليس في (أبي) وفي ذلك دليل على سماحة نفس
إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام من ناحية وتلفظه في إيصال دعوته من
ناحية أخرى. ويستمر إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام في خطابه مع أبيه
ويسأله: (لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا؟) والأصل
في العبادة أن يتوجه بها الإنسان إلى من هو أعلى من الإنسان وأعلم
وأقوى. وأن يرفعها إلى مقام أسمى من مقام الإنسان، فكيف يتوجه
بها إذن إلى ما هو دون الإنسان. بل إلى ما هو في مرتبة أدنى من
مرتبة الحيوان، لا يسمع ولا يبصر ولا يملك ضرا ولا نفعا. إذ كان أبوه
وقومه يعبدون الأصنام كما هو حال قريش الذين يواجههم الإسلام.
وفي حوار سيدنا إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام مع أبيه الذي يبني في
كل ثنياته على جو الرحمة والاحترام من إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام
لأبيه الكافر، وهنا يختر لنا سؤال ما دلالة استخدام الرحمة في هذا
المقطع بالذات، إذ تردد مرتين متتاليتين، في قوله تعالى: { يَا أَبَتِ لَا

تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ ابْنِي أَخَافُ أَنْ
يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا} 532 والملاحظ أن
الآيتين تتحدثان عن المعصية والعذاب فلماذا أتى اسم (الرَّحْمَنِ) فيهما
مع أنّ من الأولى أن يأتي باسم فيه دلالة على العذاب أو العقوبة، إلا
أن التحليل لسياق الخطاب يبين أن العذاب كان مفترضا من إبراهيم
عليه الصَّلَاة والسَّلَام وليس متحققا، ولهذا قال: (أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ
مِّنَ الرَّحْمَنِ) على الظن وليس على اليقين، وغلب الظن على اليقين في
هذا العذاب باستعمال لفظ (الرَّحْمَنِ) رَأْفَةً بِأَبِيهِ وعطفا عليه، وكأنه
يريد أن يقول أنه في داخله لا يتمنى أن يحدث هذا العذاب لأبيه
مستعملا صيغة الرحمة للدلالة على هذه الأمنية، ذلك أن العذاب في
حالة تحقّقه هو حرمان من رحمة الله تعالى، فضلا عن ذلك أن الجرم
الكبير يحرم صاحبه من رحمة الرحمان ممّا يترتب عليه الوصول إلى نقطة
النهاية التي يكون عندها تحقّق العذاب المقدر. فكان اسم (الرَّحْمَنِ)
إشارة دائما إلى التفكير والتروي من اجل نيل الرحمة وبخاصة في الأمور
المهمة التي يكون في ارتكابها فقدان الرحمة وتحقّق العذاب، أما وروده
في قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ
أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا} 533 فان المقام هنا يقتضي الرحمة ولا
يقتضي أي شيء غيرها، فقد تحققت كل علامات القدرة وأصبح
الجميع في موقف اليقين المتحقّق من قدرة وعظمة وجلال الله تبارك
وتعالى، فالموقف شديد وحاسم والكل يساقون إلى رب العزة، إذ يقول
تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ
فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} 534 فحين يبعثون من قبورهم ويقومون منها،

532 - مريم 44 - 45

533 - النبأ 38

534 - طه 108

يدعوهم الداعي إلى الحضور، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، (فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا) أي: إلا ما يدل على الاحترام والأدب والذوق الرفيع والطاعة المتطلعة إلى نيل الرحمة، وبذلك تكون المخافتة همسا بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظارا لحكم الرحمن فيهم، والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، فتكون الدعوة لجميع الخلائق دون استثناء، والكل ينتظر حكم ارحم الراحمين جلّ جلاله، والأمل بالرّب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يرى الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه، فالأمل قائم لديهم، لأنّ مرجعياتهم عن هذا اليوم تعود إلى سياقات تتشكل جميعها من رحمة رب العالمين، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا} 535 وقوله تعالى: {يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا} 536 وقوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِلَ الْمَلَائِكَةُ نَزِيرًا لِلْمَلِكِ يُؤَمِّدُونَ الْحَقَّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا} 537 فالسياقات هنا كلها جاءت واسم (الرحمن) متشكل فيها مما يعطي انطبعا عن الرحمة الواسعة التي تنتظر الخلق جميعا، ومن المرجعيات التي تنم عن رحمة الله الواسعة ما ورد عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا فَضَى الْخُلُقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" 538.

535 - طه 108

536 - طه 109

537 - الفرقان 25 - 26

538 - صحيح البخاري ج 22 ص 432

ثم يتكرر اسم (الرَّحْمَن) مرات أخرى في سياقات أخرى في هذه السورة وأغلبها سياقات يتضح فيها أسلوب التوعد والعقاب، يقول تعالى: {ثُمَّ لَنُنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا} 539 وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَعْفُ جُنْدًا} 540 وقوله تعالى: {أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا} 541 كما يتكرر بآيات أخرى بسياقات فيها شكل من أشكال الرحمة، يقول تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} 542 وقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} 543 وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} 544 فما دلالة استخدام هذا التضاد الظاهر لاسم الله تعالى (الرَّحْمَن جَلَّ جلاله) بسياقات عذاب مرة وبسياقات رحمة مرة أخرى، والتأمل الدقيق للسياقات جميعا يوصل إلى نتيجة أن سياقات العذاب تنتهي في الأخير إلى شكل من أشكال الرحمة، فهو عذاب ظاهري على شكل توعد وليس عذاب متحقق، ولهذا اتبع الله تعالى كل سياق من سياقات العذاب سياقاً من سياقات الرحمة أو سبقه به، إذ يقول تعالى: {فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمُ

539 - مريم 69

540 - مريم 75

541 - مريم 78

542 - مريم 85

543 - مريم 93

544 - مريم 96

عَدَا يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ
وَرَدًا {545}.

ينقدح في الذهن سؤال جوهري عن علاقة اسم (الرَّحْمَن) بسورة
الرَّحْمَن، ولماذا سميت هذه السورة (عروس القرآن) ولا يمكن الإجابة
عن هذا السؤال إلا بتفحص السياقات التي شكلت مفاهيم السورة
وهي مفاهيم تنتمي بمجملها إلى شمولية اسم (الرَّحْمَن)، بمعنى أن سورة
الرَّحْمَن هي شرح قرآني لاسم الله تعالى وصفته العظيمة (الرَّحْمَن)، فكل
آية وكل سياق في السورة يشكل مظهرا من مظاهر قدرة الرَّحْمَن، ولهذا
ابتدأت السورة بلفظ (الرَّحْمَن) واستمرت من بدايتها إلى نهايتها بتعداد
مظاهر (الرَّحْمَن) سواء على المستوى الدنيوي أم على المستوى
الأخروي إذ في كليهما تتجلى عظمة (الرَّحْمَن)، ولهذا قيل عن الرَّحْمَن
أنه رحمن الدنيا والآخرة، قال تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ
وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ
وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا
فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ
مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمْ تُكذِّبَانِ} 546 السورة تؤكد هذه الثنائية الرحمانية لاسم
(الرَّحْمَن) فهي لا تعدد أشكال أو مظاهر الرحمة الدنيوية فقط بل أنها

545 - مريم 84 - 86

546 - الرَّحْمَن 5 - 25

تتجاوز هذه المظاهر إلى مظاهر الرحمة الأخروية التي شكلتها على مستويين داليين، مستوى عالٍ ومستوى أعلى، أما الأول فيمثله وصف الجنة الأول الذي هو للمرتبة العليا، يقول تعالى: {وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ بَحْرَيْنِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهِنَّ الْياقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ} 547 بينما المرتبة الأعلى التي هي تخص الأنبياء والشهداء والصدّيقين فلهم جنة مختلفة، يقول تعالى: {وَمَنْ دُونَهُمَا جَنَّاتٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَاتٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَكَبِّرِينَ عَلَى زُفْرٍ حُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} 548.

تشكل رحمة الله تبارك وتعالى ضمن ثنائية الدنيا والآخرة ممّا يرتسم لها أطر تحددها وتكسبها مساحات تتوزع بحسب الإرادة الإلهية المتحققة فيها الرحمة المطلقة، وهذا يحيلنا إلى حديث الرسول عليه الصلّاة والسّلام ليرسم لنا الرحمة التي أرادها الله تبارك وتعالى لعبده

547 - الرَّحْمَنُ 46 - 60

548 - الرَّحْمَنُ 62 - 77

وفق ترتيب أَرَادَهُ اللهُ تَعَالَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فِيهَا يَتَعَاطُونَ وَبِهَا يَتْرَاحُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ 549

هنا تتجلى رحمة الله تبارك وتعالى من خلال تقسيمها وفق معطيات أَرَادَهَا سُبْحَانَهُ، بدأ من الدنيا التي تحضن مختلف المخلوقات فبالرحمة تعيش المخلوقات وتتوافق وتستمر حياتها وهذه المعيشة في الحياة صورة للرحمة التي رسمها شطر الحديث النبوي وهي متحققة وبتحققها نجد أن رحمة الله تعالى عظيمة جدا فصورها متكررة يوميا نراها ونتعجب ونسأل أنفسنا دائما ونحن نرى الأسد يلعب مع ابنه والنسر يقطع المسافات الطويلة لكي يجلب لأفراخه الطعام ويقوم هو بإطعامهم بنفسه صور تبهر العيون وتسحر العقول لماذا لا يأكل الأسد ابنه؟ لماذا لا يأكل النسر صغاره؟ هذه الأسئلة وغيرها تخرج من بوتقة واحدة مُشكَّلة حزما تبحث في اتجاهات مختلفة للحصول على إجابة لهذا النظام العجيب لكنها في نهاية المطاف تجد الإجابة، وهي أن نظام هذا الكون كله يسير وفق رحمة الرَّحْمَنِ، ولا يقتصر الأمر على الحيوانات بل أن للإنسان نصيبه الأكبر من ذلك، فتشكلات الإنسان من بداية الخلق إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها توحى بالرحمة التي أسبغها الله تعالى على خلقه، وهذه الرحمة المتحققة للجميع لا تنقطع بعد زوال الدنيا إنما تدخل منعطفًا جديدًا، إذ تتوسع أفاقها وتتفوق على الصورة المتخيلة لرحمة الله تعالى المرسومة من قبل عباده فمهما كانت الصورة المتخيلة لرحمة الله تعالى لا تصل إلى أي نسبة للصورة التي سوف يجدها عباد الله أمامهم يوم القيامة، إذ

يقول تعالى: {وَاصْبِرْ لِنَاصِرِي فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا
إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ
فَسَاكُنْ بِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا
يُؤْمِنُونَ} 550 أما قوله تعالى: {فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ
وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} 551 فهو يعرض الرحمة
لصنفين من الخلق، كانت لهم اليد الطويلة في تكذيب الدعوة
الإسلامية والوقوف بوجهها، وفي ذلك ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله
تعالى، وإتباع رسوله عليه الصلوة والسلام، فان أصروا على عنادهم
وكفرهم فحذرهم من نقمة الله تعالى وعذابه فإن بأس الله تعالى شديد،
ولا يرده شيء عن القوم المجرمين، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا
يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَمَنْ
تُؤْمِنُ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ
يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ
وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ هُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} 552.

والرحمة تتجلى بين العباد ضمن العلاقات القائمة التي رسمها الله
تبارك وتعالى بين الخلق جميعا من آدم عليه الصلوة والسلام إلى أن
يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا
خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ
عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} 553 سياق الآية هنا رسم بداية

550 - الأعراف 156

551 - الأنعام 147

552 - المائدة 41

553 - الحجرات 13

الخلق وفق تشكيل تقاربي يللم الأجزاء المتناثرة، ويجمعها بقصد التعارف ضمن الوعي المتحقق بين الجميع، مما يؤدي إلى خلق نماذج مختلفة يتحقق من خلالها التعارف، وهي الشعوب والقبائل، وهذا الشكل للخلق يمنحهم صفات منها التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ومن هذا التقسيم الكبير للخلق يتبلور تقسيم صغير إلا أنه يمثل القاعدة الأساسية لهذا الخلق وهو الأسرة المتكونة من الزوجين، إذ يقول تعالى: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } 554. هنا صورة من صور الرحمة التي بينها الله تبارك وتعالى للخلق أجمعين، فالجمع بين الرجل والمرأة آية من آيات الله تعالى الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط، فهذا الارتباط بين الزوجين يحيل إلى رحمة الله تعالى التي تكون هي الأساس في بناء الأسرة، فيها يكون التعاطف والتراحم والسبب في مواصلة الحياة، وان استمرار الأسرة وبقائها يمثل جانبا من جوانب رحمة الله تبارك وتعالى، وتتجلى صورة الرحمة في الأسرة بصورة الأمومة التي تمثل تشكلا من تشكيلات الرحمة الإلهية بدأ من الحمل، إذ يقول تعالى: { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ } 555 وقوله تعالى: { وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِإِحْسَانٍ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ

554 - الروم 21

555 - لقمان 14

المُسْلِمِينَ} 556 هنا صورة الأمومة في كل تجليتها تطرح عدة تساؤلات مبعثها أنها رحمة من رحمات الله تبارك وتعالى، فلولا رحمة الله تعالى لما تحقّق بناء الأسرة وفق هذه الصعاب التي تمر بها الأم.

ومن رحمة الله تعالى إرسال الرّسل، وهذا الأمر المتحقّق نتج عنه أن الخلق أجمع غيروا مسار حياتهم من الكفر إلى الإيمان وبتحقّق هذا التغيير، تتغير نهاية الخلق من النّار إلى الجنّة، وهنا تكون الرحمة الواسعة من الرّحمن الرّحيم، إذ يقول تعالى: {مَنْ اهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّٰ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} 557. وإرسال الرّسل يستند إلى أمر مهم جدا وهو العذاب المتحقّق في حالة عدم تلبية دعوة رسل الله تبارك وتعالى، يقول تعالى: {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} 558 وقوله تعالى: {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} 559 وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ} 560 هنا نجد أن السياقات كلها تحمل الخطاب إلى نهاية متوقّعة وهي العذاب، ومفردة العذاب ترسم معلما دلاليا مرتبطا باليوم الآخر، وهذا اليوم تتحقّق فيه

556 - الأحقاف 15

557 - الإسراء 15

558 - يونس 15

559 - هود 84

560 - الزخرف 64 - 65

كل خطابات الدنيا المختلفة من عذاب ورحمة، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا التحقق من خلال لفظة (سيق) التي بني فيها الخطاب للكافرين والمؤمنين، يقول تعالى: { وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ } 561 فهنا زمر الكافرين تساق زمرة بعد زمرة إلى نار جهنم، فيستوضح الخطاب هنا رحمة الله تعالى السابقة عليهم، التي كانت أمام أعينهم وحاربوها بكل الوسائل، ووقفوا منها موقف الجبار المتعطرس، والتذكير جاء على لسان خزنة نار جهنم { أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا } هذا هو مقصد الرُّسُل، اليوم تستوضح دلالته، وترى صورته المتحققة التي رسمت في الدنيا، والتذكير بالرُّسُل ورد مرارا في القرآن الكريم، يقول تعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفَرَىٰ بظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ } 562، وفي هذا السياق يستوضح شأن عظيم من شؤون الله تعالى، وهو شأن عدله ورحمته، ورضاه لعباده الخير والصَّلاح، وكرهيته سوء أعمالهم، وإظهاره أثر ربوبيته إياهم بهدائيتهم إلى سبل الخير، وعدم مباغتتهم بالهلاك قبل التقدّم إليهم بالإنذار والتنبيه.

561 - الزمر 71 - 72

562 - الأنعام 130 - 131

أما الصورة الثانية وهي صورة الرحمة المتحققة، يقول تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} 563، وصورة الرحمة هنا نراها من بداية دخول الجنة إلى الحمد الذي ورد على لسان أهلها، فالخزنة خطابهم هنا اتسم بالطيبة والرحمة وبما يليق بالمخاطبين، فالصورتان المتحقتان في الجنة والنار، أي صورة النعيم وصورة العذاب، كان تحققهما مرتبط بإرسال الرسل والتصديق بالرسل، فصورة العذاب المتحققة استندت إلى عدم التصديق، قال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ) أما صورة النعيم المتحققة فقد استندت إلى التصديق برسول الله تعالى: (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)، وإرسال الرسل يمثل جانبا مهما من جوانب رحمة الله تعالى للخلق، فهو باب للتنبيه وللتوجيه وللإرشاد، ورحمة الله تعالى شاملة مطلقة لا تتقيد بأي قيد بل هي مفتوحة لكل ينالها الجميع فمن صورها الرزق في الدنيا، فهو مطلق لكل لا يقتصر على المؤمن دون الكافر، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هُوْلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} 564 ترسم الرحمة هنا وفق معيار واحد يتشكل الجميع منه وهو أنهم جميعا خلق الله تعالى، والعطاء في الدنيا لكل دون قيد أو

563 - الزمر 73 - 74

564 - الإسراء 20، 21

شرط في الحصول عليه من الله تعالى لأنه منحة لكل وهنا تتهافت الأسئلة التي تراود الخلق من آدم عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، كيف يتساوى الكفرة مع المؤمنين في الرزق بل ربما أن الكفرة أكثر رزقا من ذلك قوله تعالى: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} 565 هذه الآية تحيل إلى صور ماضية تتكرر بين حين وآخر لتمثل رزق الله تعالى المتحقق بين خلقه، وهذا الرزق مثل رحمة الله تعالى من جانب أما الجانب الآخر فكان سببا في هلاك كثير من الأقسام، فقد مكَّن الله تعالى لهم الأرض وأمدهم بأموال وبنين وجعلهم أكثر قوَّة وعمارة في الأرض وجعل السماء تمطر عليهم بصورة متتالية، مطرا غزيرا وفجر لهم من الأرض ينابيع وأنهارا، استدراجا لهم وإملاء، ثم أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وخطاياهم وجعل من بعد هؤلاء الهالكين أجيالا أخرى ليختبرهم، فعملوا مثل أعمال من كانوا قبلهم، وهنا الصورة تتكرر أي أنّ الرزق مستمر والهلاك مستمر، ممّا يدلل أنّ رحمة الله تعالى مستمرة لا تنقطع رغم الهلاك المستمر الدال على الكفر والعصيان.

وتمثل الرياح صورة من صور رحمة الله تعالى، على الرغم أنها تمثل صورة من صور العذاب المتحققة في الأرض، إذ يقول تعالى: {قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا

لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ {566}. وصورة العذاب المتحققة بالريح ليست دائمة بل هي وقتية تنتهي بتحقق الهلاك المقدر، أما الجانب الآخر الذي تمثله الرياح وهو جانب الرحمة، فهو صورة دائمة من صور رحمة الله تعالى في الأرض، فهي سبب من أسباب الرزق الدائم على الأرض، والذي بسببه تستمر حياة المخلوقات جميعا، إذ يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} {567} وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} {568} والرياح بكل تجلياتها تمثل مظهرا من مظاهر رحمة الله تعالى بما تقوم به في هذا الكون الواسع، فحركتها في جميع الاتجاهات ترسم رحمة الله تعالى على جميع أصقاع الأرض، فضلا عن ذلك أنها تمثل رمزا من رموز رحمة الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} {569} والجانب النفعي الذي تمثله الرياح مع السفن التي تجوب البحار، يمثل جانبا مهما في خدمة الخلق في مكان يعد الأصعب وهو البحر، يقول

566 - الأحقاف 22 - 25

567 - البقرة 164

568 - الأعراف 57

569 - الفرقان 48 - 49

تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ
وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} 570.

خلق الله تعالى الخلق وفق حكمته وإرادته، فهم مختلفون في كل
شيء بدءاً من لون البشرة إلى أصغر دقائق الحلقة التي هم عليها،
وأهم نقطة خلاف بينهم هو العقل، وهو أهم جهاز يتمتع به
الإنسان، فبه يميز الأمور كلها بكل تفاصيلها ودقائقها، فيختار لنفسه
الطريق الأسلم والأصوب بحسب ما يعتقدوه ويؤمن به، والاعتقاد إيمان
لابد أن يكون عن قناعة دون إكراه، وتجلي ذلك في قوله تعالى: {لَا
إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ} 571 فدلائل الوجدانية وعظمة الخالق وتنزيهه عن شوائب ما
كفرت به الأمم، من شأنه أن يسوق ذوي العقول إلى قبول هذا
الدين الواضح العقيدة، المستقيم الشريعة، باختيارهم دون جبر ولا
إكراه، ومن شأنه أن يجعل دوامهم على الشرك بمحل السؤال: أيُتركون
عليه أم يُكْرهُون على الإسلام 572. يتزامن هنا مع سؤال النفس
أسلوب الدعوة المتبع الذي يشغل حيزاً كبيراً في عملية الإقناع، إذ
يترتب عليه قبول الدعوة أو الصد عنها، وأسلوب الدعوة يجب أن
يكون كما خطه الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم عليه الصلاة والسلام
بقوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ
لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 573 تجلت هنا

570 - الروم 46

571 - البقرة 256

572 - التحرير والتنوير ج 2 ص 434

573 - آل عمران 159

صورة من صور الدعوة إلى الله تعالى، فالأخلاق الحسنة، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبته من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟ أليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله 574.

والدعوة إلى الله تعالى بطريقة لينة سمت من سمات الخليفة، وهذه الطريق لا تقتصر على الدعوة إلى الله تعالى فقط بل تكون منهجا له في الحياة، في كل تصرفاته مع جميع الخلق القاصي والداني، فهي ترسم شكلا وصورة للإسلام العظيم الذي غير مسار الحياة ونقل الخلق إلى حياة جديدة تقوم على أطر معرفية تحدد العلاقة الصحيحة بين الخلق أجمعين، فضلا عن ذلك اختيار شخصية تكون هي المرجعية لهذه المعرفة متمثلة بشخصية الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، بقوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} 575 وقوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 576.

ولهذا فجميع الرسل دعوا إلى توحيد الله وطاعته فيما أمر ونهى وإعمار الأرض وإصلاحها وإقامة العدل وعدم الإفساد، إلا أن أنبياء

574 - السعدي ج 1 ص 154

575 - الأحزاب 21

576 - التوبة 128

الخصوص يعالجون قضايا خاصة تكون في مكان ولا تكون في مكان آخر فيلزم لها نبي لهذا الخصوص مع إمكانية وجود نبي أو أنبياء آخرين في أماكن أخرى لإصلاح ما فسد من أخلاق ومعاملات؛ ولهذا فالرسالات الخاصة هي ذات الخصوصية المكانية في مكان بعينه لا يتخطاه كسيدنا يونس، والخاصة زمانا: كهارون إذ خلف موسى في قومه، والخاصة أخلاقيا: كسيدنا لوط، والخاصة اقتصاديا: كسيدنا شعيب، والخاصة تشريعيا: كسيدنا عيسى الذي جاء على شريعة موسى.

وعليه:

فالخاصة الفردية أن يكون نبي واحد في عصره لجماعة خاصة كما هو حال إسماعيل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي بُعث رسولا لقومه فقط، ومع ذلك لا يمتنع أن يكون هناك نبي للعامة في ذات الزمان لا لنفس المكان الذي فيه نبي الخاصة فإبراهيم وإسحاق كانا موجودين في عصر إسماعيل ولكن إسحاق للخاصة (لبنيه) وإبراهيم كان نبيا ورسولا للعامة، وبالنسبة لرسول الكافة لا يمكن أن يتزامن معه رسول ولا يكون من بعده رسول.

أما إرسال هارون إلى بني إسرائيل مع موسى، فكان دعوة موسى لله تعالى، حيث كان قد قتل نفسا وخاف من ذلك الذنب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ وَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ قَالَ كَلَّا

فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
الْعَالَمِينَ {577}.

إنّ هارون صلّى الله عليه وسلّم نبي مرسل من الله تعالى مع أخيه
موسى لبني إسرائيل، وهذا دليل على أنه لا يمتنع من وجود رسولين
معاً في الزمان والمكان لقوم بعينهم، وهذه حكمة الله تعالى في خلقه
لخلقهم.

3 . خليفة:

لقد جعل الله تعالى الإنسان خليفة في أرضه من أجل إصلاحه
وإعمارها وعدم سفك الدماء بها بغير حقّ، وهذه الخلافة لم يجعلها الله
مطلقة بمعنى أن أيّ إنسان هو خليفة، وإنما الخليفة الذي أرادته الله
تعالى أن يأخذ بأسباب الخلافة وموجباتها من الأوامر والنواهي وفعل
الخيرات والنهي عن المنكرات، وما يصل به إلى درجة الخلافة من
الصلاح والهدى والعفاف والتقوى.

وبهذه الصفات والأفعال والأعمال كان كل نبي وكل رسول
خليفة وفق مراد الله تعالى لأنهم مصطفون ومجتبون، فلا يمكن لرسول
أو نبي إلا أن يكون خليفة في الأرض ويجسد معنى الخلافة ديناً
وفضائلاً وأخلاقاً وتصرفاً وسلوكاً.

ولما كان نبي الله تعالى هارون صلّى الله عليه وسلّم رسولا مع
أخيه موسى صلّى الله عليه وسلّم، قال له موسى: ﴿وَوَاعِدْنَا مُوسَى
ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى

لأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ
الْمُفْسِدِينَ {578}.

وهنا نبي مرسل يخلف نبيا مرسلا وفق الشروط التي يريدتها الله تعالى وقد أكد عليها موسى لأخيه هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ من الإصلاح وعدم الإفساد والابتعاد عن سبيل المفسدين الذين يريدون في الأرض علوا ويستكبرون على الحق والعدل.

فكانت وصية موسى لهارون يؤكد على صفات الخليفة التي يجب أن يتمتع بها ويتصف بها، لأن الخليفة هو من يستمد صفاته من صفات مستخلفه، ولهذا فإن جميع الرسل والأنبياء الكرام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ هم مستمدون صفاتهم من صفات الله عز وجل، فهم على أحسن تقويم الذي عليه خلقوا من الله تعالى، وعليه لم يأت استخلاف الأنبياء والرسل برغبة منهم، بل هو اصطفاء من عند الله وذلك لمعطيات لا يعلمها إلا هو جل جلاله، فكان موسى خليفة استخلف خليفة لله في قومه، وهذه سنة الله تعالى في أنبيائه

وهكذا، كل الرسل خلفاء لله عز وجل منذ أن استخلاف الله تعالى آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأرض، حيث قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} {579}، فكان الأنبياء خلفاء يخلف بعضهم بعضا بما أمر الله به من مستلزمات الخلافة التي يكون عمادها عمارة الأرض وإصلاح البلاد والعباد.

578 - الأعراف 142

579 - البقرة 30.

والخلافة في الأنبياء والرسل قائمة بالاصطفاء وإن لم ينصّ عليها المنقول كما نصّ على داوود صلى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: { يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ } 580.

إنّ الإيمان بالله وعبادته وتوحيده أول موجبات الاستخلاف، ولما كان هارون صلى الله عليه وسلّم نبي مرسل من الله تعالى فهو من المصطفين الأخيار، فكان له حقّ الخلافة والاستخلاف من الله تعالى الذي جعله خليفة بالاصطفاء ومن موسى بالاختيار والانتقاء. فالعبادة والطاعة تجعل المؤمن من المستخلفين في الأرض، ولأن قضية الأيمان بالله قائمة على الأيمان بالأنبياء والرسل الذين استخلفهم الله تعالى في أرضه وعلى عبادته، فوجب من ذلك أن طاعة الأنبياء والرسل المستخلفين في الأرض هي من طاعة الله تعالى الذي استخلفهم فيها، ولذا كان واجب على قوم موسى صلى الله عليه وسلّم أن يتبعوا ما أمرهم به هارون صلى الله عليه وسلّم لأنه خليفة مكلف من خليفة بأمر الله تعالى، فكان واجبا على بني إسرائيل أن يأخذوا بما قال لهم هارون صلى الله عليه وسلّم وهو خليفة فيهم يُعد طاعة تامة لله تعالى بما أوصى به الخليفة، قال تعالى: { وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي } 581.

ذلك أن طاعة الخليفة من تمام الإيمان، لأن الخليفة الحق لا يأمر إلا بحقّ، ولا يأمر إلا بالإصلاح لما فيه خير العباد في الدنيا والآخرة، بما يمكنهم من الاستخلاف في الدنيا كي يصلوا بسلام إلى الآخرة،

580 - ص 26.

581 - طه 90

قال تعالى: {أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلْتُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ} 582.

ولذا؛ فمن الاستخلاف أيضا، أن يؤمن الناس بما جاء به الأنبياء والمرسلين، فدعوة هارون لقومه لا تخرج عن دائرة الخلافة المتوارثة عن الأنبياء الذين هم ذرية بعضها من بعض، ولا يخرج الاستخلاف عن مناط التوحيد، لأنّ موسى استخلف هارون، في أن يدعو قومه ويحضهم على التوحيد والعبادة لله تعالى، كما كان موسى مستخلفا من بعد يوسف، ويوسف عن يعقوب ويعقوب عن إسحاق، وإسحاق عن إبراهيم، وهكذا جميع الأنبياء والمرسلين صلّى الله عليهم وسلّم أجمعين، فالخليفة يكون خليفة بما استخلفه الله به في الأرض من الأمانة التي حمّله الله إياها، وأول موجبات هذه الأمانة هي الإيمان الذي يحقق تمام الخلافة، ولذا فإن هودا صلّى الله عليه وسلّم ذكر قومه بأنهم خلفاء من بعد قوم نوح صلّى الله عليه وسلّم، بما يجب عليهم أن يكونوا عليه من القيام بأمر الخلافة، لأن الكفرة والمشركين فلا استخلاف لهم في الأرض بسبب فقدان شروط الاستخلاف التي يتصدرها التوحيد والإيمان بالله تعالى وعبادته، ولذا قال هود صلّى الله عليه وسلّم لقومه: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ} 583، فالخلافة متوارثة لا بمعنى التملك والاستحواذ، وإنما بالقيام بشروطها والأخذ بأسبابه من طاعة الله تعالى وإعمار الأرض وعدم الإفساد فيها، وعدم سفك الدماء بغير حقّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذه الأسباب الموجبة التي تجعل الإنسان خليفة، كما كان هارون خليفة على الرغم من عصيان قومه.

582 - الحديد 7.

583 - الأعراف 69.

إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ متواصون بالحقِّ والعدل، فلا يجيد أحد منهم عن طريق الاستخلاف الذي يوصي به كل نبي قومه، ويذكرهم بمن سبقهم من الذين استخلفهم الله في الأرض من الأمم والأقوام، وما كانت نتيجة ذلك الاستخلاف، فمن قام به في حقِّ وطاعة كان من المستخلفين حقًّا، ومن فرط في الاستخلاف كان جزاؤه مكافئًا لعمله، وكما أن هوداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر قومه باستخلافهم من بعد قوم نوح صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كذلك فإن صالحاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكّر قومه باستخلاف الله تعالى لقوم عاد وهو نوع من الحض على الخلافة الحقّة على أتم وجه، فإن قاموا بتمام وجهها، فقد فازوا في الدنيا والآخرة وإن فرطوا واستهانوا بها كانت عاقبتهم كعاقبة ومن سبقهم، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأْنَاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَنْ تَنْخَبُتُمْ مِنْ سُهُولِهَا فُصُورًا وَتَنْجِبُونَ الْجِبَالَ بَيْوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ 584.

إنّ تذكير صالح لقومه بخلافتهم من بعد عاد قوم هود، يعني نهي عن الأسباب التي أخذ بها قوم هود فابتعدوا عن الخلافة وموجباتها وضلوا ضلالاً بعيداً فأخذهم الله بذنوبهم ولم يغني عنهم ما كانوا يصنعون، ولذا، وجب عليهم أن يؤمنوا بما جاءهم به نبيهم والأنبياء من قبله حتى يصلوا إلى مرتبة الخلافة.

وعليه: فالمستخلفون هم المؤمنون بجميع الأنبياء والرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ ولا يفرقون بينهم فيما هم به مستخلفون، ذلك أن الخلافة ليست منصبا أو منحة أو عطية يأخذها الإنسان من الآخر، وإنما هي ممارسة فضائل وأخلاقا وقيما أمر بها الله تعالى، ونهي وابتعاد عن تصرفات وسلوك وقول وعمل لم يأمر به الله تعالى وإنما نهي عنه،

فالخلافة تمسك بالأوامر وممارستها، والابتعاد عن النواهي التي نهى الله عنها، لذلك كانت الخلافة امتحان وابتلاء من الله تعالى ليعلم المفسد من المصلح، قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ } 585.

ولأنّ أنبياء الله تعالى ورسله هم خلفاء بالاصطفاء، وجب على من يتخلق بأخلاق الخليفة ويريد أن يصل إلى هذه الدرجة أن لا يُفَرِّق بين الذين استخلفهم بالاصطفاء من الأنبياء والرسل، ومن هنا كانت دعوة الله تعالى للمسلمين أن يؤمنوا بما جاء به جميع الأنبياء والرسل الذين استخلفهم الله، قال تعالى: { قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنِ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ } 586.

ولأنّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو خلقه لرسالة، ولأنّ له رسالة أُستخلف بها في الأرض، ليُصلح فيها ولا يفسد ولا يسفك الدماء بغير حق، إذا فالله تعالى اصطفى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح المؤسسة على قاعدة الاستخلاف في الأرض التي استوجبت مخلوقا في أحسن تقويم، وبما أنه لا رسول إلا برسالة، إذن، لا استخلاف بالقوّة إلا بها، وهكذا الاستخلاف من بعدهم لا يكون إلا برسالة، ومجيء الرسالة الخاتمة للكافة لا يعني أن الاستخلاف قد انقطع بانقطاع الرسالة والوحي،

585 - الأنعام 165

586 - البقرة 136، 137.

وإنما الاستخلاف في الأرض باقٍ ما بقيت هذه الأرض وما بقي على البشر، ذلك أن الرسالات جميعاً قد بينت الخلافة وأسسها وشروطها وأسباب الأخذ بها فهي جزء من الرسالة، وإن كانت جزءاً من الرسالة فهذا يعني أنها جزء من الدين الذي جاءت به الرسالات مع الأنبياء والرسل الذين استخلفهم الله تعالى، وبقيت بقاء الدين ملزمة للناس الأخذ بها قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نُجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} 587.

وبما أنّ الخليفة هو من استمد صفاته من صفات خالقه تعالى فعمل بها في الأرض إصلاحاً وإعماراً، فإن هارون صلى الله عليه وسلم خليفة في الأرض ومستخلف فيها.

ولذا؛ فإن لفظ (خليفة) في النص القرآني في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) كان ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل البداية الأولى للبشرية في استخلافهم في الأرض، فقد وردت ضمن سياق قصة رسمت البداية الأولى في كل تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة.

ويلاحظ أن لفظ (خليفة) في النص القرآني وردت بصيغة التنكير، تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير متحقق على اسم شخص

بعينه، ولهذا، كانت البداية لورود اسم خليفة تدل على من أخذ بشروط الخلافة وتطبيقها بما يحقق له الاستخلاف في الأرض.

ولم يكن أمر الخلافة مرتبطاً ب(آدم) صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإنما ارتبط به كونه أول الخلق، ولكنه انسحب على أبنائه من بعده ممن تحققت فيهم شروط الخلافة التي أرادها الله تعالى، من التوحيد والعبادة والطاعة وإصلاح الأرض وإعمارها، قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} 588.

وفي هذا السياق نجد أن الخليفة لم يترك دون شروط بل وضعت له شروط تحدد مهامه إذ يشترط في الخليفة مجموعة كبيرة من الأوامر والنواهي منها:

. أن يكون أميناً كما كان آدم ونوح وداوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمْ وَسَلَّمَ أجمعين، وكما كان يوسف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قال تعالى: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم} 589 هذه الآية ترسم صورة الذي يتولى أمر الناس، فيحفظ ما يُستحفظ لديه، ويعلم بوجوه التصرف فيه، فمن خلال ذلك يكون الخليفة ماضياً في أحكام الله تعالى، وإقامة الحقّ وبسط العدل.

. أن يكون الخليفة مؤمناً بالأمر الذي أوْتَمَنَ عَلَيْهِ.

. أن يكون الخليفة حكيماً في التصرف في الأمور العظيمة.

588 - النور 55

589 - يوسف 55

. أن يكون الخليفة حريصا على أموال الناس، فلا يبذر ولا يسرف
ويعطي كل ذي حق حقه.

. أن يكون تقيا يخاف الله تعالى في القول والفعل، إذ يقول تعالى:
{ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } .
. أن يكون محققا للحق ومزهقا للباطل.

. أن يكون قادرا على أداء الواجب وممكنا من أدائه.

. أن يكون قادرا على ممارسة الحقوق وممكنا من ممارستها.

. أن يكون قادرا على حمل المسؤولية وتحملها ما يترتب عليها من
أعباء جسام.

ومن خلال ما تقدم فإن الخليفة ليس الإنسان المطلق، بل
الإنسان المؤمن والمصلح الذي يعمل صالحا. فخلافة الأرض مسؤولية
وأمانة، فمن يحافظ عليها يحافظ على الأمانة، ومن لم يحافظ عليها
يخونها، فالأمانة قيمة طيبة لا يحفظها إلا خليفة، ولأن هارون كان
خليفة فقد حفظ الأمانة التي ائتمنه عليها موسى، قال تعالى: { قَالَ
يَا هَارُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ
يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ وَتَرَفَقْتَ قَوْلِي } 590.

4 . وزيراً:

هارون صَلَّى الله عليه وسلّم نبي من أنبياء الله، وهو شقيق موسى
صَلَّى الله عليه وسلّم، وقد بعثه الله رسولا مع موسى ليُعينه في دعوته،
وقد استجاب الله دعاء موسى حين طلب من ربه أن يجعل له هارون

وزيراً معيناً في تبليغ الدعوة قال تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِ
هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا
وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا
مُوسَى} 591.

وهارون صلّى الله عليه وسلّم كان فصيح اللسان قوي الجنان
قال تعالى: {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا
يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ} 592.

وقد حمل عبء الرسالة مع أخيه موسى إلى فرعون وهامان
وقارون وبني إسرائيل، قلّ أن يفارقه في سفر ولا في حضر. وقد
استخلفه موسى صلّى الله عليه وسلّم كونه وزيراً له ونبياً معه على بني
إسرائيل حين ذهب استجابة لأمر ربه سبحانه وتعالى عند جبل
الطور، قال تعالى: {وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمَ
مِثَاقٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي
وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ} 593.

فأمره أن ينظر في مصالحهم خشية أن يفتنهم أحد عن دينهم،
ولكنهم عبدوا العجل الذي صنعه السامري ولم يأبوا بهارون.

لقد طلب موسى صلّى الله عليه وسلّم من ربه قائلاً: (واجعلي
وزيراً من أهلي هارون أخي)

فأجابته الله تعالى وقال: (وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً).

591 - طه 29 - 36

592 - القصص 34

593 - الأعراف 142

إن طلب موسى من ربه أن يزوده بما يكون له عوناً على أداء رسالته إلى فرعون وملئه لم يكن مقتصرًا على جانب واحد، وإنما أمور كثيرة جاء بها النص وهي:

. حيث طلب من ربه أن يشرح له صدره.

. وأن ييسر له أمره.

. وأن يجلل عقدة من لسانه.

. وأن يجعل له وزيراً من أهله.

فالوزير المطلوب هو هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا الطلب من موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لربه بأن يجعل له وزيراً من أهله لا يكون قادحاً في تمام التوكل على الله تعالى من قبل موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لأن الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل ولا يكون قادحاً فيه بحال، كما أن الخوف ممّا من شأنه أنه يخاف منه لا يقدر في شجاعة المرء وهذا الخوف من صفت النفس البشرية على تعدد أنواعه وأشكاله:

. خوف تحسب.

. خوف جوع.

. خوف مرض.

. خوف مكروه.

. خوف على ولد.

. خوف على أهل.

. خوف على عقيدة.

وهذه أمور معلومة لدى جميع العالمين، لا يرتاب فيه أحد ولا يخاصم عليه لأن طلب الوزير هو طلب العون من الله تعالى بداية لأن يسخر له من يعينه في دعوته، وكانت تلك الدعوة من موسى صلى الله عليه وسلم تختص بهارون أن يكون وزيراً له.

فالوزير هو الذي يحمل ثقل والعبء مع من استوزره، فيكون له ناصحاً، ويستعينه برأيه وجهده وقوله وعمله، وقد صرح بذلك موسى صلى الله عليه وسلم في أكثر من موضع منها:

. قال تعالى: (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاخْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيْرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيْرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا).

. وقال تعالى: (وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون).

فإن موسى صلى الله عليه وسلم كان يرى في هارون صلى الله عليه وسلم خيراً معيناً له ولقومه على اقتحام المشاق، وتحمل الصعاب، ومن ثم إنابته في قومه وقت غيابه عنهم.

والوزير عادة لا يُفصل دون رأيه بأمر جليل، فإن غاب صاحب الأمر أو ولي الأمر في القوم، فإن القوم لا يمشون أمراً إلا برأي بالوزير، والوزير يمضي الأمور دونهم ويأمرهم وينهاهم، وليس معنى وزارة هارون صلى الله عليه وسلم هو القيام بأمر دعوة باحتجاب موسى على غرار وزارة الملك، ذلك أن في ملوك الدنيا تتخذ وزراء لها للتصرف في أمور المملكة والسلطان ويحتجبون عن الناس، غير أن

وزارة هارون هي وزارة نبوة تختلف كل الاختلاف عن وزراء الملوك
والسلاطين

فمن ولي منكم عملا وكان الله تعالى يريد له خيرا جعل له وزيرا
صالحا يذكره إن نسي ويعينه إن استعانه، فما يبعث الله تعالى من نبي
إلا وجعله له بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه وتعمل معه على
تحقيقه، فيما يقابل البطانة الأخرى التي تكذب فتأمر بالمنكر وتنهي
عن المعروف والخير والإحسان، ومن هذا الباب كان سؤال موسى
صلّى الله عليه وسلّم أن يجعل هارون وزيرا، وهذا السؤال أو الدعاء ما
أراد به موسى صلّى الله عليه وسلّم أن يكون مقصورا على الوزارة، بل
أراد أيضا قبل الوزارة أن يكون شريكا له في النبوة، ولولا ذلك لجاز أن
يستوزره من غير سؤال الله تعالى أو دعائه بأن يكون وزيرا من أهله
معينا بالاسم.

إنّ الله تعالى استجاب لموسى صلّى الله عليه وسلّم دعاءه عندما
دعا ربه أن يجعل له وزيرا من أهله هارون أخيه بدليل أنهما قد خاطبا
فرعون معا عندما أمرهما الله تعالى بذلك فقال: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ {594}

فقد ذكر الله تعالى فرعون، وأنه أرسل إليه الأمير والوزير، فالأمير
موسى صلّى الله عليه وسلّم، والوزير هارون صلّى الله عليه وسلّم، ثم
إنّ من دلالة وزارة هارون لموسى ودعوة موسى بأن يكون هارون وزيرا
له لها أسباب كثيرة منها:

. أنّ موسى خشي ألا ينطلق لسانه.

. هارون أفصح من موسى لسانا.

. أن يشد الأمير أزره بالوزير.

. أن يستنير برأيه ويشركه في أمره.

. أن طغيان فرعون وآله وجنوده أمر يستدعي وزارة هارون إلى

جانب إمارة موسى.

إنّ استعباد فرعون للناس كان من الظلم والكفر بمكان من تقبيل
الأبناء واستحياء النساء وغير ذلك كثير من ادعائه الألوهية والرّبوبية
حيث قال فرعون قولاً ما قاله أحد قبله ولم يقل به أحد بعده:
{ فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى
فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى } 595

وقد ذكر الله تعالى إرسال الأمير والوزير موسى وأخاه هارون

فقال: { ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ
هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ } 596

ففرعون في عصره كان طاغية الدنيا، وكان المصريون قد استسلموا

له وكان ملؤه من حكام مصر يحكمون بطغيانه، ويسوّلون له كل ما
يفعل، ويسوّغون له ما به يعلو ويسرف، حتى أنهم عتوا باسمه عتوا
كبيرا عن أمر العقل والمنطق والحق، فبعث الله تعالى إلى هؤلاء أميرا
ووزيرا من الأنبياء وذلك لشدة طغيانهم حيث أنهم كانوا يعتزّون بعزة
فرعون وكانوا يستفتحون بعزته، قال تعالى: { فَأَلْقَوْا حَبَابَهُمْ وَعَصِيَّهُمْ
وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ } 597.

595 - النازعات 21 - 25

596 - يونس 75، 76

597 - الشعراء 44

لقد قارع موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرعون في البر والبحر، وبالعلم والعمل عندما أرسله الله تعالى إلى فرعون وجعل معه أخاه هارون وزيرا، لماذا يجعل هارون وزيرا ولماذا طلب موسى ذلك معه؟

ذلك أن هارون كان أفصح منه لسانا، وموسى صاحب الرسالة ولكن هارون فصيح، فموسى لا تظهر منه ربما بعض الكلمات بوضوح الكلمات، ولا يتضح نطقها، فكان الوزير هارون هو ترجمان الأمير موسى، فقد قضت مشيئة الله تعالى أن تكون الرسالة لموسى، والوزارة لهارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ.

5 . موهوبا:

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} 598.

بداية يختر تسأول على الذهن وهو لماذا قال: وهبنا له؟

ولم يقل:

. أعطينا.

. منحناه.

إنّ كل كلمة من هذه الكلمات تعطي معنى معين غير مترادف وإن اشتركت جميعها في الأخذ والامتلاك، ولكن هذا الأخذ والامتلاك والعطية إما أن يكون:

جزئيا

أو كليا

أو مؤقتا

أو دائما

أمّا المنح فهو أخذ الشيء إلى أجل للانتفاع به ثم رده بعد ذلك فقد جاء في لسان العرب: "المنحة تكون في الأرض يمنح الرجل آخر ما يمنحه مثل أرضا ليزرعها"599.

وأمّا العطاء فلا يصح إلا لشيء مادي يتم فيه التناول والتداول "وقد أعطاه الشيء وعطوة الشيء تناولته باليد والمعاطاة المناولة"600.

وأمّا الوهب فإنه لا يتقيد بأجل أو زمان أو مكان ولا يكون جزاء عمل أو فضيلة سبقت من الموهوب له، لذلك فالوهب هو: "الهبة العطية الخالية عن الأعواض والأغراض فإذا كثرت سمي صاحبها وهّابا"601. ولذلك قال الله تعالى: (وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا).

لقد طلب موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعل له وزيرا من أهله، ولن الله تعالى هو الكريم الوهّاب، فقد أعطى موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَبْتَغَاهُ فِي أَنْ جَعَلَ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا لَهُ، وَزَادَهُ فِي الْهَبَةِ أَنْ جَعَلَهُ نَبِيًّا مَعَهُ إِلَى قَوْمِهِ.

لم يكن طلب موسى الهبة من الله تعالى من أجل الدنيا فهذا لا ينبغي لنبي أو رسول، وإنما من أجل تبليغ الرسالة ونشر الدعوة التي كلفه الله بها، إذ أنه من المعلوم أن الله تعالى اصطفى رسله وأنبياءه، وما ينبغي لنبي أو رسول مصطفى أن يخرج عن ناموس الاصطفاء في

599 - لسان العرب، ج 2، ص 607

600 - لسان العرب، ج 15، ص 68

601 - لسان العرب، ج 1، ص 803

أن هؤلاء المصطفين قد اختصهم الله تعالى لتبليغ البشر الرسالة السماوية. والرسالة السماوية لا تقوم على طلب الدنيا، وهذا يعني أن وهب هارون لموسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، هو من أجل الآخرة لما فيه خير النَّاسِ وصلاتهم وهدايتهم إلى طريق الرشاد وسبيل الهدى، ولذا كان موسى مجاب الدعوة بدليل استوزار هارون ونبوته التي جاءت هبة من الله تعالى، فكان هبة من أجل الآخرة وليس من أجل الدنيا، لأنَّه معلوم أنَّ الدنيا عند الله مدمومة وذلك أنَّها:

. ليست غاية المؤمنين.

. مدعاة للفتنة واللهو.

. أبعد ما يكون عنها الصالحون.

. ما ينبغي لني أن يكون دعاؤه من أجل الدنيا.

إنَّ الهبة من مخلوق لمخلوق إنما يكون عمادها والقصد منها ومبتغاها غالبا ما ينصب على الدنيا ومباهجها وذلك أنه يدخلها أشياء كثيرة من الطمع الإنساني مثل:

. حبّ المفاخرة.

. غريزة حبّ التملك.

. الميل إلى الغنى والثراء.

. التمتع بمباهج الدنيا وملذاتها.

. التكاثر في الأموال والأولاد.

هذه الأمور تغري الموهوب بالتوسع والزيادة في أسباب الكسب حلاله وحرامه، فلا يبالي بأكل أموال النَّاسِ بالباطل من ربا وسرقة

وغضب واختلاس وغش ونحو ذلك إلا ما رحم ربي، وهذا يترتب عليه حبّ التسلط والتعالي والتعاضم فيستكبر ويتجبر على الخلق ويحقرهم ويسخر منهم، وقد يكون الوهب من مخلوق إلى مخلوق من أهم الأسباب التي تدفع بالنفس الإنسانية إلى الاستزادة من أنواع ما وهب بصرف النظر عن الطرق التي يستحوذ عليها مما تشتت فيه نفسه فيلجأ إلى:

. الغضب.

. هضم الحقوق.

. السطوة.

. إضاعة حقوق الله تعالى.

أما الهبة من الله تعالى لنبي من أنبيائه فهي تختلف عن هبة مخلوق لمخلوق لأنه قائمة على:

. أداء حقوق الله تعالى.

. أداء حقوق الخلق.

. ترتيب منازل الخلق.

. إقامة حدود الله والمحافظة عليها.

. تعظيم شعائر الله.

. إظهار عبادته.

. لزوم طاعته.

. تبليغ رسالته.

يترتب على ذلك تحقيق الوعود في أنه يعلم ما لا يعلم أحد من خلقه حسب ما صرح بذلك لملائكته فقال تعالى: {إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 602.

ولذلك يخرج طلب موسى صلى الله عليه وسلم من أن يكون سؤاله طلب الدنيا لذاتها، لأن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم أزهده خلق الله فيها.

ولذا نجد الغاية التي يحرض عليها القرآن الكريم دائما هي شكر النعم التي أنعم الله تعالى بها على عباده، ولما كان هارون صلى الله عليه وسلم هو هبة من الله تعالى لموسى صلى الله عليه وسلم، وجب على موسى شكر هذه النعمة حيث قال تعالى على لسان موسى: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} 603. إن الغاية الإلهية ومراد الله تعالى لخلقه أن الإنسان لا يحتاج إلا إلى الله تعالى لما وهب لخلقه من نعم على تفاوت هذه النعم بين إنسان وآخر، ولكنهم جميعهم يملكون على قدر حاجتهم بما علمه الله تعالى فقدّره لهم، وأراد للإنسان أن يكون غنيا:

. بالبدن.

. بالنفس.

. بالروح.

602 - البقرة 30

603 - الأعراف 151

ولما وجد موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ينقصه بعض الغنى في تأدية الرسالة، طلب من ربه عزَّ وجلَّ أن يكون هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزيراً له لأسباب تبليغ الرسالة منها:

. أفصح من موسى لساناً.

. يشدُّ به أزره.

. يشركه في أمره.

. يذكرون الله معاً.

. يسبحون الله معاً.

وهذا دليل على أن الذكر الجماعي والتسبيح الجماعي وصلاة الجماعة هي أفضل من الأفراد بما أكد عليه موسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وليس هارون وحده هو هبة من الله تعالى في نبوته، فقد أتى قبل ذلك إبراهيم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحجَّة ووهب له إسحاق ويعقوب، قال تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا} 604.

ثم إن زكريا نادى ربه متضرعاً إليه فكانت الاستجابة من الله تعالى أن وهبه نبياً، قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ

إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا
خَاشِعِينَ {605}.

ومن بعد وهب هارون لموسى، فقد وهب الله تعالى سليمان
لداوود صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ
نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} {606}.

وعلى هذا فإنَّ الوهب هو منَّة من الله تعالى يمنَّ بها على من
يشاء من عباده، فقد كان هارون صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هبة من الله
تعالى لموسى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يشدُّ به أزره، ويشركه في أمره،
ويستخلفه في قومه ويذكران الله تعالى ويسبحانه معا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِمَا
وَسَلَّمَ.

وعليه يهب الله لمن يشاء ما يشاء، ولأنَّه الوهاب فهو القادر
على الوهب، ولأنَّه المحيب أستجاب لطلب موسى بأن جعل له أخاه
هارون وزيراً، ومن هنا فالوهاب جلَّ جلاله هو الذي يمنح الهيبة.
والهبة: العطية الخالية من الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي
صاحبها وهاباً" {607}.

وفي منهاج الحلمى الوهاب: هو "المتفضل بالعطايا والمنعم بها لا
عن استحقاق عليه" {608}.

قال ابن سيده: الوهاب هو من "وهب كل شيء وهبه وهباً،
ووهوب ووهابة كثير الهبة لأمواله" {609}.

605 - الأنبياء 89 - 90.

606 - ص 30

607 لسان العرب المحيط، ج 3، ص 990.

608 المنهاج للحلمى. ج 3، ص 125.

وقال الإمام الطبري: الوهاب هو معطي عباده التوفيق والسداد
للثبات على الدين وتصديق الكتاب والرّسل وهو من يهب لمن يشاء
من مُلك وسلطان وغيره.610.

أمّا الإمام الغزالي فقال: "الهبة هي العطية الخالية من الأعواض
والأغراض فإذا كثرت العطايا بهذه الصفة يسمى صاحبها جوادا
وهابا"611.

ويقول الخطابي: الوهاب هو الذي يجود بالعطاء عن ظهر يد من
غير استثابة612.

والوهاب في نونية ابن القيم جاء على الآتي:

وكذلك الوهاب من أسمائه... فانظر مواهبه مدى الأزمانِ

أهل السماوات العُلى والأرض عن... تلك المواهبِ ليس

ينفكان613

الهبة هي العطية الخالية من الأعواض والأغراض، فإذا كثرت سمي

صاحبها: وهّابا"614.

⁶⁰⁹ ابن الأنير، النهاية في غريب الحديث. ج 5، ص 231.

⁶¹⁰ الطبري، جامع البيان. ج 3، ص 125.

⁶¹¹ أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. بيروت، دار الكتاب العلمية،

ص 57.

⁶¹² شأن الدعاء للخطابي، ص 53.

⁶¹³ النونية، ص 146.

⁶¹⁴ يوسف المرعشلي، والله الأسماء الحسنى. بيروت. دار المعرفة، 2003، ص 136.

ويقول أحمد عبد الجواد: "القهار جلّ جلاله الجوّاد المنعم المفضل بالعطايا، كثير النّوالِ دائم المعروف على جميع خلقه، وسع الخلق بوجوده ورحمته"615.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أَنَّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم كان إذا استيقظ في الليل قال: لا إله إلا أنت سبحانك اللهم أني أستغفرك لذنبي وأسألك برحمتك، اللهم زدني علما ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب"616.

الوَهَّاب هو الفَعَّال لِمَا يُرِيد، فهو الذي يهب لمن يشاء ما يشاء كيف يشاء، ذرية صالحة ذكورا أو إناثا، أو حِكْمَة أو حَكْمَا أو مالا حلّالا.

الوَهَّاب كثير العطايا وهو من يعطي ولا ينتظر من وراء ما يُعطي شيئا. ولو كان ينتظر شيئا لاستوقف ما يهبُ حيث لا أحدا لديه ما يعطي للمعطي المطلق، وذلك لأنّه لم يكن من الذين خُلِقوا على الحاجة. فلو كان لا يعطي إلا بمقابل لاستوقف عطائه عن كل الذين أعطاهم ولم يعطوه شيئا، ولو كان الأمر كذلك لاستوقف عطاءه عن الذين كفروا به وأشركوا. فمقابل ماذا يهبُ لهم الرزق والبنين والمملك والعلم، هل يُعطيهم هذا لأجل أن يشركوا ويكفروا به؟ أم من أجل أن يعبدوه؟ أم مقابل ماذا؟

615 أحمد عبد الجواد، والله الأسماء الحسنی فادعوه ها. القاهرة. دار الريان للتراث ص 59.

616 سنن أبي داود، ج 14، ص 416.

لم يكن بمقابل. ولكن لأنهم خلقه وعباده كما جاء في قول عيسى عليه الصلّاة والسّلام في قوله تعالى: {إِنْ تُعَدِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 617.

وهذا لا يعني أنهم سيتركون هكذا، بل لإعطائهم الفرص فهو يُهمَل ولا يُهمَل مصداقا لقوله تعالى: {فَمَهْلٍ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا} 618.

ولذا فإن الوهّاب المطلق: هو الغلاب المطلق، الذي لا يقدر على مغالبتة أحد ولو اجتمع الثقلان بشأنه. فهو الغالب بعباته الأّ محودة، وعطاياه المتنوعة، وحسناته المتعددة، وغفرانه للذنوب، وعفوه وتكفيره عن السيئات والخطايا. إنه الذي يهب الحكمة والحكم، والعلم والرزق، وكل شيء لمن يشاء. مع أنّه يعطي كل ذلك إلا أنّ البعض يكفر به ويُشرك.

قال تعالى: {ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب} 619. في هذه الآية الكريمة مطلب المؤمن من ربه لأن يُثبت قلبه على الإيمان ولا يجيده عنه، مع أنّ هذه الآية سابقة على أيام الردة في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنها إلا وكأنها تحتويها حيث العلاقة بين ما تدل عليه وبين الذين زاغت قلوبهم بعد الإيمان من بعد موت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كان هذا الدعاء في أفواه المؤمنين حتى لا تضعف النفوس وتدخلها الظنون، فانتشر بين المؤمنين هذا الدعاء لله الوهّاب الذي يهب الرحمة على من يشاء دون منّة ولا انتظار مقابل.

⁶¹⁷ المائدة، 118.

⁶¹⁸ الطارق، 17.

⁶¹⁹ آل عمران، 8.

وإزاحة القلوب تعني: ميلها وحيادها عن الحقّ، فالبعض بعد موت الرّسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وُلُوّ وارتدُّوا إلى ما كانوا عليه من شرك وكُفْر، أي أنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وعادوا إلى الطريق المعوج. ولأنه طريق معوج فهو في حاجة للإصلاح ممّا جعل ابوبكر يسلك نهج الإصلاح وتقويم الأمور حتى لا يعم الفساد وتعود الأحوال إلى ما كانت عليه من ظلمة وجهالة.

وفي قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) تضرع دعائي غائي يأمل به المؤمن أن تعمّه الرحمة هبة من الله تعالى. وذلك لإيمان الداعي بأنه تعالى هو واسع الرحمة مصداقا لقوله تعالى: {رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ} 620.

فهب لنا، تعني: أمنحنا وارزقنا عطاء من غير حساب يا من ترزق من تشاء من غير حساب. ومن (لدنك، تعني) من عندك أي من مُلكك ورحمتك الواسعة التي تنعم بها على من تشاء من عبادك.

وقوله (إنك أنت الوهاب) تأكيد على أنه لا وهّاب غيره، أي لا معطي غيره بدون قصد وغاية أو منة؛ وتدل على الرغبة الشديدة في الدعاء والالتجاء إليه وتؤكد على عدم قصد الغير (إنك أنت) ولا سواك. فأنت الوهاب: واسع العطاء والفضل لمن يدري ولمن لا يدري سبحانه لا إله إلا أنت الوهاب.

عن أم سَلَمَة رضي الله عنها، أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان يقول: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ثم قرأ الآية" 621

620 غافر، 7.

621 سنن الترمذي، ج 13، ص 21..

(ربنا لا تُرغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).

والموهوب من العباد هو الذي له صفات وملكات متنوعة ويجيد أو يحسن التصرف فيها، مما يجعله متميزا على أقرانه أو متميزا في جيله. يدرك معطيات الأمر ويحلل متغيراته ويستنتج الصواب في الزمن الصواب، ويعمل بمهاراته المتنوعة على إظهاره من فكرة إلى موضوع ليشغل به حيزا ويملاً به فراغا حتى يستمده الآخرون من بعده.

وبما أنه موهوب، إذن فمن ورائه وهَّاب، وإلا من أين جاءت له المواهب، ولذا فالوهاب مصدر الهيبة التي جاءت في اللغة من المصدر يهب. ولأنه الوهاب فهو يهب لمن يشاء ما يشاء، مما يجعله هو الآخر يهب مما وهب إليه الوهاب الأعظم. ولهذا فالإيهاب صفة حسنة استمدت من الوهَّاب المطلق حتى أصبحت قيمة بين المستخلفين من العباد في دائرة الممكن غير المتوقع.

قال تعالى: {أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ هُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ} 622 في هذه الآية جاءت (أم) استغرابية استفهامية لأجل الرد استهزاء على ما يقوله المشركون من كباثر ويفعلون، فما هي حجة هؤلاء فيما يقولون على الله ورسوله وأيضا فيما يقولونه عن آلهتهم التي اتخذوها أربابا من دون الله تعالى وهي من تراب ولا روح فيها، حيث لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تحس ولا تفرح ولا تغضب؟

فهل هؤلاء وما يدعون يملكون خزائن الرحمة التي مفاتيحها عند الله العزيز الوهاب حتى يقولوا ما يفترون؟ فهؤلاء وما يعبدون من دون

الله لا يستطيعوا أن يخلقوا بعوضة ولو اجتمعوا، ولذا لا يليق بمن خُلق في أحسن تقويم وأريد به لأن يرث الأرض ويُستخلف فيها، ولا يسفك الدماء بغير حقّ، ويتقي الله ربه، أن يتخذ مع الله إلهًا آخر. قال تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا} 623 وقال عزّ وجلّ: {إنما تعبدون من دون الله أوثانًا وتخلقون إفكا} 624.

قال تعالى: {ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب قال ربّ أغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهاب} 625 في اعتقادنا فتنة سليمان فتنة مُلك الذي يتعلق أمره بالخاتم الذي به سرا، حيث ضياعه جعل الملك يضيع من سليمان صلوات الله وسلامه عليه، إلى أن وجده بعد ضياع فعاد له الملك وأزيل من كان متربعا على كرسي الحكم جسدا لأيام معدودة دون أن يعمل شيئا بأمر الملك والحكم مصداقا لقوله (جسدا) أي صورة فقط ولا صلاحيات لها. و(ثم أناب) تاب إلى الله تعالى أي حمده وشكره على ما وهب له من فضل ونعم بإعادة الخاتم إليه بعد ضياع؛ ثم قال: (ربّ أغفر لي) على الأسباب التي جعلتني أضيع الحكم بإضاعة الخاتم. ثم تلاها قائلا: (وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي) الوهب عطاء لا يؤخذ، ولذلك قال: (هب لي) ولم يقل أعطني أو أرزقني أو امنحني؛ وذلك لأن الوهب يبقى ولا يزول إلا بزوال الحاكم الموهوب إليه الحكم، وهذا ما جرى مع سليمان عليه الصلّاة والسّلام وحُكمه.

623 الفرقان، 55.

624 العنكبوت، 17.

625 ص، 34، 35.

ولذا علينا أن نستقرأ المطلقية من اسمه الوهَّاب جلّ جلاله، فهو الذي إن وهب بث المطلقية فيه حيث لا يعترضه عارض ولا يحول بينه حائل حتى النهاية، أو أن ينزعه منه نزعا إن دخل الحكم الموهوب منه في دوائر الفساد، ولذلك فهو يؤتي الحكم لمن يشاء مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْحَيُّرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 626.

وقد يتساءل البعض: عن السر الذي من وراء قوله (لا ينبغي لأحدٍ من بعدي)؟ السر إنه يريدُه مُلكا لا يزول إلا بزواله، أي ربط بقاء الملك ببقائه وزواله بزواله، فإذا ما وهب له الله ملكا فلا يأمل أن ينزعه عنه أو منه نتيجة إيمانه بأنه قادر على أن يؤتي الملك لمن يشاء وعلى أن ينزعه ممن يشاء مصداقا لقوله (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء).

وقوله أنت الوهَّاب: تعني لا غيرك قادر على أن يستجيب لهذا المطلب أو هذا الترجي والأمل، ولوجود الأمل في قلب سليمان قال أنت الوهَّاب أي لا شك لي في أنك لا تهب لي مُلكا لا يكون لأحدٍ من بعدي، وهذا لا يعني أن سليمان يعلم بعلم الغيب، بل يعني وثوق الإيمان في قلب سليمان عليه الصلّاة والسّلام.

مع أنّ غالبية العباد المراد استخلافهم في الأرض يقصرون تفكيرهم على ما هو متوقّع إلا أن القلة والذين منهم سليمان لا يقصرون تفكيرهم في دائرة الممكن المتوقّع فقط، بل يمدونه إلى دائرة الممكن غير المتوقّع. ولهذا كان الإيمان راسخا في قلب سليمان بأن

626 آل عمران، 26.

الوهاب الأعظم إن دعوته مخلصا له الدين استجاب لك بتوبةٍ أو غفرانٍ أو هدايةٍٍ أو يُهبُّك رحمةً ممّا هو أكبر. ولهذا دعاه بما هو أكبر فاستجاب له الوهاب الأكبر بأن وهبه ملكا لم يكن لأحدٍ من بعده.

الوهاب هو الذي يهب ما يشاء لمن يشاء بدون توقُّعٍ إذا ما استثنينا الأنبياء والرُّسل والصالحين الذين تمتد عقولهم في دائرة الممكن لتُمسَّ المتوقع وغير المتوقع اللذين يخرقهما الله بعلم الغيب.

أمّا فيما يتعلق بالأمر المتوقع لا تحدث المفاجآت إذا ما وقع الأمر أو حدث، بل المفاجآت والاستغرابات تقع إذا وقع ما هو غير متوقَّع وفقا لحسابات العباد، ولذا فالعباد المؤمنون برسالة محمد يتوقعون دائما إعطاء الزكاة وأخذها من قبل من هو في حاجة، وهكذا الصدقات تعطى في دائرة الممكن المتوقع لمن هم في حاجة إليها؛ وهكذا يدخل الصوم والصلاة والحج في دائرة المتوقع في المجتمعات المؤمنة. أما ما يهبُّه الوهاب تعالى فهو الذي يحدث في الزمان والمكان غير المتوقعين ممّا يجعل المفاجآت والاستغرابات مصاحبة له في عقول العباد.

وعليه: فالهبة فعل محض ولا تقع إلا بعلم الوهاب الذي يملك الأمر الذي إن صدره وقال له كن، فيكون. ومع ذلك بما أن الوهاب اسم وصفة، إذن فاستمداد هذه الصفة لا يخرج عن دائرة الممكن المتوقع.

فإذا عُدنا لنميز بين ما يُعطى فيؤخذ، وبين ما يُوهب فيكون مع الأمر (كن) نقول الزكاة والصدقة بين البشر يؤخذان ممن يُعطي، مع احتوائهما لزمن الانتظار حتى يأتي وقت استخراجهما أو إعطائهما ممّا يجعلهما يقعان معا في دائرة الزمن المتوقع. أما الرحمة فتوهب ولا تعطى

كما هو حال الزكاة والصدقات، مع أنّ للرحمة علاقة بالأمل إلا أنّها لا تأتي إلا في الزمن غير المتوقع.

وبالنسبة للوهاب بالإضافة فهو كما يزكي ويتصدق هو أيضا يهب لمن يشاء ما يشاء بإذن الوهاب الأعظم والسبب لأنه يستمد صفة من صفاته الحسان التي خلقه عليها في أحسن تقويم. ومّا يقع في دائرة الهبة بالنسبة للخليفة هو كأن يعطي شهادة حقّ في الزمن غير المتوقع، أي في الزمن الذي يظن فيه البعض بإدانة المتهم في الزمن ذاته يأتي شاهداً ليبراً أو يُدينه من غير ظلم وفي غير مقابل يُنتظر فهي هبة أعطيت للعدل ولقول الحقّ. وهكذا الحال مع من ينقذ غارقاً أو مظلوماً أو يعتق عبداً ويحرره دون انتظار مقابل.

يُحكى أن الشبلي سأل بعض أصحاب أبي علي الثقفني رحمه الله فقال: "أي اسم من أسمائه يجري على لسان أبي علي أكثر؟ فقال الرجل: اسم (الوهاب) فقال الشبلي: لذلك كثر ماله"627.

قال تعالى: ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾628. أي من كل ما دعوتكم وطلبتكم وهب لكم وأعطاكم، و(من كل ما سألتموه) تدل على أشياء أربع:

الشيء الأول: أنّه يملك أكثر ممّا سألتموه، وهو لم يعطكم إلا ما سألتكم،

والشيء الثاني: أنه يملك أشياء أخرى وأنتم لم تسألوه عنها.

627 مجدي صور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة. مكتبة العلم،

1999، ص 467.

628 إبراهيم، 34.

الشيء الثالث: ولأن باب العطاء لم يقفل ما دتمتم تسألوه، فإن سألتهم ومتى ما تسألون سيأتيكم مما تسألون سواء بالمزيد مما سألتهم منه تعالى، أو مما لم يسبق لكم أن سألتموه عنه جلّ جلاله.

الشيء الرابع: ولأن سؤالكم محدود بالنسبة لما يملك فإن باب الهبة هو الآخر مفتوح فسيهب لمن يشاء منكم ما يشاء مما لا تتوقعون.

أما قوله (وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها) النعمة جاءت مطلقة، غير متناهية بحدود ولذلك مهما ظن العبد بأنه استكثر على ربه العظيم سؤالاً فهو لم يسأل إلا القليل فليسأل فباب رحمته لا يُسد ولا ينضب.

ومها ظن الإنسان أنه فكّر في كل شيء أو قادر على أن يفكر في كل شيء سيجد نفسه غافلاً وقاصراً عما يفاجئه في الدائرتين الآتيتين:

دائرة علم الغيب:

هي الدائرة التي لا يعلمها إلا هو حيث مهما فكّرنا فلن نفكر فيما لم يكن لنا به علم أو دراية. قال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} 629. تحتوي هذه الآية على اعتراف المؤمن العالم بعلم الغيب الذي لا يعلمه. أي أنه يعلم بما أعلمه الله به بأن هناك بعث وحساب وثواب وعقاب وغيب، ولكنّه لا يعلم بما سيكون حيث ما سيكون من عند الوهاب هو علم غيب مصداقاً لقوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا

629 الأنعام، 50.

يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا
وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ {630}. فنحن نعلم بأن الساعة آتية، ولكننا لا نعلم متى، ولا
نعلم الكيفية التي ستكون عليها أو تأتي لنا بها، ولذا لا نعلم بما لا
نعلم، فالذي يعلم بما لا نعلم هو العليم الحكيم.

دائرة الممكن:

الممكن هو الذي (لا شك في حدوثه، أو ظهوره كلما توفرت
معطياته أو شروطه).

ولهذا لا يعد الممكن مستحيلا، ولأنه غير مستحيل فهو سيقع
بطبيعة الحال وفقا لما نتوقع أو وفقا لما لا نتوقع. فما يبدوا متوقعا من
شخص ما قد لا يكون كذلك من شخص غيره

فالإنسان مهما توقّع سيجد نفسه قاصرا على أن يتوقع كل شيء
مما خلق مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ} {631}. وقوله تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} {632} في اعتقادنا
الذين لا يؤمنون بهذا الأمر الذي تحويه هذه الآية الكريمة لا يعدونه
أمرا متوقعا. أما بالنسبة للمؤمنين فيعدونه أمرا متوقعا في دائرة الممكن،
وذلك لأن الوهَّاب الأعظم وهب لعباده المؤمنين المعرفة الإعجازية التي
جعلتهم يسلمون بأمر المقدر الإلهية المطلقة، ولذا فهم يؤمنون بأنه
قادر. أي بما أن الله تعالى خلق الأرض والسماوات العلا إثباتا، إذن

630 الأنعام، 59.

631 النحل، 17.

632 ياسين، 81.

بطبيعة الحال من يقدر على خلق الشيء يقدر على خلق مثله عدداً، وذلك لأن الأمر لا مستحيل بالنسبة له، ولم يعد صعباً بل إن كانت هناك صعوبة أو استحالة وفقاً لما نفكر به على مستوى العقل البشري أن تكون في الخلق الأول. فقله تعالى: {لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ} 633. تدل على أنه قادر على خلق أي شيء، حيث لا شيء أعظم خلقاً من خلق السماوات والأرض التي في عددها تماثل مع السماوات السبع مصداقاً لقوله (ومن الأرض مثلهن). وعليه الصعوبة والاستحالة أن تخلق الشيء أو تصنعه، ولا صعوبة أو استحالة في أن تضاعفه عدداً.

مكونات دائرة الممكن:

دائرة الممكن تتكون من (المتوقع وغير المتوقع) وفقاً للآتي:

المتوقع:

هو الذي (بحدوثه أو ظهوره أو وجوده لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب).

ولهذا معطيات حدوث المتوقع أو ظهوره متوفرة بين أيدي الباحثين، مما يجعل صحة إثباته (هو كما هو) وعليه إذا وقع لا تحدث المفاجأة ولا الاستغراب والدهشة.

والمتوقع يمكن أن يكون موجبا، ويمكن أن يكون سالبا.

الموجب المتوقع: كطاعة الوالدين، وإظهار الزكاة في وقتها والتصدق بأنواعه؛ فبالنسبة للمسلمين هذه من المتوقعات الموجبة

633 الطلاق، 12.

مثلها كمثل الإخلاص في العمل، والتمسك بالعبادة والقيم والفضائل الاجتماعية والإنسانية.

السالب المتوقَّع: الغش على سبيل المثال وتطفيف الميزان وشهادة الزور وأكل أموال النَّاس بالباطل والسرقة بشكل عام، والاعتصاب وغيره من السلوك السالب المتوقَّع.

غير المتوقَّع:

هو الذي لا تتوفر معطيات أو شروط حدوثه أو ظهوره بين أيدي البحاثة ومع ذلك قد يقع، ممَّا يجعله في حالة تساوي نسبي مع المتوقَّع في دائرة الممكن، ولهذا إذا ما وقع تقع المفاجأة أو الاستغراب.

ولذا، يقع (غير المتوقَّع) أو يحدث دون قراءات أو حسابات سابقة، أو يقع نتيجة قصور في القراءات والحسابات السابقة على وقوعه، ممَّا يجعله يقع (كما هو) إثباتا.

وعليه، ينبغي أن يتم التعرف على غير المتوقَّع وعلى علله ومسبباته لاحقا ليتم التعرف على نقاط الغفلة أو القصور التي لم تؤخذ في الحسبان المسبق.

فغير المتوقَّع يمكن أن يكون موجبا ويمكن أن يكون سالبا، فمن الموجب غير المتوقَّع على سبيل المثال: من كنت تعتقد بأنه سيخونك كان أول من حمى ظهره عندما تعرضت للخطر.

أما السالب غير المتوقَّع أن تجد من كنت تعتقد أن يكون حاميا لظهره أول الخائنين لك.

ولذا فالممكن ليس بمستحيل.

المستحيل: هو الذي لا إمكانية لوصوله أو بلوغه عبر الزمن.
ولذا فإن كل ما هو غير مستحيل يقع في دائرة الممكن.

وعليه:

. لا ظهور للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

. لا كمون للأشياء ما لم تكن في دائرة الممكن.

لذلك على من يراد له أن يكون خليفة في الأرض ألا يغفل عن
إظهار مواهبه وفقاً للقاعدة (كل ما ليس بمستحيل فهو ممكن).

ولذا فإن المستحيل من اختصاصات الخالق.

أما الممكن من اختصاص المخلوق.

الممكن له معطيات وله مؤشرات، ويقع في الزمان والمكان كلما
تهيأت له الظروف المناسبة لظهوره.

إذن الممكن ليس مستحيلاً.

وبما أن الممكن ليس بمستحيل.

إذن حظ الخليفة من الاسم الوهاب هو:

. أن يُفكر حتى يكتشف مواهبه، ويخطط ويعمل بلا تردد.

. أن يتأكد قطعاً للشك أن كل شيء ممكن.

. لا ييأس إن فشل في المحاولة الأولى لإظهار مواهبه.

. أن يُقيّم ما يقوم به من جهد حتى لا يستمر في الخطأ وهو لا

يدري.

. أن يكرر المحاولة باجتياز ما وقع فيه من أخطأ.

. أن يثق بنفسه أنه قوة فليقبل بتحدي الصعاب.

. ألا يلحقه شك في مواهبه التي وهبها له الله تعالى وأن يتمسك بالحقّ قولاً وعملاً وأن يتحدى الصعاب فهي الهشة التي لا تصمد أمام المتوكلين على الوهاب الأعظم.

. أن يثق بأنه لا وجود للمستحيل في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع.

ولذا فإن القاعدة هي: (كل ما هو متوقّع وغير متوقّع ممكناً).

بما أن كل ما هو متوقّع وغير متوقّع ممكناً. إذن بالنسبة لبني الإنسان فالممكن مؤسس على قاعدة. وغير الممكن مؤسس على استثناء وذلك نتيجة اختصاص الوهاب المطلق به.

ولهذا فالمتوقّع استقراء وفق حسابات أو معطيات أو مؤشرات. أما غير المتوقّع فهو المتاح لمن لم يضعه في خانة الاستثناء.

وعليه:

لو لم يكن المتوقّع في دائرة الممكن، ما كان لأحد أن يتوقعه. وكذلك لا يمكن أن يحدث أو يظهر غير المتوقّع، ما لم يكن في دائرة الممكن.

وبما أن كل شيء ممكن، إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب: لحدوث أو ظهور غير المتوقّع، بدلاً ممّا هو متوقّع. أي ظهور ما لم يكن في الحساب.

لذا: فالعبد الذي يفكر في المتوقَّع فقط، في معالجة الظواهر أو المشاكل، قد يواجهه غير المتوقَّع فعليه أن يفكر مرتين قبل أن يقرر.

فعلى سبيل المثال: قيل لأحد الأصدقاء أنّ الشيخ الفلاني أو العلامة الفلاني أو عالم علوم الفقه والدين الذي تعرف عنه كل خير قد قدِمَ على أفعال لا أخلاقية مع أحد أقاربه قبل خمس سنوات من هذا العام، فأجاب على الفور وبكل سرعة. هذا ليس ممكنا. أنا لا أصدق. وطلب الدليل والبرهان.

مع أنّ الأمر قد وقع قبل خمس سنوات من هذا التاريخ إلا أنّ صديقنا لا زال لم يُصدِّق، وبالنسبة له وكأن الأمر لم يقع بعد. وعندما أثبت له دليلا وبرهانا قاطعا دخل في دائرة الاستغراب وكأنه لم يُصدِّق.

وعليه:

. فكّر في المتوقَّع.

. فكّر في غير المتوقَّع.

. خطط في دائرة الممكن.

. لا تستغرب.

. تطلّع فإن كل شيء ممكن.

ولذا فالوهَّاب بالإضافة مهما امتلك من المواهب فهو على المستوى البشري يؤمن بالقاعدة التي تقول: (لا تتاح الأشياء للمخلوق إن لم تكن ممكنة) وفي مقابل ذلك يؤمن بالقاعدة التي تنص

على أنه (لا مستحيل على الوهاب المطلق) فكل شيء بالنسبة له ممكن.

هذا صحيح. ذلك لأن المخلوق هو محدود المقدرة.

أما الوهاب المطلق فهو القادر على كل مطلق. ونحن بني الإنسان لا نخلق مستحيلا، ولكننا نؤمن بأنه لا يخرج عن دائرة الممكن بالنسبة للوهاب تعالى، ويخرج عنها بالنسبة للوهاب بالإضافة.

وعليه فالمستحيل يُخلق عن الخالق الأعظم، والنظر إليه والتفكير فيه وبلوغه يحدث في دائرة الممكن من قبل المخلوق الأفضل. ولهذا يقول الله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ} 634

ولذا فإنَّ الموهوب لا يغفل عن دائرة الممكن والتفكير فيها، والعمل وفقا للقواعد التي تحتويها أو تتضمنها أو تشير إليها، حيث لا مستحيل في كل أمر ممكن.

وعليه يعمل الموهوب على الآتي:

. إظهار الممكن.

. إنجاز الممكن.

. بلوغ الممكن.

. التخطيط وفق الممكن.

. التطلُّع وفق الممكن.

634 الغاشية، 20.

وبما أن كل شيء ممكن.

إذن فلماذا الاستغراب؟

الاستغراب هو حدوث غير المتوقع في الزمن الذي ينتظر فيه ظهور المتوقع. أي ظهور ما لم يكن في الحسبان، وعليه يجب على المؤمن أن يضع في حسبانته كل ما هو ممكن حتى لا يفاجأ. فعلى سبيل المثال: البحث عن العمل لو لم يكن ممكناً، ما كان البحث عنه. ولهذا البحث عن العمل ممكناً، والحصول عليه ممكناً. وأيضاً عدم الحصول عليه ممكناً. هذا الأمر هو المتوقع؛ لكن إذا قُدِّمت لك الإهانات التي لم تكن في الحسبان، وأنت تبحث عن فرصة عمل، فهذا الأمر بالنسبة لك غير متوقع.

أمّا في دائرة المستحيل على المستوى البشري فإنه من غير الممكن أن:

. تأتي بالشمس من المغرب.

. ندمج الشمس في القمر.

. يطير الإنسان من غير جناحين.

. نفكر إن فقدنا عقولنا.

. ومن غير الممكن أن نحيا الموتى.

وقد يتساءل البعض: ما الفرق بين الممكن والمستحيل؟

- الممكن، قابل للإثبات والاكتشاف، أي أنه في حاجة لمن يثبتته ويبرهن على معطياته ومبرراته. ولذا فهو قابل للإثبات والنفي

والرفض، والظهور والكمون والشك والمقارنة والثبات والاهتزاز، وقابل
للدراسة والبحث والتقويم.

أما المستحيل فمثبت. وهو الذي نعلم به ولا نعرفه، فعلى سبيل
المثال:

. نعلم بيوم الحساب ولكننا لا نعرفه ولا يمكن لنا ذلك.

. الشمس تشرق وتغرب ولن نستطيع تغيير أمرها أو تبديله.

. القمر يعكس الضوء ولن نستطيع إخفاء الضوء عنها.

. الموتى لا يعودون إلى الحياة ولن نستطيع إيقاف الموت عنّا.

. المستحيل مع أنّه موجود إلا أنّه لا ينفى.

. عندما يكون اليوم السبت فإن الأحد سيأتي غدا وفقا لعلمنا

ولكن قد لا يأتي الأحد واليوم الغد الذي يحتويه إذا صدر له الأمر
كن من عالم الغيب.

إذن المستحيل: هو الذي لا يمتلك العباد أمره حيث خروجه عن

دائرة الممكن وفق حساباتنا وقدراتنا واستعداداتنا وطاقاتنا.

إذن المتوقع وغير المتوقع هما اللذان يقعان من قبل المخلوق أو من

طرفه. والمستحيل هو الذي يقع من قبل الخالق.

ولذا فكلاهما يحدث، وفقا لتوقعاتنا. إلا أنّ الممكن يتحقق

بأيدينا والمستحيل ما لم تستطع أيدينا على فعله.

وعليه المستحيل نتوقعه ولكن وقوعه من خارجنا أمّا الممكن

نتوقعه ويحدث من داخلنا.

بناءً على ما تقدم هل يمكن لنا أن نفرّق بين الصّعب والمستحيل؟

الصعب فعل يُنفى ويُثبت، ولهذا فهو ممكنا، وبالرغم من أنه ممكنا إلا أنه ليس سهلا. ولذا فهو في حاحه لبذل الجهد، مع إعطاء الزمن الكافي والإمكانات الكافية. والمستحيل هو الذي لا يتحقّق وذلك لانعدام مقومات وجوده أو إثباته.

وعليه: من المستحيل أن يكون الإنسان إلهًا. ومن الصعب أن يصبح الإنسان عالما.

وبما أنه من الصعب أن يصبح الإنسان عالما، إذن فمن الممكن أن يكون.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ} 635. أي كيف يمكن له الولد وامرأته عاقر لو لم يهبه الله إياه؟ ولذا قال: (وهبنا له إسحاق) للتأكيد على أن أفعال المستحيل بيده وبإمكانه إظهارها متى ما يشاء، للذين لا تمتد قدراتهم وقواهم خارج دائرة الممكن (المتوقّع وغير المتوقّع).

وإسحاق الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم عليهما الصّلاة والسّلام، وهب له إمكانية الإنجاب فأنجب ولد له من بعده هو يعقوب عليه الصّلاة والسّلام. (وجعلنا في ذريته النبوّة والكتاب) تدل هذه الآية الكريمة على أن النبوّة التي سبقت إبراهيم لم يتم اصطفاؤها من بيت واحد، إلا من بعده حيث أصبحت النبوّة والرسالات في ذريته عليهم جميعا الصّلاة والسّلام. وهذا الأمر هو الذي جعل إسحاق نبيا مثلما

635 العنكبوت، 27.

إبراهيم نبيا وكذلك جعل من يعقوب حفيدا لإسحاق ونبيا. إذن الفرع الذي من صلب إبراهيم هم الذين خصَّهم الله باصطفاء الأنبياء منهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 636. فال إبراهيم هم الذين يؤولون إليه في حالتين:

الحالة الأولى: أنهم من صلبه.

والحالة الثانية: أنهم من دينه مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 637 وقوله تعالى: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} 638.

وهكذا هو الحال مع الذين من بعده من آلا بيته وهم:

آل عمران وآل ياسين، وآل موسى وهارون، وآل داود، ومحمد. قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} 639 وعليه لقد ذكر القرآن آل نوح وآل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل موسى وآل هارون وآل داود ثم ذكر أهل البيت في هذه الآية فكان المقصود به نساء الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين وكذلك لم يبق له ولد ذكر حتى ينجب مما يدل على انقطاع الاصطفاء من بعد محمد الذي يعود كما يعود الأنبياء من قبله إلى آل بيت إبراهيم. وعليه فإن المقصود من آل البيت هم الذين من صلب إبراهيم وهم الذين أسلموا لله رب العالمين.

636 آل عمران، 33.

637 آل عمران، 95.

638 آل عمران، 67.

639 الأحزاب، 33.

وعليه من يريد أن ينسب نفسه إلى آل البيت ينبغي أن يتوفر فيه
شرطان:

الشرط الأول: أنه من الذين يؤولون إلى إبراهيم دما.

الشرط الثاني: أنه من الذين يدينون بدين إبراهيم وهو الإسلام
حيث إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما.
ولذا فالبيت الذي يجمع المسلمين هو الذي رفع قواعده إبراهيم
وإسماعيل عليهم الصلوة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ يَرْفَعُ
إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ} 640، والسر من وراء بناء البيت هو طمأننة قلوب المؤمنين
وتأمينهم من كل خوف وذلك لأنه بيت توحيد لا بيت شرك، ولهذا
فالتوحيد يؤدي إلى الاطمئنان ويحقق الأمن والشرك لا يحقق إلا
الخوف قال عز وجل: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا
مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ
لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} 641 وقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا
رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} 642.

ولأن ما وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه الصلوة والسلام لا ينقطع
فقد أضاف (وأتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة من الصالحين) أي
أنه كسب الدنيا بما عمل دعاء متصلا مع الأنبياء والصالحين والذين
هم يؤمنون بقوله جلا جلاله: (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا
ولكن كان حنيفا مسلما).

640 البقرة، 127.

641 البقرة، 125.

642 قريش، 3، 4.

قال تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} 643 فلما هاجر إبراهيم من أجل دينه وحيدا وهب الله تعالى له ولدا هو إسحاق، وهب له ولد ولد هو يعقوب عليهما الصلاة والسلام حتى لا يكون وحيدا وبقيت النبوة فيهم إلى الرسالة الخاتمة التي وهبها الله تعالى رحمة لمحمد عليه الصلاة والسلام، وبقيت الرسالة هداية للعالمين وبقي البيت لله وحده مثابة وآمنا.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} 644 وذلك استجابة لسؤال موسى عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى} 645 لذا كانت الاستجابة هبة من رحمته على موسى عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 646. فالوهاب المطلق مثلما وهب هارون لموسى عليهما الصلاة والسلام وهب سليمان لداود عليهما الصلاة والسلام، وبالتالي بما أن باب الوهب مفتوح لمن يصدر الأمر له رحمة من الرحمن الرحيم فلا يستطيع أحد من العباد غلقه. وبهذا الوهب سينتصر الإسلام حتى يعم المعمورة وحينها يثق الإنسان بأنه في الأرض خليفة.

643 مريم، 49، 50.

644 مريم، 53.

645 طه، 29، 37.

646 ص، 30.

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رِعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} 647. أي أنّ يحيى عليه الصلّاة والسّلام كان استجابة لدعاء زكريا عليه الصلّاة والسّلام وهبة من الله تعالى عليه بالرغم من أن زوجه عاقر ولهذا قال (أصلحنا له زوجه) حتى أنجبت يحيى الذي وهبه الله تعالى لزكريا، حتى لا يتركه منفردا لا ولد له ليرثه من بعده، ولأن الوارث المطلق هو الله قال زكريا: (وأنت خير الوارثين) ببقائك الدائم الذي لا يماثلك فيه أحد من خلقك سبحانه أتوب إليك، لا إله إلا أنت الحي الدائم.

وحظ الخليفة في الأرض من هذا الاسم والصفة الحسنة أن يهب الطاعة مخلصا لله تعالى، وأن يهب الطاعة للوالدين في غير معصية الله، حتى أنه يخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وأن يهب الطاعة للحقّ والعدل وأفعال الخير الحسان، وأن يهب الاحترام للآخر ولا يجادله إلا بالتي هي أحسن.

وحظ الخليفة من اسمه الوهاب أيضا: أن يستمد منه الفضيلة في العطاء غير المحدود جُهدا أو فكرة أو قولا أو مالا، ودون مقابل عائد منتظر. وألا يخلط أمر ما يتصدق به من صدقات وزكاة مع ما يهبه وهبا دون منّة منه أو انتظار ثواب عاجلا أم أجلا.

فالعبد الوهاب هو المستخلف بالإيمان الذي يُمكنه من أن يعطي ولا يمن، ويعطي ولا ينهر، ويعطي ولا يندم، ويعطي ولا ينتظر ممن أعطى شيئا عاجلا أو أجلا. وأن يستثمر مواهبه التي وهبها إليه

647 الأنبياء، 90.

الوهاب الأعظم فيما يفيد العباد ويحقق لهم الأمن والسلام ويجعلهم على الوحدة والمحبة والوئام لا على الفرقة والشقاق والصدام.

إن المواهب التي يهبها الوهاب الحق لبعض من عباده لا ينبغي أن تطمس أو تُمحد، بل يجب أن توهب للآخرين وتنقل مع المعارف والعلوم لتنمي قدراتهم واستعداداتهم فيما يفيد وينفع ويترك أثرا طيبا بين الناس.

وعليه فالوهاب هو الذي وهب لنا الحياة وهو الذي سخر لنا الفلك تجري بأمره في البحر بما ينفع الناس، ووهب لنا الماء فجعل منه كل شيء حيا، ووهبا لنا الرزق وجعلنا النافقين منه، وهو الذي أرسل الرياح مبشرات ليذيقنا من رحمته التي وهبنا منها رحمة، وجعل الرياح والسحاب مسخرات بين السماء والأرض لقوم يفقهون، وأحل لنا ما تشتهيه الأنفس من ثمار وشراب ولحم طير وصيد بر وبحر، ووهب لنا من أنفسنا أزواج ورحمة لنسكن إليها، ووهب لنا ذرية صالحة وفضل كبير.

وعليه، يوضع اسم الله تعالى (الوهاب) ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة الهبة والعطاء وهي (البر، الكريم، الواسع). هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب، بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه التي عمّ بها جميع الوجود بحسب ما تقتضيه حكمته. وخص المؤمنين منها، بالنصيب الأوفر، والحظ التام، إذ يقول تعالى: ﴿وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَايُ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ {648}

(الوهاب) هو المتفضل بالعطايا المنعم بها لا عن استحقاق عليه، فلا يستحق أن يسمى وهابا إلا من تصرف مواهبه في أنواع العطايا فكثرت نوافله ودامت، والمخلوقون إنما يملكون أن يهبوا مالا ورزقا، ولا يملكون أن يهبوا شفاء لسقيم ولا ولدا لعقيم ولا هدى لضال ولا عافية لذي بلاء، والله الوهاب سبحانه يملك جميع ذلك وسع الخلق جوده ورحمته فدامت مواهبه واتصلت مننه وعوائده ومنها "المعطي والمانع" 649.

واسم الله تعالى (الوهاب) هو مصدر كل هيبة، والهبة هي العطية الخالية من العوض والغرض، فالهبة أن تجعل من ملكك لغيرك بغير عوض، يقال وهبته هبة وموهبة وموهبا، قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمَنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} وقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} {650 أما قوله تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا} {651 فنسب الملك إلى نفسه الهبة لما كان سببا في إيصاله إليها، ويوصف الله تعالى بالواهب والوهاب بمعنى أنه يعطي كلا على استحقاقه 652، ولا تكون الهبة حقيقية إلا إذا كانت من الله تعالى، إذ لا مالك بالمطلق سواه، والمالك هو القاعدة

648 - الأعراف 156

649 - الأسماء والصفات، ج 1، ص 138

650 - إبراهيم 39

651 - مريم 19

652 المفردات في غريب القرآن، ج 1، ص 533

الأساسية لكل هبة أو عطية فلا يكون هناك هبة أو عطاء من لا يملك، إذ يقول تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيَّتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} 653 هذه الآيات الكريمة بسياقاتها المتعددة الدالة على ملك الله تعالى، تعظم في أنفسنا عظم ملك الله تعالى، وتحيل إلينا كل الصور التي وردت من المادة اللغوية (وهب) في القرآن الكريم والتي تمثل بمجموعها تشكلا معرفيا يحيل لنا دلالات متعددة ومتنوعة أو مختلفة، ابرز ما يسم هذه الدلالات إنها تركزت على ملك الله تعالى وقدرته في الهبة والعطاء، وفي قضايا مهمة جدا، ومن هذه القضايا هي قضية الذرية، التي تشغل حيزا كبيرا في الفكر البشري، فهي أصل الاستمرار وبقاء النوع، فضلا عن ذلك تعد أحد الثمار المتبقية في الدنيا، يقول رسول الله عليه الصلوة والسلام: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ" 654. هنا تتضح صورة الذرية المطلوبة والمرجعيات التي تحيل عليها، وهذه الصورة تبقى ملازمة للخليفة يطلبها حثيثا مما يؤصل فيه فكرة الذرية التي تخرج من نطاق استمرار النوع إلى تشكل من تشكيلات المغفرة التي يسعى لها، لكن هذا لا يتحقق للجميع، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُرَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ} 655 النص

653 - آل عمران 26 - 27

654 - صحيح مسلم، ج 8، ص 405

655 - الشورى 49 - 50

القرآني هنا يحيل إلى تشكيلات مختلفة من الهبة، فكلها تختلف وترسم صورة سعة ملك الله تعالى ونفوذ تصرفه في الملك والخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، والهبة المتحققة هنا تجري وفق مشيئة الله تعالى وحكمته، فالثنائية التي يركز عليها استمرار النوع هي الذكر والأنثى وعدم الاستمرار العقم، والأمور هنا تعود إلى قاعدة واحدة وهي الزواج، يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 656 ومن هذه القاعدة ينطلق الاستمرار وعدمه، فمن الخلق من يهب له الله تعالى إناثا، ومنهم من يهب له ذكورا، ومنهم من يزوجه، أي: يجمع له ذكورا وإناثا، ومنهم من يجعله عقيما لا يولد له. وفي كل هذه الأحوال الثلاث يترتب الأمر وفق علم الله تعالى، فانه عالم بما يصلح لكل واحد منهم وهم لا يعلمون سبحانه جلّ جلاله إنه ربي، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته. وتتضح صورة علم الله تعالى في رزق الأزواج بالذرية الصالحة وعدمها بقوله: {فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا} 657، وهنا قتل الغلام رغم انه إحدى الهبات الثلاث، إذ يتجلى الأمر ليحيل لنا علم الله تعالى بما يصلح للخلق، إذ يقول تعالى: {وَأَمَّا الْعُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَحَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَآرَدْنَا أَنْ نُبْدِلَهُمَا رُحْمًا حَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا} 658 هنا ترسم لنا ملامح صيغة (يهب) التي تمثل الارتكاز في النص القرآني لقوله تعالى: {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ} إلا أن دلالتها هنا موجودة وان لم ترد في النص القرآني، إذ أن الهبة تحققت هنا بالذكر،

656 - الروم 21

657 - الكهف 74

658 - الكهف 80، 81

لكن هذه الهبة لم تستمر بل قل تغيرت ورسمت من جديد ضمن إطار الرحمة المتحققة للأبويين، ممّا يعزز هنا فكرة الرحمة المصاحبة للهبة. وهذا يحيلنا إلى قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} 659 هنا تتجسد صفة المؤمن الباحث عن الجنة، وبطريق هو يختاره دون باقي الطرق، فضلا عن ذلك أن هذه الصفة تعنى بانتشار الإسلام وتكثير أتباعه فيدعون الله أن يرزقهم أزواجا وذريات تقر بهم أعينهم، فالأزواج يطعنهم بإتباع الإسلام وشرائعه؛ فقد كان بعض أزواج المسلمين مخالفات أزواجهم في الدين، والذريات إذا نشأوا نشأوا مؤمنين، وقد جُمع ذلك لهم في صفة {قرة أعين}. فإنها جامعة للكمال في الدين واستقامة الأحوال في الحياة إذ لا تقر عيون المؤمنين إلا بأزواج وأبناء مؤمنين 660. هنا نجد الترابط المعرفي المتزامن مع الفعل (هب) الذي يرسم أطر تشكيله متعددة تسير ضمن تيارين كل واحد منهم يتكئ على الآخر من أجل الوصول إلى نهاية يتمناها المؤمن منذ أن عرف الشهادتين وتخيّل الجنة كما صورت له في القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} 661 وطلب الهبة جزء من السعي الموصل إلى مرضاة الله تبارك وتعالى.

نلتمس من السياقات المتعددة التي وردت فيها لفظة (وهبنا) أن الهبة فيها كانت ذرية للأنبياء عليهم الصلوة والسلام، يقول تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ أَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي

659 - الفرقان 74

660 - التحرير والتنوير، ج 10، ص 126

661 - الإسراء 19

المُحْسِنِينَ} 662 وقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ} 663 إلا لموسى عليه الصلوة والسلام فإن الهبة كانت أن وهب الله تعالى له أخاه هارون عليه الصلوة والسلام، يقول تعالى: {وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا} 664 والهبة المتحققة هنا سبقها سؤال من موسى عليه الصلوة والسلام لله تعالى تضمن أن يكون هارون وزيراً له، إذ يقول تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا} قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} 665، والهبتان المتحققتان تدلان على حكمة الله تعالى في تيسير دعوته، فكل الهبات عدا هبة موسى عليه الصلوة والسلام جرت ضمن تشكّل عمودي مستمر لا ينقطع يسير تترى وختاماً، قال تعالى: {ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرّة أعين واجعلنا للمتقين إماماً} 666.

قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ} 667 فهنا يحدث تشكلاً ملازماً ومستمرّاً للرسول عليهم الصلوة والسلام، وهو العقوبة المتحققة المستمرة التي لا تنقطع، فكلما

662 - الأنعام 84

663 - ص 30

664 - مريم 51 - 53

665 - طه 25 - 36

666 الفرقان، 74.

667 - المؤمنون 44

بعث رسول إلى القوم الذين أرسل إليهم، كذبوه ووقفوا بوجه دعوته بكل الوسائل، فأهلكهم الله تعالى والحقهم بمن تقدمهم من المهلكين، وجعلهم أخبارا وأحاديث يتحدث بها الناس، فهنا يحصل التزام بين إرسال الرسل وبين العذاب المتحقق، وكلا الأمرين في حالة استمرار إلى أن تتحقق الدعوة التي يريدتها الله تبارك وتعالى كما يشاء لها أن تكون عليه سبحانه إنه القادر جلّ جلاله.

أما هبة موسى عليه الصلاة والسلام، فتختلف عن باقي الهبات باستثناء هبة زكريا عليه الصلاة والسلام، فهي تشبهها إذ سبقت بطلب، وطلب موسى عليه الصلاة والسلام اشتمل على أمور كثيرة ذكرها وكلها تتعلق بهارون عليه الصلاة والسلام، البداية كانت موحية بأمر عظيم الجلل وهو المواجهة التي يجب أن تتحقق مع فرعون بوصفه رأس الكفر والجبروت، وهنا نعود إلى سؤال موسى عليه الصلاة والسلام، فهو في مجمله يصب في صالح دعوته المرتقبة لفرعون الذي تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية، فقد أحس أنه يحتاج إلى أمور تعينه وتكون سببا في إصلاح المرسل إليهم، فكانت البداية بشرح الصدر، لأن في سعته تحمل للأذى الذي قد يتعرض له، وقد يكون أذى قولي أو فعلي، لأن الصدر إذ ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم. وهنا نتذكر قول الله تعالى لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام، يقول تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} 668.

أما قوله تعالى: {وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي} 669 فهنا صورة التيسير غير محددة فهي مطلقة يريد موسى عليه الصلاة والسلام كل الطرق الموصلة لتحقيق الهدف المنشود أو المأمول، ثم بعد ذلك يعرض عينا فيه (وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي) وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، واللسان بطبيعة الحال هو أداة مهما في التواصل والتفاهم والحوار والجدل، إذ أن مهمته تتطلب هذه الأداة فلا بد أن تكون مهياة كي تؤدي عملها المرتقب، ففيه المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني. ثم يأتي بعد ذلك السؤال الأخير والمهم: (وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي) وهنا تكمن نقطة مهمة في الاختيار فضلا عن المؤازرة والمساعدة وهي أن الاختيار أراداه لأخيه هارون عليه الصلاة والسلام فذلك من باب البر وأحق بالبر القرابة، (وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي) ولم يكتفي موسى عليه الصلاة والسلام بالمشاركة لهارون معه بالأمر بل الإشارك بالنبوة، بأن يجعله الله تعالى نبيا رسولا مثله. فكانت الإجابة من الله تعالى: (قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى) أي أعطيت جميع ما سألت، فكل ما سأله موسى عليه الصلاة والسلام يصب في صلب دعوة الله تعالى، فهو على معرفة تامة بالأمر الذي يريد القيام به وما يتطلبه.

قال تعالى: {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} 670 هذه الآية تمثل صورة من صور الدعاء، والدعاء هو العبادة، وهنا

669 طه 26.

670 - الأنبياء 89 - 90

ندخل في قضية مهمة وهي آداب الدعاء وأسباب الاستجابة،
فلنتعرف على آداب الدعاء وأسباب الإجابة:

- 1- النية الخالصة في طاعة الله تعالى.
2. الإخلاص في طاعة الله قولاً وعملاً.
- 3- الجزم في الدعاء واليقين بالإجابة.
- 4- الإلحاح في الدعاء وعدم الاستعجال.
- 5 - الدعاء في الرخاء والشدة.
- 6- لا يسأل إلا الله وحده.
- 7 - الاعتراف بالذنب والاستغفار منه والاعتراف بالنعمة وشكر الله عليها.
- 8 - التضرع والخشوع والرغبة والرغبة.
- 9 . التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وعليك بمعرفة أن لكل صفة من صفات الله وأسمائه التي لا تحصى استجابة فادعوه بالصفة التي هي ذات علاقة بالموضوع الذي تدعو إليه.
- 10 - أن يكون الداعي طعامه ومشربه وملبسه حلال.
- 11 - أن يكون مصلحاً في الأرض.
- 12 - أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.
- 13 - الابتعاد عن جميع المعاصي⁶⁷¹.

⁶⁷¹ - الدعاء ويليهِ العلاج بالرقى الكتاب والسنة، ج 1، ص 4

فبعد التعرف على آداب الدعاء وأسباب الاستجابة نعود إلى دعاء زكريا عليه الصلّاة والسّلام ونحلله وفق ما ذكر من آداب الدعاء وأسباب الإجابة، نجد أن النصّ القرآني علق سبب الاستجابة بقوله تعالى: { فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ } 672 هنا أثنى الله تعالى عليهم، فقد كانوا يبادرون إلى الخيرات ويفعلونها في أوقاتها ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا الفرصة فيها، وكان سؤالهم في الأمور المرغوب فيها من مصالح الدنيا والآخرة، ويرهبون غضب الله تعالى، وكانوا خاضعين متذللين لله تعالى.

أما علاقة الأسماء الحسنى بالدعاء فنلتمس ذلك في دعاء زكريا عليه الصلّاة والسّلام، فقد أختار اسما من أسماء الله الحسنى يتعلق بمضمون دعائه، وهو اسم (الوارث) (وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) وجملة (وأنت خير الوارثين) ثناء لتمهيد الإجابة، أي أنت الوارث الحقّ فاقض عليّ من صفتك العلية شيئا 673 فزكريا عليه الصلّاة والسّلام فكّر في أمر الدعوة ومن يقيم مقامه في نصح العباد وتوجيههم نحو الله تعالى، فالدعوة تحتاج إلى استمرار، وهذا الاستمرار يتضمن البقاء، فقوله: (وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ) أي: خير الباقيين، فذكر صفة من صفات الله عند سؤاله إعطاء ما هو من جنسها، وهذا الأمر تحقّق أيضا للنبي أيوب عليه الصلّاة والسّلام بعد أن مسه الضر، يقول تعالى: { وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ

672 الأنبياء 90.

673 - التحرير والتنوير، ج 9، ص 201

أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ {674}. وهذا الأمر لا يقتصر على الأنبياء بل يشمل كل الخلق، يعنى أن أسماء الله الحسنى تتردد بين ثنات دعاء الخلق فيقع الاختيار عليها وفق النقص الحاصل لديهم، فالمحتاج للرفقة والرحمة يكون في دعائه (الرحمن - الرحيم - الفتاح - اللطيف - الرؤوف - الودود) والمحتاج للهبية والعطاء يكون في دعائه (الوهاب - البر - الكريم - الواسع) وكذلك بقية أسماء الله الحسنى.

والخليفة يتسم بطبائع عديدة ومن بين هذه الطبائع السعي المتواصل بتحصيل كثير مما يرى فيه تحقيق حاجة في النفس، أو مطلب من مطالب الحياة، من الأمور المادية أو المعنوية، العاجلة أو الأجلية، بوصفه نفسا إنسانية، إذ يقول تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} 675 وما كان تحقيق ما ترجوه هذه النفس مرتبطا بالواقع بقضاء الله تعالى وقدرته ومرهونا بإرادة الله تعالى وقدرته، ولا يتم إلا بعطائه وهبته، فهنا لا بد من التوجه إلى الله تعالى، فهو الرب المتفضل على عباده بالعطاء، وهو الذي يحقق ما يريدون، قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} 676.

674 - الأنبياء 83، 84

675 - الكهف 46

676 - غافر 60، 61

وحظ الخليفة من اسم الله تعالى (الوهاب) أن يتخلق بشيء مما يدل عليه قدر استطاعته، في الحدود والمقاييس البشرية، فيكون وهابا كريما، واسع العطاء مما تفضل الله تعالى عليه من مال أو جاه، وذلك بالبدل السخي في أبواب البرّ التي حضّته على البذل فيها شريعة الله تعالى.

واسم (الوهاب جلّ جلاله) في حقّ الله تعالى يدل على البذل الشامل، والعطاء الدائم بغير مكلف ولا عرض ولا عوض، وكل من يعطي سواه فإنما يعطي بعوض أو عرض في الدنيا، أو في الدين عاجلا أم أجلا، فإذا لا يصور الهبة ولا يصح الوهاب إلا في الله وحده، لأن الهبات قدر منه سبحانه على عباده في دنياهم وآخرتهم دون انقطاع ولا نفاذ بل في نماء وازدياد، من ذلك قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} 677 هذه صورة من صور النماء التي بينها الله تبارك وتعالى لعباده، هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله (من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) وهنا قال: (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) أي: في طاعته ومرضاته، وأولها إنفاقها في الجهاد في سبيله (كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة) وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده يبصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتتقاد النفس مدعنة للأنفاق ساححة بما مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال

النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون (والله يضاعف) أكثر من هذه المضاعفة (لمن يشاء) فيعطيهم أجرهم بغير حساب (والله واسع) الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يخفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاضمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو (عليم) بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته 678.

وختاماً { رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا } 679.

دعوة موسى صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: { وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا } 680 كانت دعوة من أجل تبليغ الرسالة وإعلاء كلمة الله تعالى، فاستجاب الله له، وزاده على الطلب في الوهب حيث قال تعالى: { وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا } 681.

678 - تفسير السعدي، ج 1، ص 112

679 الفرقان، 74.

680 - طه 29-34

681 - مريم 53

النبي

هارون من السنّة

هارون عليه السّلام نبيا ورسولا ووزيرا اصطفاه الله عزّ وجلّ سندا
لرسالة موسى عليه السّلام، وهو ذو مكانة رفيعة عند بني إسرائيل،
وهو بما وصفه الله به في كتابه الحكيم هو رجل دولة (وزيرا) أي أنّ
هارون على مهام ثلاثة:

. النبأ

. الرّسالة.

. الوزارة.

ولهذا عصّد الله أزر موسى بأخيه هارون عليه السّلام وأناط بهما
دعوة بني إسرائيل وتخليصهم من عبودية فرعون وجبروته واستدلاله لهم،
ولقد نصر الله موسى وهارون وأهلك فرعون وجنوده، وأورث بني
إسرائيل الأرض من بعدهم

هارون فصّح لسان ومكانة:

ولأنّ موسى يعرف فصاحة ومكانة هارون في قومه، ومقدرته
على المخاطبة والمحاجّة، طلب من ربّه أن يجعله معه سندا، قال تعالى:
{وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا
يُصَدِّقُنِي} 682

682 القصص 34.

ولهذا كان هارون سندا لموسى في حوارهم مع فرعون والذين معه من الكافرين؛ فكان الوزير بما وُصف به من وزارة، وهو المتمكن من الحجّة والفصاحة والمكانة عند بني قومه.

ولأنّه مرموق المكانة فقد راه رسول الله في رحلته السماوية في السماء الخامسة كما جاء في الحديث، وفقا لتفسير ابن كثير، قال الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَقَّانُ، حَدَّثَنَا هُمَامٌ قَالَ: سَمِعْتُ قَتَادَةَ يُحَدِّثُ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ مَالِكَ بْنَ صَعْصَعَةَ حَدَّثَهُ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّثَهُمْ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَّ بِهِ عَلَى الْبَرَقِ فَقَالَ: "بينما أنا في الحطيم قال: "فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ فَاَنْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى أَتَى بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَاسْتَفْتَحَ، فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ، قِيلَ أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ فَقِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنَعْمَ الْمَجِيءُ عَلَيْهِ - قال ففتح لنا فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ مَرْحَبًا بِالابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ قَالَ ففتح لنا، فلما خلصت فإذا عيسى ويحيى وهما ابنا الخالة، قال هذان يحيى وعيسى فسَلِّم عليهما - قال - فسَلَّمْتُ عليهما فَرَدَّا السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّالِثَةَ فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ جِبْرِيلُ قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ قِيلَ أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلَنَعْمَ الْمَجِيءُ قَالَ ففتح لنا، فلما خلصت فإذا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ هَذَا يُوسُفُ - قَالَ - فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ

فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ، قِيلَ أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ - قَالَ - ففتح لنا فلما خلصت فإذا إدريس عليه السلام، قال هذا إدريس، قَالَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. قَالَ - ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ، قِيلَ أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، ففتح لنا فلما خلصت فإذا هارون عليه السلام قَالَ هذا هارون فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. ثُمَّ صَعِدَ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ جِبْرِيلُ، قِيلَ وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ مُحَمَّدٌ، قِيلَ أَوْ قَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ، ففتح لنا فلما خلصت فإذا موسى عليه السلام قال هذا موسى فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالْأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ - قَالَ - فَلَمَّا تَجَاوَزْتُهُ بَكَى قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي "683.

لين هارون وودّه:

كان هارون عليه السلام على منزلة عالية من موسى عليه السلام، أي أنّ هارون رفيع المنزلة عند أخيه موسى وعند ربّه، ولهذا ثمّ اصطفاؤه رسولا مساندا لأخيه ومعين له على بني إسرائيل، وذلك كان هارون متميّز بوجهه ولين جانبه مع بني إسرائيل. وفي هذا الشأن روي

683 تفسير ابن كثير ط العلمية، 5، ص 12.

حديث عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم يقول فيه لعلي: "أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" 684

(قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ) وَهَذَا لَا يُوجِبُ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ سِوَاهُ وَلَا اسْتِحْقَاقَ الْإِمَامَةِ بَعْدَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّ هَارُونَ لَمْ يَلْ أَمْرَ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَإِنَّمَا وِلي الأَمْرِ بَعْدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوشَعَ بْنِ نُونٍ فَتَى مُوسَى وَصَاحِبَهُ الَّذِي سَافَرَ مَعَهُ فِي طَلْبِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا وِلي الأَمْرِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبَهُ فِي الْعَارِ الَّذِي سَافَرَ مَعَهُ إِلَى الْمَدِينَةِ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيَّ نَبِيًّا كَمَا كَانَ هَارُونَ نَبِيًّا، وَلَا كَانَ هَارُونَ خَلِيفَةً بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ فَقَدْ صَحَّ أَنَّ كَوْنَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِنَّمَا هُوَ فِي الْقَرَابَةِ فَقَطُّ، وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْقَوْلُ إِذَا اسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَقَالَ الْمِنَافِقُونَ اسْتَقْلَهُ فَخَلَفَهُ؛ فَلِحَقِّ عَلِيِّ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَكَى ذَلِكَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَئِذٍ أَنْتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، وَهَذَا يُرِيدُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ مُخْتَارًا اسْتِخْلَافَهُ كَمَا اسْتَخْلَفَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هَارُونَ. ثُمَّ قَدْ اسْتَخْلَفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَبْلَ تَبُوكَ وَبَعْدَ تَبُوكَ عَلَى الْمَدِينَةِ فِي أَسْفَارِهِ رَجَالًا سِوَى عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَصَحَّ أَنَّ هَذَا الْإِسْتِخْلَافَ لَا يُوجِبُ لِعَلِيٍّ فَضْلًا عَلَى غَيْرِهِ وَلَا وِلَايَةَ الأَمْرِ بَعْدَهُ كَمَا لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ لِعَيْرِهِ مِنَ الْمُسْتَخْلَفِينَ 685.

ونحن في بحثنا عما يتعلق بالرَّسولِ هارون عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ نقول: ما قاله الشيخ العدوي على تأصّل الوثنية في بني إسرائيل بالرَّغم

684 الفصل حماية الرَّسولِ حمى التوحيد، ص 94. في الملل والأهواء والنحل، 4، ص 78.

685 الفصل في الملل والأهواء والنحل، 4، ص 78.

من دعوة موسى عليه السّلام لهم الأيّام والليالي الطويلة، فيقول: "فهذا نبي الله موسى يمضي الأيّام في دعوة القوم إلى توحيد الله تعالى، ويدأب على محاربة الشّرك والوثنية أيّاماً وليالي، ثم يترك أخاه هارون عليه السّلام؛ فيطمع القوم في حلمه ولين جانبه وودّه لبني إسرائيل، فينتهز السامري تلك الفرصة التي فيها أصبح ودّ هارون ظاهراً، ويعمل ما من شأنه أن يضل القوم وذلك بصنعه عجل من حلي الذهب والفضّة على نحو خاصّ، بحيث إذا مرّ الهواء يصدر منه صوت كصوت العجل، واستغل سداجة بني إسرائيل وجهلهم، ومن ثمّ؛ فموّدّ هارون لقومه ولين جانبه تجاههم جعلهم يستغلون غياب موسى ويحيدون عمّا ارشدهم به موسى، ومن هنا؛ فالود مع أنّه قيمة رفيعة عند الله الودود الأعظم؛ لكنّها قد تستغل من قبل متربصي الدوائر في غير محلّها، ولهذا كانت صفة هارون من صفة الودود المطلق؛ فهو الذي بوّدّه خلق عباده في أحسن تقويم. وهنا فالودود "هو الذي يحبّ الخير لجميع الخلق؛ فيحسن إليهم ويثني عليهم" 686. وهو الذي "يؤدّ عبادة الصّالحين فيحبّهم ويقربهم ويرضى عنهم ويتقبّل أعمالهم، وهذه محبة خاصّة بالأنبياء والصّالحين، أمّا المحبة العامّة؛ فالله هو الودود ذو إحسان كبير لمخلوقاته من جهة إنعامه عليهم وإكرامه للإنسان واستخلافه بينهم، حيث أسجد له ملائكته واستخلفه في أرضه على سبيل الابتلاء، واستأمنه في ملكه انتظارا لمزيد من الإكرام في دار الجزاء، وبعث إليهم الرّسل وأنزل عليهم الوحي من السّماء، كل ذلك بفضله وكرمه وعطائه ومدده" 687.

686 المقصد الأسنى، ج 1، ص 122.

687 أسماء الله الحسنى، ج 23، ص 10.

وعليه فالودود: هو الله المتصف بالود، ولأنّ الود من ذات الله؛ فإن استمداده لا يكون إلا منه، ولهذا فالله الودود مصدرٌ لكل ود كما أمدّ الله هارون بوّده.

والودود: هو غير منقطع الود، وهو الذي يوّد المودود بما لا يكون في حساباته، أو أنّه في حساباته ولكنّه في غير دائرة المتوقّع الزماني أو المكاني، أو الاثنين معاً.

والودود: هو من يملك ما لا يملكه غيره، في الوقت الذي يكون الغير في حاجة ممّا يملك المتصف بالود، ولذا فالود لا يقابله إلا ودّ، والود لا ينتج إلا محبّة بها تطوى المسافات بين الودود المطلق والودود بالإضافة، وهكذا يمتدّ الودّ من ودودٍ إلى مودودٍ من بعده مودود، ولهذا فالود يستخلف فيمن تهيأت نفسه لمبادلة ودّ بودٍ كما استخلفه في هارون عليه الصّلاة والسّلام

والله تعالى ودود بالآتي:

1 . ودود بمغفرته: قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُ لَا يَكُنْ لَهُ جَزَاءُ مِنْ شَيْءٍ مَّا فَعَلُوا وَأُولَٰئِكَ جَزَاءُ اللَّهِ بِالْحَسَنَاتِ وَالَّذِينَ يَدَّبَرُوا وُجُوهَهُمْ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَالَهُمْ جَهَنَّمَ مِمَّا رَزَقُوا اللَّهَ لِيُفْسِدُوا فِيهِ آلَهُمْ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَالَهُمْ جَهَنَّمَ مِمَّا رَزَقُوا اللَّهَ لِيُفْسِدُوا فِيهِ آلَهُمْ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَالَهُمْ جَهَنَّمَ مِمَّا رَزَقُوا اللَّهَ لِيُفْسِدُوا فِيهِ آلَهُمْ﴾ 688.

مع أنّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم إلا أنّه لم يخلقه على الكمال، فهو يُخطئ ويصيب ولأنّه كذلك فكان فضله عليه

688 آل عمران 133 . 136.

بالاستغفار ودا، ولأن فعل الفاحشة من الأفعال النواقص، فمن يرتكبها أو يظلم نفسه ويذكر الله فالله يغفر له فعلته لكل ذنب دون الشرك به، ولذا فالخليفة يذكر ربه دون إصرار على فاحشة فيغفر له ذنبه، ولذلك لا يغفر الذنوب إلا الودود عز وجل. وقال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} {689}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ بَيْعَاتٍ تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ يَعْرِزْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ} {690}.

2 . ودود برحمته: قال تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُرْحَمَكُم أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبِكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْدُوراً وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً} {691}.

الرحمة مكوّن قيمي من أفعال الخير، وتستمد من الرحمن، وهي لا تمنح إلا من أبواب الود، ولذا فللرحمة أبواب مفتحة لمن يود أن

689 الزمر 23.

690 الصف 10 . 13.

691 الإسراء 54 . 58.

يدخل منها لمودة الرحمن خوفا من عذابه، والخليفة بطبعة الإيمان هو دائما في حالة انتظار للفوز برحمة الودود، مما يجعله فاعلا للخير ومحرضا على فعله. وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ وَمَنْ رَحِمْتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} {692، وقال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} {693.

3 . ودود بعفوه: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا} {694، الله تعالى خلق الإنسان ويعلم بحاله وما فيه من غرائز فطرية، وما له من حقوق في المعاشرة الزوجية، ولأن لكل طرفه فقد يتعرض الخليفة لظروف تحول بينه وبين التطهر فيسر له بوسع عفو أن يتم إذا تعرض لمجيء الغائط أو لا مس النساء، ولذا فمن وده التيسير والعفو مما يجب أن يقوم به الخليفة لو لم يتم التعرض لمواقف وتحول الحوائل بين تأدية الفريضة في وقتها. قال تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضَعْفِينَ مِنَ

692 القصص، 71 . 73.

693 الجاثية 30.

694 النساء 43.

الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا
فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا {695}.

والخليفة هو من يستمدّ صفة الود من الودود المطلق ليكون الود
المعاملة بين الناس، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ
الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ
عَفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ
تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ
فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } 696، وقال تعالى:
{ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ وَلَمَنْ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ } 697.

4 . ودود بحفظه: قال تعالى: { إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ
مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَعْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا
تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ } 698.

الله جلّ جلاله ودود وهو بالود حفيظ، ولذا فالحفظ نتاج عناية
ربّانية، ولأن الودود جعل في الأرض خليفة، والخليفة هو من يستمد
صفاته من صفات الله تعالى، ولكي يختص بصفة الحفظ، فليتقي الله
ربه في كل قول وفعل، وفي كل سر وعلانية، وليكن حفيظا للعهد إذا
أبرم عهدا، وحفيظا على الأرض بالفلاح فيها، وحفيظا على أداء
العمل إذا ما كُلف به في مرضاة الله حتى يكسب وده، ويجب عليه

695 النساء 98، 99.

696 البقرة 178، 179.

697 الشورى 40، 41.

698 هود 56، 57.

رعاية الكبير وحفظه ورعاية الصغير وحفظه، ورعاية المسكين واليتيم
والسائل والمحتاج بود ورحمة، وأن يكون وحفيظاً على حمل الأمانة،
وطاعة الوالدين، وحفيظاً على كل ما يحافظ على بقاء النوع
الإنساني، وحفيظاً بكل ود على أداء الصلّاة والزكاة وصوم رمضان
والجهاد في سبيل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل وتجنب ما أمر الله
بتجنبه والانتهاز عما نهى عنه وحفيظ على شكره وطاعته، فله الحمد
على وده وحفظه. قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ
فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ
مَنْ يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
حَفِيظٌ} 699.

والخليفة بالإضافة قال: {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي
حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ
نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا أَجْرَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ} 700.

5 . ودود بحسن خلقه: قال تعالى: {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ
طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ
رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} 701.

لقد خلق الخالق كلَّ شيء بحسنه، وفضّل الإنسان على ما خلق
بحسنٍ من ماء مهين، والمهين هو المتماسك باللين التام، ومع أنّنا
نحس بلين الماء كلما حاولنا الإمساك به بين اليدين، إلا أنّه إذا ما

⁶⁹⁹ سبأ 20، 21.

⁷⁰⁰ يوسف 55 . 57.

⁷⁰¹ السجدة، 6 . 9.

انحدر في الشلالات كان قوّة بها تتولد الكهرباء وإذا ما داهمتنا كانت القوّة التي لا نستطيع مقاومتها، ولذا فمن هذا الماء المبارك المهين نحن كنا ويكون الخلفاء من بعدنا والوارثون.

وعليه فمن لين الماء المهين كان الود فينا، ومن قوته إذا ما انحدر من أعالي الشلالات نثور ونغضب لكرامة ولدين الله إذا ما تعرض لاعتداء الظالمين، ومن قوته كان العقل قوّة ينير الدرب ويصنع المستقبل وينقل الإيمان حتى يحقق العزة.

وقال تعالى: {مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ كَلَّا لَمَّا يُفْضِ مَا أَمَرَهُ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَرَيْثُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ} 702.

وقال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ} 703.

6 . ودود بكرمه: قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} 704. وقال تعالى: {إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَحَشِيَ الرَّحْمَنِ الْعَلِيِّ فَبَشَّرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ

702 عبس 18 . 32.

703 التين 4 . 8.

704 الأنفال 2 . 4.

كريم}705، وقال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}706.

الكريم هو المعطي بدون منة، والمالك الذي لم يكن في حاجة لِمَا يملك، سبحانه يملك الملك من أجل ما يملك جلّ جلاله. ولأن الكريم معطٍ بدون منة، فهو ودود بما يعطي ويرزق، والخليفة هو الذي يملك من الملك المطلق، ويرزق من هم في حاجة بالعتاء والعمل والتصدق والتركي دون أن ينتظر مقابل ذلك إلا مرضاة الرزاق عزّ وجلّ، وهو الذي يعلم أنه يعطي ممّا أعطاه الودود المطلق فلا يمن.

7. ودود برزقه: قال تعالى: {وَدَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}707، مالك الرزق هو مالك أمره، ومالك الرزق لم يكن في حاجة لرزق، ولهذا فهو الخالق لمن هم في حاجة لرزقه، وجعل الخليفة ليرزق من رزقه من هم في حاجة، والخليفة هو من يعلم أن ما يعطي من رزق هو في أساسه عطاء من معطٍ لا يمن ويعلم أن الرزاق رزقه لا ينضب سبحانه لا إله إلا هو. قال تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}708.

705 ياسين 11.

706 الحديد 11.

707 الذاريات 55 .58.

708 النور 37، 38.

8 . ودود بإنزاله الماء الطهور المخرج للثمرات: قال تعالى: { وَهُوَ
الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا
لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا } 709،
وقال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ
شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرَجُ مِنْهُ حَبًّا مَاتِرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا
قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ
انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } 710
وقال تعالى: { قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ اللَّهِ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ
الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ
لَكُمْ الْأَنْهَارَ } 711.

سبحانه وتعالى خلقنا ممّا خلقنا من ماء مهين، وخلق لنا الماء
نعمة بدونه لا تكتب لنا الحياة، وبدونه لا تنبت الأرض العشب،
وبدونه لم تنتقل عبر البحار والمحيطات، وبه ولدنا الطاقة التي تنير
المنازل وتحرك وسائلنا التي صنعناها بالقوة المستمدة من القوي الودود،
ولهذا تسخّرت لنا الأنهار لتتنقل لنا ماء عذبا طهورا، والمحيطات تتبخر
حتى يكون السحاب ركاما فيسقط المطر بوده رحمة ماء طهورا.

⁷⁰⁹ الفرقان 48 . 49.

⁷¹⁰ الأنعام 99.

⁷¹¹ إبراهيم 31، 32.

9 . ودود باستخلافه: قال تعالى: {أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهًا مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} 712.

لقد ميز الله الإنسان باستخلافه في الأرض دون غيره مما خلق، وبهذا الاستخلاف نال المستخلف وده بحمل الأمانة التي كان بامرها ظلوما جهولا، وليهديه سبيل الحق بعث من المستخلفين أنبياء ورسلا صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، وجعلهم الوارثين وكان فضل الله عليهم كبيرا. وعليه فمن المستغرب أن البعض لا يذكر خالقه ليستغفر ذنبه، ولا يوحدده وهو الواحد الأحد.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} 713.

ما يعلمه الله لا يعلمه الملائكة فلو كان الملائكة يعلمون ما كان لهم الاحتجاج على اختيار الله للخليفة، ولأنهم يسلمون بما يأمر الله عز وجل فكان الملائكة أول الساجدين طاعة لأمر الله بالمطلق. وكان الاختلاف مع إبليس المستكبر الذي عصى الأمر، وبرغم ذلك ظل

712 النمل 62.

713 البقرة 30 . 34.

الإنسان خليفة والحمد لله أننا من المستخلفين فيها، وندعو الله أن يجعلنا من المصلحين لا المفسدين ويجعلنا من الصالحين ومن الوارثين. قال تعالى: {وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَاتَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ} 714.

10 . ودود بعزته: قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} 715.

كم يشعر الإنسان بالاعتزاز عندما يقدم على أداء واجب ويحمد ويشكر عليه، وكم تملأه العزة بإيمانه عندما ينظر إلى المشركين وهم لم يبلغوا بعد ما يمكنهم من امتلاك العزة التي بلغ أعاليتها بتوحيده واحدا أحدا لا شريك له، ومع ذلك يأسف لهم وهو يأمل بلوغهم اليقين وبهذا سيكون داعية لذلك حتى تعم رحمته الأرض ومن عليها من العباد، ولأنه الودود فهو لا يقفل باب التوبة لمن يشاء أن يتوب إليه. قال تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 716.

714 الأعراف 74.

715 فاطر 10، 11.

716 المنافقون 8.

11 . ودود بإشفائه: قال تعالى: {وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} 717، وقال تعالى: {وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبَ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 718.

الإنسان مخلوق لا يملك لنفسه ملكا إلا ما رحم، فعندما يمرض يلتجئ إلى الطبيب لعلاجه وعندما يعطش يسعى للحصول على الماء ليرتوي من ظمئه، وعندما يجوع يسعى للعمل الذي به يتحصل على ما يشبع جوعه، وإذا لم يتمكن من بلوغ ذلك فهو يعلم أنه سيتعرض للمرض وحتى الموت إن لم يرحمه الله بوسع وده فيمكنه من بلوغ ما عجز عن بلوغه قبل الاتكال عليه وقبل أن يثق إيمانا تاما بأنه الشافي من كل مرض وداء ويعلم يقينا إن الطبيب لا يستطيع الشفاء إذا لم يشفه الله اللهم أشفنا من كل مرض وداء واجعلنا من الطائعين بؤدك ورحمتك. قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَرْيَدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} 719. شفاء القرآن لمن آمن به كتابا محفوظا وإعجازا خالدا ودينا ميسرا بود من الودود جلّ جلاله، فهو شفاء للنفس من كل غم وهم، بطمأنة وتقوى، والقرآن رحمة بآياته وحججه والحكم التي تجيب على كل سؤال، والعلم الذي يمتلئ به الكتاب المحفوظ، فيه حل لمشكل الإنسان في الهداية والعمل الصالح، وفي العدل والحكم والتعاون والتآلف والمحبة والمودة والتآخي.

717 الشعراء 80.

718 التوبة 14، 15.

719 الإسراء، 80 . 82.

12 . ودود بإيراثه: قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 720، من بعد الاستخلاف في الأرض يكون الاستخلاف في الجنة بالعمل الصالح في الحياة الدنيا، ولذا فالله يود المستخلفين بالميراث في الجنة، قال تعالى: {قُلْ أَذَلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا} 721.

13 . ودود بتأليفه ذات البين: قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلِتُكِنَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} 722.

الودود هو الذي يستمد الود منه ويسود بين العابدين له محبة ووفاء وصدق وتعاون وتأزر، ولهذا ينهى الودود الخليفة عن التفرق والفتنة والاختلاف عليه وهو الواحد القهار، كيف ولماذا يختلفون

⁷²⁰ المؤمنون 11 . 1 .

⁷²¹ الفرقان 15، 16 .

⁷²² آل عمران 103 . 105 .

ويتفرقون بعد ما جاءتهم البيئات التي لم يكن من بعدها ما هو غامض أو خفي؟ قال تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَاللَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {723}.

14 . ودود بحبه: قال تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} {724}.

الودود هو الذي يعطي ما يشاء مما يملك لمن يشاء دون أن ينقص من ملكه شيء، وهو الودود بعطائه ورضاه وهو الذي استخلف من استمد الود منه محبة بين الناس ليكون لذوي القربى واليتامى والمساكين والفقراء والسائلين حق معلوم يدركه الخليفة حقا بينما لا شك فيه فيقدم على إظهاره وإعطائه لمن هم في حاجة إليه وبهذا يكون الخليفة من الوارثين من بعد استخلاف في الأرض وطاعة. {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} {725}.

723 الأنفال 62، 63.

724 الإنسان 8 . 11.

725 البقرة 177.

15 . ودود بلطفه: قال تعالى: { يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ } {726}، من له نصيب أينما يكون يأتي به الله مودة خالصة لمن هو في حاجة إليه، قال تعالى: { اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } {727}.

لطف الله بالعباد أنه جعل الهداية فيهم والرسل منهم وإليهم فقد أسبق عليهم خلق الرزق قبل خلقهم ليجدوا ما يشربون ويأكلون ويشبع حاجاتهم، فلو لم يكن الرزق ما كانت الحياة وفقا لمعطيات الخلق التي نعرفها ونعلمها كما نعلم أنه بالملق إنه على كل شيء قدير، ولذا فلفظ الودود بالعباد أنه ودهم بالحياة والرزق وودهم بالعقل لتكون الهداية إليهم ثم تصبح منهم جيلا بعد جيل حتى تعم بلطفه الأرض المستخلفين فيها.

16 . ودود بعدله: قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } {728}، وقال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا } {729}.

726 لقمان 16.

727 الشورى 19، 20.

728 النحل 90.

729 النساء 58.

كلّ المستخلفين فيها يكرهون الظلم وذلك لأنه مقت عظيم،
ولولا فضل الله ورحمته لكانت العبودية بين الناس إلى أبد الابدين،
ولهذا حرم الله العبودية عدلا بين الناس ورحمة، والعدل في أساسه
إحقاق حق وإزهاق باطل، ولأنّ الله هو الحق جعل العدل بين العباد
طاعة، ولأنه ودود لم ينص على حكم العباد، بل نصّ على الحكم
بينهم بالعدل وهذا دليل على تعميم المساواة، فلا فرق بين
المستخلفين فيها إلا بالعمل الصالح.

والخليفة هو من يتبع عدله فيما أمر ونهى قال تعالى: { يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ
كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ
وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمْلَئَ هُوَ فَلْيُمْلِئْ
وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ
فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ
إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا
تُرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ
تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ } 730

17 . ودود بنهيه: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ
وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَذَكَّرُونَ} 731، وقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} 732.

الله الذي أمر بالطاعة هو الذي نهي عن طاعة، ولذا فالفرق كبير بين الطاعة التي أمر بها الله وبين الطاعة التي نهي عنها، فطاعة الحق بأمره والانتهاة عن الظلم من أمره، ولهذا لا طاعة لمن يدع من دونه، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا آتِبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} 733.

18 . ودود بإحقاقه الحق: قال تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} 734.

إحقاق الحق بين المستخلفين فيها عبادة وطاعة، ولذلك نهي الله عن تغليف الحق بالباطل ونهي عن كتم الشهادة وقولها حق، ولذا فالصلاة حق لا ينبغي الإغفال عنها وإيتاء الزكاة حق فلا ينبغي تأجيله أو تأخيره أو الامتناع عن إيتائه، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَفْضُلُ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} 735، وقال تعالى: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ

731 النحل 90.

732 الحشر، 7.

733 الأنعام 56.

734 البقرة 42 . 46.

735 الأنعام 57.

وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ {736، وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ} {737.

19 . ودود بزهقه الباطل: قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} {738.

الباطل هو ما ليس بحق، وما ليس بحق في منهج الخليفة لا يحق، ولذا فمن اتبع الهدى ليس له بد إلا أن يحق الحق ولو كره المجرمون والظالمون والمشركون، ولأنه الودود عز وجل كان وده للذين يقذفون بالحق على الباطل حتى يدمغه ويذهب، وعليه فمن يزهق باطلا ينال رضا الله ووده. قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} {739، وقال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} {740.

20 . ودود بهدية: قال تعالى: {فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} {741.

الهداية إرشاد لصواب وحق، فالله الهادي لمن يشاء متى ما شاء وكيف شاء، ومن يستمد هدايته من الله يستمد منه الاستخلاف في الأرض، ومن ينل هداية الله ورضاه يكن من بعد الاستخلاف من

736 الأنفال 7، 8.

737 الحج 62.

738 الأنبياء 18.

739 الشورى 24.

740 الإسراء 81.

741 البقرة 213.

الوارثين في الجنة، ولذا لا يمكن أن يتم الدخول إليها إلا بهداية من الهادي المطلق جلّ جلاله، ومن دخلها كان من الفائزين الآمنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قال تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} 742، وقال تعالى: {وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} 743.

21. ودود باصطفائه للرسل والأنبياء: قال تعالى: {وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ فَأَهْلَكْنَا أَسَدًّا مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ} 744، وقال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 745.

في بداية الخلق كانت الأخلاق فطرية غرائزية وذلك لأن الخالق خلق قلة لا كثرة ثم بعد أن ساد التكاثر بإذنه وانتشرت البشرية في المعمورة ساد من بين ما ساد الفساد في الأرض، ولأن الله خلق

742 البقرة 38، 39.

743 البقرة 120، 121.

744 الزخرف 6. 8.

745 آل عمران 31. 34.

الإنسان ويوده أن يكون خليفة له في الأرض وفي أحسن تقويم،
مصلحا فيها لا مفسدا وسافك دماء، لم يكن راضيا عما يعمله
المفسدون فاصطفى الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين ومحرضين على
أفعال الخير، فأنزل عليهم الصحف والكتب والرسالات السماوية
من عنده عز وجل، فكانت النصيحة والحكمة والحجة بين أيدي
الناس، فنهى عن المنكرات والمفاسد وحرّم ما يضر ويهلك ولا يفيد
ولا ينفع الناس ويفرق بينهم، وترك الهداية بالحسنى وبدون إكراه حيث
لا إكراه في الدين خاصة بعد الرسالة المحمدية الخاتمة.

ولأنّه ودود بعث الرسل مبشرين ومنذرين يعلمون الناس طريق
الخير والفلاح والهداية، فيهدونهم إلى ما يجب أن يقال وأن يعمل
أمامهم حتى يروا كيف تقام الأعمال وتؤسس الحجج، وكيف تؤخذ
الحقوق وتؤدى الواجبات وكيف تُحمّل المسؤوليات، وكيف تمارس
العبادات، فكانت عبادة الواحد الأحد على أيديهم وتجنب المفاسد
على أيديهم، واتباع الهداية وأداء الشعائر على أيديهم، فكان الخليفة
المصطفى عليه الصلوة والسلام منذرا للكافة {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا
مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
الْعَزِيزُ الْعَقَّارُ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ
بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنَّ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ
مُبِينٌ} 746.

قال تعالى: {اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يَا
أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ

فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ
 وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولَ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ
 فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى
 وَنِعْمَ النَّصِيرُ} 747، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ
 بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ
 لَهُمُ الرَّسُولَ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ
 فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
 تَسْلِيمًا} 748

22 . ودود بإنزاله الكتاب: قال تعالى: {الْم ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا
 رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ
 وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُفْلِحُونَ} 749.

الهداية قول وفعل لطاعة ودود مطلق، وحتى لا يكون أمر الهداية
 اجتهادا بعث الله الرُّسُلَ بالكتب فكان لكل قوم هادٍ إلى أن جاءت
 الهداية الخاتمة، والحكمة من الرسالة الخاتمة كتاب واحد من ربِّ واحد
 للناس كافة هو: لأجل إبعاد كل ما من شأنه أن يؤدِّي إلى نزاع وفرقة
 وفتنة وإفساد في الأرض، أو خصام واختلاف باسم الله أو باسم
 الرُّسُلِ السابقين لمحمد عليهم جميعا الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، والله رؤوف ودود
 بالعباد، ومع ذلك فالكثيرون لم يهتدوا بعد إلى القول الحقِّ الخاتم.
 وهذه من أعباء حمل الأمانة التي حملها الإنسان وهو ظلوما جهولا،

747 الحج 75 . 78.

748 النساء 64، 65.

749 البقرة 1 . 5.

لذا فالخليفة هو من أدرك هذا العبء الذي قبل بحمله من اصطفاهم الله وميزهم بحمله، ولأنه يعلم فهو يبشر بكلام الله ويرشد به ويرشد إليه، ويُذَكِّرُ به، وينهى عما نهى الله عنه، ويحرض على ما يحرض عليه. وعليه فالحمد لله الذي بعث في الأميين رسولا قال تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 750، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرِّسْلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدْسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ} 751، وقال تعالى: {وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 752.

23 . ودود برأفته: قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ

ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} 753.

750 الجمعة 2 . 6.

751 البقرة 87، 88.

752 البقرة 231.

753 البقرة 207.

في كلمة الرأفة ظهور لإحساس الخالق بالمخلوق، وحرصه وعنايته به، لذا جعل الرأفة فينا في أحاسيسنا ومشاعرنا حتى كنا على عاطفة بأكبادنا وآبائنا وأبنائنا وأحفادنا وبأنفسنا ومعتقداتنا وديننا الذي ارتضاه لنا وارتضينا، وبأوطاننا وبني عرقنا وإخوتنا في الإيمان، هذه رأفة في قلوبنا والخليفة هو من يغار برأفته على ما ذكر إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل، واحتراما وتقديرا لمن له الحق علينا ولمن لنا الحق عليه، فمن رأفة الله بنا إنه لا يود أن تشيع الفاحشة في الدين وبين الذين خلقهم الله بوجه في أحسن تقويم ليعمروا الأرض ولا يفسدوا فيها. قال تعالى: {وَيَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُجِبُونَ أَنْ تَشِيَعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} 754، وقال تعالى: {وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} 755.

24 . ودود بحلمه: قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} 756.

الحلم لين واللين لا يكون إلا بودٍ، ولذا فالودود حلیم في مخاطبة خلقه ورؤوف بهم لا يستعجل على حسابهم وعقابهم يمهل ولا يهمل

754 النور 18 . 20.

755 آل عمران، 30.

756 البقرة 261 . 263.

يدرك الحق ويستوجبه فعلا، ولكن يعلم الضعف الذي يلم بالإنسان والغفلة التي يمر بها في كثير من الأحيان، فترك له الأمر والفرصة حتى يتاح له التبين والإدراك لتكون الفرصة له في التصحيح والتصويب، ولأنه رؤوف يغفر الذنوب السابقة للاستغفار بالنسبة للذين لم يعلموا من قبل علم اليقين، أي الذين لم يبشروا بما يجب أن ينهون عنه، أما أولئك الذين علموا وعصوا ثم استغفروا فإن الله غفور رحيم لكل شيء إلا الشرك فإنه أمر عظيم. وعليه فالحلم قانون المودة في التعامل بين الناس بالاحترام والتقدير والتفهم وإعطاء الفرصة لأجل التصحيح والتصويب والعودة إلى الدين والعرف الذي اعتاده الناس في إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإعمار الأرض والفلاح فيها. قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلَ الْقُرْآنُ تُبَدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَجِيرَةٍ وَلَا سَائِغَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } 757.

25. ودود بعلمه: قال تعالى: { اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } 758، وقال تعالى: { وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } 759. وقال تعالى: { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ آأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ

757 المائدة 101 . 103.

758 البقرة 255.

759 البقرة 235.

اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ إِهْمِيْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ
مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ
مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ {760.

العلم نور به يتم إدراك الحقّ واتباعه، وبه تتسع دائرة المعارف
وتضيق وتقفل دائرة الجهل، به يدرك اليقين، وبه تقفل أبواب الكفر
والشرك، به يعم العدل بين المستخلفين في الأرض، وبه يتم التمكّن
من بلوغ الجنّة، إنه ود من ودود خبير، فالعلم حقّ يجب أن يعم النّاس
ويكون بينهم معاملة تهذب السلوك وتصلق الألسن وتصاغ به
المفردات والجمل والنصوص التي تحكّم أعراف النّاس وقوانينهم في
الحياة، وبه يتم إدراك الحقيقة التي يسعى الباحثون إلى معرفتها. فالعلم
بالنسبة للخليفة مكتسب من عليم خبير، والعلم بالنسبة للخليفة هو
دائما في دائرة الممكن المتوقّع وغير المتوقّع، أما في دائرة الخالق فإن
الودود جلّ جلاله علام الغيوب. إذن العلم المخرج من الظلمات إلى
النور ودّ به تتحسنّ أحوال المستخلفين فيها، ولو لم يكن الودود عليما
خبيرا ما كان لنا من علمه شيء وما كان لنا الخروج من الظلمات إلى
النور ولذا فالعلم منه ود متكامل لمن علمه الله الأسماء واستخلفه فيها
بوّدّه.

26 . ودود بحكمته: قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} {761،

الحكمة مضمون محمول في الكلمة والجملة والنصّ، وهي الصياغة
التي تحمل في مضمونها المثل العليا للناس، وتحمل في مضمونها قصص
بها، ولذلك فمن أوتي الحكمة أوتي خيرا كثيرا، الحكمة ذات دلالة

760 المائدة 116.

761 البقرة 269.

لأخذ العبر والافتداء بما يجب وترك ما يجب تركه، إنها الاختصار المفيد النافع للقول، وبها يتم الاتعاظ، وعليه فمن الحكمة أن يشكر الله على نعمه ووده وفضائله الحسان، ومن الحكمة أن لا يظلم أحد، ومن الحكمة أن يفوز الأبناء برضا الوالدين وطاعتها في غير معصية الله. قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} 762

27 . ودود بجنته: قال تعالى: {وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَيْدِيهَا تَدْلِيلًا وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِأَنْبِيَاءٍ مِنْ فَضَّةٍ وَأَنْكُوبٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ قَوَارِيرَ مِنْ فَضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثورًا وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا

وَمُلْكًا كَبِيرًا عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَخُلُوعًا لِأَسَاوِرَ مِنْ
فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ
مَشْكُورًا {763،

دائما جزاء الإحسان إحسان، فمن زرع خيرا حصد جزاء وفيرا،
ومن زرع شرا حصد عقابا شديدا، ومن استخلف في الأرض بعمله
الصالح فاز بالجنة ومن لم يكن من المستخلفين الطائعين سيكون في
جهنم اللهم قنا عذاب النار واجعلنا من الوارثين في الجنة والفائزين
فيها لا الخاسرين إنك سميع مجيب تجيب دعوة الداعي إذا دعاك،
دعوتك بما دعاك به يونس عليه الصلاة والسلام بلا إله إلا أنت
سبحانك إني كنت من الظالمين، دعوتك بعزتك لمحمد ونصرك له عليه
الصلاة والسلام. قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ
أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ
دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا {764.

28 . ودود بيعته: قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ
وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ {765، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ
يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنْتُوا كَمَا كُتِبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَلَّا نُنزِّلُ آيَاتٍ
بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا
عَمَلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ {766.

763 الإنسان 12 . 22.

764 النساء 124 ، 125.

765 الأنعام 36.

766 المجادلة 5 ، 6.

حياة الخلائق لا تدوم ووده دائم، أي ما يسجل يحفظ في كتاب محفوظ ويبقى شاهدا حيا لا يموت إلى يوم يبعثون، فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد، تفتى الخلائق ويبقى الملك لله الواحد القهار، ولذا فالوجود يمر بالمراحل الآتية:

أولا: مرحلة خلق الشيء من لا شيء: سبحانه على كل شيء قدير. قال تعالى: {بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 767، وقال تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أُنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 768، وقال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 769.

ثانيا: مرحلة خلق الشيء من الشيء: فالله خلق التراب وخلق منه بني الإنسان في أحسن تقويم. قال تعالى: {أَلَيْسَ قَدْ جِئْتَكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} 770، وقال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 771.

ثالثا: مرحلة التكاثر: قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ

767 البقرة 117.

768 آل عمران 47.

769 النحل 40.

770 آل عمران 49.

771 آل عمران 59.

نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} 772، وقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} 773، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ} 774.

رابعاً: مرحلة الانتهاء: وهي المرحلة الساكنة التي ينتقل إليها المخلوق من الحياة إلى الموت فيظل من حيث الوجود ساكناً لا عمل يزيد ولا عمل ينقص، ولا حركة ولا تكاثر، مرحلة الموت مؤقتة مثل الحياة مؤقتة، ولأنهما يقعان في الزمان المؤقت فإن النهاية لهما دائمة بعد موت الموت فيبعثون فسبحان الذي يحيي الموتى، قال تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 775، وقال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ} 776. وعليه فالموت بقاء في الوجود الساكن ولو لم يكن للموتى وجود ساكن ما بعثهم الله يوم بعثهم الذي لا يعلمه إلا هو جلّ جلاله، البعث مرحلة ولادة جديدة بأعمال سابقة، في حياة جديدة لا علاقة لها بالحياة الأولى إلا الأعمال المحفوظة للمساءلة والمجازاة التوابية أو العقابية.

772 ياسين 36 . 40.

773 النحل 72.

774 الأنعام 165.

775 المجادلة 6.

776 الزمر 30.

المرحلة الخامسة: مرحلة البعث: إنها مرحلة الحياة الدائمة، الباقية
سرمديا لمن رضي الله عنهم ورضوا عنه قولاً صادقاً وعملاً صالحاً
وتصديقاً تاماً وطاعة لا ضلال في ذلك الزمان الذي طويت سجلاته
بالموت الذي جعل الموتى في مرحلة انتظار للبعث، والبعث هو الولادة
الجديدة في الحياة الحيوان. قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ
يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا
وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} 777، وقال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ
وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} 778، وقال تعالى:
{كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ} 779.

وقال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ
مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْوَالتِهِمْ
وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ
سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً
فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ
أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ
لَمَيْتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} 780.

777 الحج، 6، 7.

778 الشورى 9.

779 البقرة 28.

780 المؤمنون 1. 16.

الودود اسم محببٌ إلى القلوب، مرتبطٌ بالحنان والرحمة والعطف، اسمٌ يوقع في نفس المؤمن راحةً وأملاً وطمأنينة، والخليفة يرى في حبّ الله تعالى له خيراً جزاءً لإيمانه بالخالق عزّ وجلّ، واسم الودود يفتح أمام المذنب فسحات أملٍ واسعة باتساع توبته، فلا ييأس من رحمة وحبّ الله تعالى، وهذا الود أيضاً هو بمثابة دلائل على جهل الكافر وجحده بمن يتودد إليه بالعطاء والمنح.

والودود اسم من أسماء الله الحسنى، وهو في اللغة من صيغ المبالغة، والود مصدر المودة، فعله ودّ الشيء ودّوا وودّوا وودّوا، والود يرتبط بالأحاسيس والمشاعر وما تأمله القلوب في طاعة الله تعالى كما كان عليه هارون عليه السّلام من ودّ.

فالودود هو مصدر الودّ، أي أنّه المصدر الذي يستمدّ الودّ منه، ولذا فالودود لا حيّز لحسد يشغله، وبالغة المنطق الودّ صلة أخلاقية بين النّاس، وبينهم وبين خالقهم (مصدر الودّ المطلق).

ولارتباط هذا الاسم بالرحمة واللطف فقد لزم ارتباطه بالتأكيد بالحبّ، هذا الحبّ الذي يقربك من الخالق عزّ وجلّ الذي يحبّك ويتودد إليك هذا وهو الذي خلقك وأنت ملكه وهو القوي وأنت الذي تستمد قوتك منه، إنه الودود الذي وسع وده وحبّه كل تائب وكل عابد وكل مخلوق في هذا الكون.

والودّ بين الخلائق بمعناه هو الظهور الواقعي لمشاعر المحبّة الكامنة، أي أنّه تجسيد لها، وبهذا يكون هناك فرق بين الحبّ والود رغم ارتباطهما مع بعض، فالحبّ ما استقر في القلب، لكن الود ما ظهر في الفعل، وهذا يتضح عندما يحبّ الإنسان شخصا فإن مشاعر الميل نحو هذا الشخص هي الحبّ الذي يشد الآخر شداً، ويشد الاثنين

في واحد، والود يتبع النية، ولذا فالأعمال بالنيات ولكل أمر ما نوى فهو يعلم ما تكنه الصدور {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} 781، وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 782. فالود هو التعبير الظاهر عن مشاعر الحبّ تجاه من نحبّهم فنحن بذلك نكون ودودين نتودد إليهم بما نظهره من أفعال كالابتسام لهم والبشاشة في وجههم أو كتقديم الهدايا لهم ومجاملاتهم في مناسباتهم السارة والحزينة، ولو لم تظهر هذه التعابير لهم فإننا نكون نحبّهم بما نحمله لهم من مشاعر الحبّ في قلوبنا ولكننا لا نتودد لهم فنستخلص من هذين المعنيين أن كل ودود محبّ وليس كل محبّ ودود.

وقد ورد في القرآن الكريم اسم الودود في موضعين:

الأول: عندما أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن وُدِّه بنفسه وذلك في قوله تبارك وتعالى: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ} 783، فالله هو الخالق الأول والآخر كل شيء بيده فهو يبدئ ويعيد، وهو في ذاته هو الغفور الودود ذو العرش المجيد، أي أنّ الله هو الودود الذي بوده يغفر ويبدئ ويعيد وهو على كل شيء قدير سبحانه.

الثاني: ما جاء على لسان نبي الله شعيب - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - واصفا ربه بقوله: {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ

781 هود 5.

782 الحج 46.

783 البروج، 13 . 16.

بِيعِيدِ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا آلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ تُمُودٌ {784}، محبة شعيب عليه الصلاة والسلام لربه تعالى جعلته يظهر وده الذي استمده من الودود المطلق ليعلنه أمام قومه وهو راغب لهم ود من الله تعالى إذا ما استغفروه وذلك لأن في الاستغفار إجلال له جلّ جلاله، ولأنّه سميع مجيب فهو بوده يعفو يغفر لهم، ولو لم يكن عزّ وجلّ ودودا ما كان غفورا وغفارا.

والود مصدر المودّة، والمودة مصدرها الودود، وهذا الود يكون في جميع مداخل الخير، وقال ابن الأثير: الودود في أسماء الله تعالى فَعُولٌ بمعنى مَفْعُولٍ من الودّ المحبّة يقال وددت الرجل إذا أحببته فالله تعالى مَوْدُودٌ أي محبوب في قلوب أوليائه أو هو فَعُولٌ بمعنى فاعل أي يُحِبُّ عباده الصالحين بمعنى يَرْضَى عنهم"785.

فالودود المطلق هو الذي لا يضاهاه وده ود، لأن حبه أعلى درجات الحبّ وأصفاه وأنقاه فلا يخالطه حقّد أو غلّ أو دسّ على من أحبّ، ولا تحذوه مصلحة أو منفعة فيمن يحبّ، إن الله سبحانه وتعالى يحبّ بصفاء ونقاء فهو ود خالص لا يتغير، وبهذا يكون وده

784 هود، 89 . 95.

785 لسان العرب، ج 3، ص 453.

أرقى درجات الحبِّ وأقواها وأسمى معانيه، وهذا الحبُّ لا يكون دافعه الخوف والرهبة ممن أحبِّ، ولا يمكن أن تتجلى هذه المعاني إلا في ودودٍ واحدٍ فقط هو الله عزَّ وجلَّ، الودود المطلق الذي يتقرب إلى عباده الصالحين وأوليائه ويتودد إليهم، وقربه يكون دائما وأبدا، قال تعالى في كتابه العزيز: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} 786، أي إن الله تعالى قريب من عباده يستمع إليهم ويستجيب لدعائهم، فقد أكد على قربه تعالى من أوليائه وعباده الصالحين بالربط بينه وبين استجابة دعواتهم، وأيضا في قوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُوٌّ فَضَّلِ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُوْفِكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفِكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوْرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُحِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ لِربِّ الْعَالَمِينَ} 787. هذه الآيات الكريمة علامة دالة على كمال وده لعباده الصالحين والمصلحين في الأرض ولذا فالدعاء لا يُستجاب إلا من العبد القريب من الودود الكريم، وكذلك قوله تعالى: {وَإِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَعْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ

786 البقرة، 186.

787 غافر، 60 .66.

رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ {788، وقوله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَخَنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ
حَبْلِ الْوَرِيدِ {789.

والله سبحانه وتعالى ودودٌ في حبه لرسله وأنبيائه وعباده
المصلحين الصالحين، يحبهم محبة الخالق العظيم لخليفته في أرضه الذي
أطاع أمره وصدقه، فيظهر الله تعالى لهم حبه بقبول أعمالهم وإجابة
دعواتهم وطمانينة نفوسهم، كما أنه يمنحهم محبة وود خلقه فيهم،
وحسن الاستماع إلى نجاهم كما في قوله تعالى: {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ
نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا {790، وقال
تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ
رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ {791، وكذلك يمنحه أعلى المراتب شرفا يوم
القيامة كما في قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْكَبِيرُ {792.

وإذا حاولنا سرد دلائل من القرآن الكريم على مدى الود الذي
ربط بين الخالق سبحانه وتعالى وبين رسله وأنبيائه لما حصرناها، بل
أننا سنلحظ أروع الصور لاحتضان المولى لهؤلاء الخلفاء المرسلين،
وأنبأ ملامح التودد والحب والعطاء وأولها كانت مع نبينا محمد -
صلى الله عليه وسلم - في قوله جلّ وعلا في كتابه الكريم: {وَاصْبِرْ

788 هود، 61.

789 ق، 16.

790 النساء 14.

791 إبراهيم، 39.

792 البروج، 14.

لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ} 793 بطبيعة الحال الصبر لحكم الله طاعة تامة ومودة صادقة تبادلها مودة الصدق بالرعاية والعناية والحفظ، وبالتالي سبح يا محمد بفضل ربك ولا تخاف. فقد تعرض الرسول عليه الصلاة والسلام للأذى الشديد وكان المولى عز وجل يطمئن قلبه ويهدئ نفسه بالتأكيد عليه بأن المولى يريعه ويحفظه من كل سوء، وأيضا عند خروج الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة ويشده الود إليها نزل كلام الله تعالى عليه واعداء إياه بالعودة إليها في قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنِ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} 794، المعنى إن الله الذي أنزل عليك دين الهداية وهو القرآن فهو كما أنزل عليك هذا القرآن وأنت لا تشك في إنزاله عليك كذلك تيقن وتأكد بأنك ستعود بإذنه إلى مكة فاتحا بالقوة والنصر حليفك وأنت محاط بالرعاية والعناية الربانية، وهنا أيضا نستحضر موقف سيدنا موسى - صلى الله عليه وسلم - عندما اجتمع السحرة فقد خاف في نفسه من هول هذا الموقف لولا تهدئة قلبه عليه السلام من الخالق عز وجل وقد صور لنا القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: {قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْتَ تُلْقِي وَإِنَّمَا أَنْتَ نَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حَبَّاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ يُجَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهُمْ تَسْعَىٰ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ

793 الطور، 48، 49.

794 القصص، 85، 88.

أَنْتَ الْأَعْلَى وَالْقِيَامُ فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ
 وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى {795، وكذلك ما حدث مع سيدنا
 إبراهيم عليه السلام عندما بعث الله تعالى له الملائكة فشك في أمرهم
 كما في قوله عز وجل: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا
 سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا
 تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ
 لُوطٍ {796، إن الله تعالى قد بدل خوف سيدنا إبراهيم سريعا إلى
 طمأنينة فلا يمكن أن يرضى الخالق عز وجل لخلفائه الصالحين
 بالخوف والشك، ولذا فيودهم بوده هيمنة وحفظا.

والود الصادق الذي ينشأ بين الخالق عز وجل وخليفته في الأرض
 لا بد أن يكون ودا متبادلا، فعندما يحب الله تعالى عبده الصالح فهو
 بالتالي سوف يجعل حبه في قلب عبده الخليفة هو المحرك لسمعه
 وبصره وجوارحه وروحه، ولعقله ووجدانه وحسه، فيقدم هذا الخليفة
 حبه للمولى عز وجل على سواه من متاع الحياة الدنيا من أموال وأبناء
 بل سيكون حبه لخالقه ورسوله الحبيب - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
 فوق حبه لنفسه أيضا وهذا ما أشار إليه الحديث الشريف الذي رواه
 أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
 "ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ
 إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي
 الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ" 797، كذلك في الحديث
 الشريف: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ "أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ

⁷⁹⁵ طه، 65، 69.

⁷⁹⁶ هود، 69، 70.

⁷⁹⁷ صحيح البخاري، ج 1، ص 26.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا
أَعَدَدْتَ لَهَا قَالَ حَبُّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قَالَ أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَّتَ "798.

وللمحبة صفتان:

. محبة بدأ بها الله تعالى لعبده زارع حبه عز وجل في قلب هذا
الخليفة الذي استحقّ بعلم الله تعالى محبة خالقه، وقد منح الخالق
سبحانه وتعالى هذا الحب للعبد ابتداءً منه دون طلب أو سؤال،
والمؤمن الصادق هو الذي يحافظ على هذا الود ويقويه.

. ومحبة جعلت هذا الخليفة شاكرًا لربه سبحانه وتعالى على نعمة
حبه ووده وجعله من خلفائه الأصفياء.

والود الذي يقربك من الله سبحانه وتعالى لا يأتي إلا بالتقرب إلى
الخالق الذي هو في الأصل قريب من خلقه، ويكون هذا التقرب بعدة
أمر منها:

. الإكثار من ذكر الودود، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا
اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ
لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } 799، وقد
جاء في الحديث الشريف أن حبَّ الله تعالى لا بد أن يكون ملازمًا
لذكره والمداومة على شكره وحمده، عن أنس بن مالك قال: سمعت
النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "علامة حبِّ الله حبَّ ذكر الله،
وعلامة بغض الله بغض ذكر الله" 800.

⁷⁹⁸ صحيح مسلم، ج 13، ص 91.

⁷⁹⁹ الأحزاب، 41. 43.

⁸⁰⁰ شعب الإيمان للبيهقي، ج 1، ص 480.

أيضا التوكل عليه في كل أمورنا، لأن من شأنه كسب حبّ الله تعالى به، فالمولى عزّ وجلّ قد أحبّ من عقد النية وتوكل عليه كما في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأُنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ إِنَّ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} 801، وليس هناك قدوة لنا مثل أنبيائنا الكرام ورسلنا وقد كانوا دائمي التوكل على الله سبحانه وتعالى كما جاء في القول الكريم: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْغَضْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ} 802.

وكذلك في جعل النية في كل عملٍ نقوم به هو رضا الله تعالى والإخلاص في القول والفعل، ومهما كان العمل طالما هو في خير لا بدّ أن نعقد النية فيه خالصة لله تعالى، وهذا ما جاء به الحديث الشريف: عَنْ عَائِشَةَ أَهَّأَ كَانَتْ تَدَانُ فَقِيلَ لَهَا مَا لَكَ وَلِلدَّيْنِ فَقَالَتْ: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي آدَاءِ دَيْنِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ عَوْنٌ فَأَنَا أَلْتَمِسُ ذَلِكَ الْعَوْنَ" 803

وكذلك السير على خطى الرسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كما جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ يَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ

⁸⁰¹ آل عمران، 159، 160.

⁸⁰² هود، 56، 57.

⁸⁰³ مسند أحمد، ج 50، ص 194.

مُحْضَرًا وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ {804}.

والخليفة الذي استحق هذه الأمانة التي استخلفه الخالق بحق هو الذي يظهر وده لله تعالى في أعماله وفي تعامله مع من حوله من قريب أو بعيد، فنجده واصلاً للرحم متوددا لهم، طائعا لوالديه حتى ينال رضاها في غير معصية الله، قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا} {805}، ونجده أيضا متواضعا مؤدا لمن يعملون معه حتى ولو كانوا أقل منه مرتبة، لا يبدأ الناس بالسوء ولا يكرر بهم ولا يسخر منهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} {806}، فالخليفة هو من لا يجعل المحرك والدافع لإظهار وده مصلحته الشخصية، بل يملأ قلبه بالتسامح والغفران اللذين من شأنهما رد المذنب وردع العصاة، ولنا في رسول الله - صلى الله عليه

804 آل عمران، 30 .34.

805 النساء، 36.

806 الحجرات 10، 11.

وسلم – أسوة حسنة، فعندما أصابه قومه في غزوة أحد لم يدع عليهم بل دعا لهم بالمغفرة، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَسَرُوا رُبَاعِيَّتَهُ، وَشَجُّوا وَجْهَهُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ". ما أجمل ود الرسول الكريم على بني قومه وما أجمل ود الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، إنه أروع مثل لود الخليفة المستمد من حب الودود المطلق.

فالود هو السبيل لتجميع قلوب الناس وعواطفهم ووحدهم، والود الحقيقي يجعلك صادقاً في أعين الناس أي أن وده يتجلى في كثرة ود المسلمين من حوله فيحب للعاصي التوبة، وللمحسن حسن المنزلة فيتقرب بذلك لكل من حوله من أجل الحق وإحقاقه ومن أجل الباطل وإزهاقه، فيكون مرشداً لغيره من الناس سواء المسلم أو الكافر لطريق الحق، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} 807، آيات كريمة حجة بين الناس بالحق، فمن يملأ قلبه الإيمان لا يظلم أحداً، ومن يكفر ويشرك تملأه البغضاء، ولأن الإسلام مؤسس على المحبة البيضاء، فإن الخلفاء تملأهم المودة وحسن بذلك رفيقاً، والعداء بين الناس لا يدوم بل الذي يدوم هو المودة، ولهذا فالودود لا يرى خيراً بين الناس إلا المودة، وهذا ما يحصل في عصرنا هذا فرغم انتشار

الفساد، وظهور الفتن على الدين الإسلامي، إلا أننا نجد كثيرا ممن كانوا على ديانات أخرى قد اعتنقوا الإسلام على أيدي دعاة مسلمين لا يملكون إلا قوّة الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ } 808 فالخليفة هو المحبّ لله تعالى والمحبّ لرسوله ولا يفرق بين أحد منهم مصداقا لقوله تعالى: { لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ أَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } 809.

وعليه فالخلفاء هم المحبّون للخير والعاملون من أجله يصلحون ولا يفسدون يتبعون سنة الرّسول الكريم محمّد صلوات الله وسلامه عليه ولا يبدون تبديلا { مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا } 810.

الخليفة الودود هو الذي له في رسول الله أسوة حسنة، فقد كان نهجه عليه الصّلاة والسّلام اللين والود والصبر وهذا كان سبب التفاف الناس حول الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وعدم النفور

⁸⁰⁸ فصلت 41، 42.

⁸⁰⁹ البقرة 284، 285.

⁸¹⁰ الأحزاب 23، 24.

منه، {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا {811} كما جاء في قوله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} {812}، فالقسوة لا يقابلها إلا القسوة، ولا ينتج عنها إلا النفور والحقد والكراهية، بعكس اللين والود اللذان يطهران أشد القلوب قساوة، ويُدمعان العيون العاصية محبة بعد استغفار وتوبة، ويذيان جليد الحقد من القلوب، ولهذا فإننا نجد أن النهج الذي سلكه رسولنا الكريم - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان اللين والود كيف لا وقد علّمه ربه ورباه، {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ} {813}، فكان عليه الصلّاة والسلام محبًا ودودا لنا لا يرد الأذى بمثله، ولا يذكر مساوئ أحدهم أمام الخلق، بل أنه كان يبحث عن مواطن الحبّ في النفوس.

وعلى هذا النهج لا بدّ أن يكون خليفة الله، محبًا لله تعالى أولا وأخيرا ومحبًا لنفسه حبًا يجعلها تأبى الفساد والمعاصي، حبًا يجعلها طاهرة من الكره والحقد والحسد، فالذي يحبّ ذاته على أنها نعمة من الخالق عزّ وجلّ وقاها بهذا الحبّ من المهالك والمفاسد، فينأى عن الآثام والرذائل، ولا يرضى لها سوى معالي الأمور وأفضل الأحوال،

⁸¹¹ الأحزاب 21، 22.

⁸¹² آل عمران، 159.

⁸¹³ النجم 1. 14.

فهي نعمة من الله وعلى الخليفة أن يحافظ على هذه النعمة الغالية التي أودعها الله تعالى فيه.

وإذا نظرنا إلى العلاقة بين الخالق والمخلوق والود القائم بينهما لوصلنا إلى عظمة هذا الخالق جلّ وعلا، فبالرغم من ضآلتنا بالنسبة لخالقنا وهو خالق هذا الكون الشاسع، إلا أنه بقوته وعظمته يتودد إلى هذا المخلوق الصغير الذي كرمه تعالى وخصه على باقي المخلوقات وحمله أمانة لم يستطع غيره تحملها، وإذا نظرنا وجدنا أن الملائكة وهي مخلوقات الله تعالى لا تتوقف عن عبادة خالقها وشكره وتنفيذ أوامره، لكنّ الله سبحانه وتعالى أحبّ الإنسان وأعطاه ومنحه وجعله خليفته في الأرض وتودد إليه رغم قدرته تعالى على الاستغناء عن البشر إذا أراد، لكنه سبحانه وتعالى كريمٌ وعليمٌ بخلقهم جميعا وكان هذا رد الله تعالى على الملائكة حين أراد الله أن يجعل الإنسان خليفة له وذلك في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 814.

والخالق عزّ وجلّ يتقرب إلى عباده لا خوفا ولا طمعا ولا ضعفا، بل يتقرب إليهم ودّا صافيا، مخافة عليهم لا مخافة منهم، وقوّة إليهم وتقديرا لخلقهم في أحسن التقويم، واعتبارا لاستخلافهم في الأرض وتوريثهم في الجنّة، فالعباد منهم الموحّد المطيع ومنهم المشرك العاصي، ومنهم المحسن ومنهم المذنب، ومنهم العالم ومنهم الجاهل، ومنهم المصلح المفلح ومنهم المفسد وسافك الدماء، ومع ذلك فهو يتودد إلى الصالحين منهم بإجابة دعواتهم وقبول أعمالهم، أما عباده المذنبين فلهم أيضا نصيب من ود الخالق عزّ وجلّ تتجلى في رحمته لهم وعفوه عنهم

814 البقرة، 30.

وقبول توبتهم إذا ما استغفروا وتابوا، مصداقا لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّآخِرِينَ} 815، يتوود للعلماء بهذا الكون وما فيه من أسرار يجعلهم يكتشفونها ويصلون إلى درجات عالية من الإيمان به وبعلمه وقدرته قال تعالى: {وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَايِبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَاطَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُؤْفِقِيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} 816.

إذن الودود يتوود إلى عباده بنوعين من الودّ هما:

ودّ عامّ وهو: ود لكل الخلق بصفة عامة سواء كانوا مسلمين أو كفارا أو مؤمنين يتوود إليهم باللين والعطف، فهو الودود لكافة خلقه بوسع كرمه وسابغ نعمته عليهم عزّ وجلّ، فكرمه وحبّه يتسع لكل

815 الزمر، 52 . 56 ..

816 فاطر، 25 . 30.

تائب عائد عن ذنبه، وكل تارك للفساد والكفر، لا يعجل العقاب بل يؤجله متيحا للعاصي فرصا للرجوع للحق.

ودّ خاصّ: خص به الأنبياء والرسل، وخص به أيضا عباده الصالحين والشهداء والمخلصين القائمين على عبادته والباحثين عن رضاه وعن حبه، فكيف لا يخصصهم الكريم الودود الحنان بأكبر ود فيقربهم منه ويجعل مراتبهم أشرف وأسمى المراتب؟ وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} 817، أي سيحدث لهم في القلوب مودة ويزرعها لهم فيها من غير تودد منهم ولا تعرّض للأسباب التي توجب الود ويكتسب بها الناس مودات القلوب، من قرابة أو صداقة أو اصطناع بمبرة أو غير ذلك، وإنما هو اختراع منه ابتداء اختصاصا منه لأوليائه بكرامة خاصة 818.

والله تعالى قويّ في وده لخليفته في الأرض من أنبيائه وأوليائه الصالحين الذين يطيعونه ويخلصون له في العبادة ويحكمون في الأرض بما أمر الله تعالى به كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ 819، وهو أيضا ودود في قوته لأنه لم يجعل قوته على المستضعفين والمساكين بل سخر قوته لشد عزم الإنسان ونصرته على الشر، كما وعد الله تعالى عباده المؤمنين: {وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}

817 مريم، 96.

818 الكشاف، ج 4، ص 124.

819 المائدة، 48.

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ {820

وهو ودود في كرمه، فلا يكرم لغرض أو طمع، وكريم في وده، إذ أن حبه ومودته تفيضان على البشر مهما قدموا للخالق عز وجل، وفي الحديث الشريف التالي توضيح لهذا المعنى: عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من قاتل دون نفسه حتى يقتل فهو شهيد، ومن قاتل دون أهله حتى يقتل فهو شهيد، ومن قاتل في حب الله فهو شهيد" 821.

وقد ودنا أيضا الخالق بالنعمة الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، وأنعم على جميع خلقه بها، لكن المؤمن المطيع يعرف أن هذه النعم جميعها تستوجب أن نشكر الخالق عز وجل عليها وهي نعم لا تعد ولا تحصى كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ 822، وأن يتدبر معنى الود الكامن في معنى هذه النعم، أما العاصي فلا يتدبر معناها ولا يفقه كيفية شكر الخالق عليها، بل في كثير من الأحيان يجحد بها، وأولها نعمة القرآن الكريم الذي جعله الله سبحانه وتعالى هداية للبشر ورحمة، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ أَوْكَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ

820 الشورى، 37. 39.

821 مصنف عبد الرزاق، ج 10، ص 116.

822 إبراهيم، 34.

أوثوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون {823، بالرغم من تحذير المولى عز وجل لهم، كما توضحه لنا الآية الكريمة: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا {824، لكنهم ابتعدوا عنه فابتعد عنهم.

وهناك صور كثيرة تتجلى فيها محبة الودود المطلق للبشر منها رحمته بعباده، فالرحمة تنتج عن الود، إن الله عز وجل يسمع شكوانا ويستجيب لدعائنا، ويرحم مرضانا، ويرفع البلاء عنا كلما دعواناه مخلصين، ووهب لنا مسببات الجنة لمن أراد، فرحمنا بذلك من عذاب الحريق، وقبل كل هذا أهدانا نعمة الإسلام، وجعل سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - شفيعا لنا، وهذا تودد من الله سبحانه وتعالى إلى عباده أجمعين بالرحمة، وذلك بمكافأة المطيع بالثواب وقبول توبة المذنب الخاطيء الذي لجأ إليه، وبالرغم من أننا نعرف أنه جل وعلا قوي عزيز لا يحتاج للعباد في شيء ولكنّه يرحمهم عند اللجوء إليه لحبه فيهم وتقربه منهم رحمة بهم، مع أنه يستطيع أن يعاقب أشد العقاب إذا أراد كما فعل مع الأقوام السابقة التي طغت وتجبرت ولم تصغ إلى كلام الله وظلمت، كما في قوله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿فَأَخَذْنَا هُوَ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ فَعْتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ

823 البقرة، 101. 97.

824 النساء، 115. 116.

وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿825﴾، فلولا تودده ورحمته لعجل بالعقاب لكل عاصٍ وخاطيءٍ فلا يكون لهم مجال للتوبة والرحمة.

وهو أيضا ودودٌ في لطفه فهو يُنزل علينا الصبر والسكينة عند حلول المصائب والكوارث، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ 826 فينجي من يشاء منهم من الكوارث، فبحبه لعباده تلتطف بهم مانحا لهم نعمة الصبر والرضا بالقضاء. وهذا يكون من باب التودد إلى العباد.

هو أيضا سبحانه وتعالى لطيفٌ في وده إذ أنه لا يمنع رزقه عن العباد بذنوبهم في الدنيا بل أنه يتودد إليهم عامةً بالعتاء والرزق حسب علمه بعباده وتودد الله دائما رحمة ومغفرة للعباد، فهو المتودد لهم بالشفاء أثناء المرض وبالوفرة أثناء الحاجة وبإحفاق الحق أثناء ظهور المظالم، وبالعلم بعد الجهل وبالحكمة والهداية بعد الضلال وباليقين بعد الشك، والخليفة يتودد إلي الودود بالاستغفار والطاعة والعبادة والتوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُصِّبَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ 827، فقد تكون هذه النعم سببا في خروج العاصي من عصيانه بتفكره في هذه النعم واعترافه

825 الذاريات، 40 . 44.

826 البقرة، 156.

827 الشورى، 19 . 23.

بأنها من الله الواحد الرازق الودود فبذلك يكون قد حل به لطف الله تعالى فينجو من عذاب الحريق.

لذلك على الودود بالإضافة أن يكون شاكرا طائعا محبا لله تعالى، ولعباده المؤمنين يتودد إليهم لما في قلبه من حب لله تعالى، يملأ قلبه التسامح والعفو وعلى علاقة طيبة بذوي القربى وبجيرانه الأقارب والأباعد لأن القلب إذا عمّر بحب الله فاض بحب العباد، فيكون بذلك متصفا بصفات الله عزّ وجلّ من خلال عمله وطاعته للمولى، فأضفى عليه الخالق من صفاته العلى ما يجعله أهلا لخلافته سبحانه وتعالى في الأرض، وهذه الخلافة لا يستحقها كل إنسان لمجرد كونه إنسان، حتى وإن كان مسلما، فليس كلّ مسلم هو خليفة لله سبحانه وتعالى وإن كان هذا ما يجب، ولكن يستحقها من أطاع مُستخلفه فالتزم بالأوامر وابتعد عن النواهي وأكثر من الطاعات وتخلّق بالصفات الحسان، فبهذا يكون أهلا لخلافة الله تعالى في الأرض ليحكم بحكمه ويطبق شرعه ويعمر الأرض كما أراد الخالق عزّ وجلّ في قوله تعالى مخاطبا لخليفته: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ 828﴾، وهذا الخطاب من الخالق عزّ وجلّ المستخلف إلى نبي الله داوود عليه السلام وهو المستخلف في الأرض خلافة جبرية، حيث اصطفاه الله تعالى واختاره ليكون نبيا له وخليفة، فما بالك بالخليفة الاختياري أفلا يكون هذا الخطاب شاملا لهم؟

بلى يكون هذا الخطاب شاملا لهم، بل هو أكّد في حقهم أكثر ممّا هو في حقّ الخليفة بالإجبار، فالأنبياء والرسل يكون الله قد

اصطفاهم ونقاهم من المفسد والأخطاء كما في قوله تعالى في كتابه العزيز واصفاً أصفى خلفائه على الإطلاق سيدنا محمد - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ } 829.

فلا بدّ أن يكون تودد الخليفة لله لا ينازعه أي تودد آخر فتكون محبة المولى عزّ وجلّ هي الغالبة على فؤاده، لأنّ محبة الله تعالى هي روح الأعمال، فلا عمل للعبد يكون لغير وجه الله تعالى ورضاه هو عمل مقبول، فمن عقد النية خالصة لله عزّ وجلّ ينال رضاه ومودته وهذا ما أخبرنا به المولى عزّ وجلّ في كتابه العزيز: { مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ } 830.

ويكون التودد متبادلاً بين الخالق جلّ وعلا وخليفته، فالله تعالى يضع محبته في قلب خليفته الذي رضي عنه وهذه نعمة من الله عليه وهو لا يعطيها لمن لا يسعى خلفها، فالمؤمن الذي أحبه الله يجعل بالمقابل محبته في قلب هذا المؤمن، وبهذا يتبادل الخالق عزّ وجلّ المودة والحبّ بينه وبين خلفائه وعباده المخلصين، وهذا الود هو الذي هون على الأنبياء والمرسلين الأهوال والعذاب في تبليغ الناس دعوة الله لهم بالتوحيد، وهذا الحبّ هو الذي شدّ أزرهم عند اشتداد الأزمات والمصائب وليس أصدق على ذلك من دعاء الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه عند لجوئه للطائف وتعرضه للعذاب والضرب والكفر "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، لمن تكلمني! إلى عبد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري! إن لم يكن بك غضب عليّ فلا

829 النجم، 3، 4.

830 الشورى، 20.

أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعود بنور وجهك من أن ينزل بي غضبك، أو يحل عليّ سخطك، لك العتي حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك"831.

وبما أنّ الودّ أشدّ عمقا وأعم من الحبّ، لأنّ الحبّ يبقى مستترا داخل النفس، أما الود فهو التعامل بإظهار هذا الحبّ أي لا بدّ أن يظهر ويتوضح الود في التصرفات ولا يبقى كامنا داخل زوايا الذات لهذا فقد ظهر ود الله لنا جليا وهناك حديث للرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يوضح هذا الأمر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحَبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحَبُّهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ"832.

وودّ الله سبحانه وتعالى للعبد يبدأ بمجرد بث الرّوح فيه، كما بثها في نفس هارون الذي أصبحت المودة سلوكه المثال، ولهذا عندما يبتث الرّوح في الحسد يهب له الحياة ويخرج إلى الدنيا بقدرة القادر عزّ وجلّ، وينبض قلبه مستبشرا بالحياة، ولا يتركه الله وحيدا؛ بل يجد من يعتني به ويلبّي له احتياجاته من مأكّل ومشرب وملبس وحنان ورعاية، ويتجلى هذا الود بتوضيح السبل للعيش الكريم والصحيح في مراحل النمو وهداياته لطاعة الواحد الأحد الذي لا شريك له في الأمر والمملك، ولهذا من يتعلم طاعة الواحد الأحد لا يمكن أن يطيع من لا يطيعه بالمطلق، فلا أجمل من أن يعيش الإنسان حياته وهو متوددا إليه بشكره وحمده على نعمه التي أنعم بها عليه من عقل وسمع وبصر وحس وذوق وأكثر من ذلك ممّا لا يحصى مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ

831 جامع الأحاديث، ج 35، ص 409.

832 صحيح البخاري، ج 18، ص 468.

تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا {833، وأن يكون موقنا أن الله أقرب إليه من نفسه التي قد تأمره بالسوء أحيانا ومن أمه وأبيه اللذان ربياه وهو اللطيف به الرؤوف الرحيم والودود عز وجل يدعو عباده إلى التوجه إليه ومناجاته، والتودد إليه دائما، فلا أحب إلى الله سبحانه وتعالى من شكوى عبده المتضرع إليه، فالمؤمن المخلص لله تعالى هو الذي يلجأ إليه دون سواه سواء أكان مسرورا فيشكر خالقه ويحمده، أو إذا مسه الضر فلا يتجه العبد المؤمن الصادق إلا لهذا الخالق الودود الكريم السميع للدعاء القريب للداعي، ولنا في رسلنا وأنبيائنا خير مثال وقدوة، فمع معاناتهم الشديدة لكنهم توكلوا على الله تعالى وبثوا شكواهم إليه وهذا ما حدث مع سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام عندما اشتد عليه المرض والتعب، فقد حدثنا القرآن الكريم عن مناجاته في قوله تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} 834 وكذلك أيضا قوله تعالى: {وَذَا التُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُعَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْعَمَمِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ} 835، وأيضا قول الله في كتابه العزيز: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ 836، فلا أقرب من الخالق سبحانه وتعالى من خليفته المؤمن الذي يناجيه ويدعوه، ولا أحب من صوت المؤمن إلى الله عز وجل وهو يستغيث به ويحمده ويتوجه إليه.

833 إبراهيم 34.

834 الأنبياء، 83.

835 الأنبياء، 87، 88.

836 الأنبياء، 89، 90.

فالخليفة على وثوق بأنه على ود من ودود مطلق، ولذا فهو على حالة من مبادلة ود بود، وهو على يقين بأن الله تعالى يبادل هذا الود بأكثر، وأن ينعكس هذا الود في حياته كلها فيكون ودودا مع جنسه ويأمل بكل ود أن تكون الهداية قاعدة للتفاهم والتفهم بين بني آدم، حتى يعم الود العلاقات بين الأب وأبنائه والزوج وزوجه، والمعلم وطلابه، والجار وجيرانه، والراعي ورعيته، والعاقل والمعدول بينهم، أهله وعائلته المقربون.

الودود تعالى قريب من عبده مادام عبده وخليفته يتودد إليه بالشكر والذكر والحمد على كل حال كما جاء في الحديث الشريف:
عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" 837، فهل هناك من جزاء للتقرب إلى الله تعالى أروع من هذا الجزاء الكريم الودود الذي خص به خليفته على الأرض؟ إنه الودود الكريم في وده وحبّه وحتى في لومه للذين لم تخشع قلوبهم بعد كما جاء في قوله تعالى في كتابه العزيز: { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ } 838.

المتمعن في اسم الودود لا بد أن يخرج بعدة نتائج هامة:

أولها: مدى اتساع حبّ الله تعالى للخلق، حبّ لا يتبعه مصلحة ولا نوايا أخرى فهو الغني عن العباد إذا عصوا أو امتنعوا عن إطاعة

837 سنن الترمذي، ج 6، ص 190.

838 الحديد، 16.

أوامر الخالق كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} 839، وكذلك يؤكد الله تعالى غناه عن العالم إذا أراد ذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} 840 أي أن الله تعالى يقول يا أيها الناس أنتم أولو الحاجة والفقير إلى ربكم فإياه فاعبدوا، وفي رضاه فسارعوا، يغنكم من فقركم، وتُنَجِّحْ لديه حوائجكم {وَاللَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ} عن عبادتكم إياه وعن خدمتكم، وعن غير ذلك من الأشياء؛ منكم ومن غيركم {الْحَمِيدُ} يعني: المحمود على نعمه؛ فإن كل نعمة بكم وبغيركم فمنه، فله الحمد والشكر بكل حال 841، وبالرغم من ذلك فقد خلق الله سبحانه وتعالى هذا الكون الشاسع بإتقان ودقة وجعل هذا التآلف والانسجام في مكونات هذا الوجود على تباينها وتعددتها ترتبط بعلاقة تودد مع بعضها البعض لخدمة هذا الإنسان، وهذا من مظاهر تودد الله تعالى الجليلة للإنسان.

وثانيها: يوضح لنا هذا الاسم مدى جهل الكفار وطغيانهم، فلو أنهم فقط نظروا إلى الكون الشاسع الممتد حولهم لتوصلوا إلى ربط الصلة بين مكونات هذا العالم وبين تودد الودود إليهم، لأن هذا الكون ما هو إلا تودد من الودود للإنسان فليظنوا إلى الشمس ويتدبروا أهمية خلقها لنا ويتساءلوا إذا لم يكن لها وقت للمغيب ما الذي سيحدث؟ أليس حبًا بخلقه جعل لها مشرقا معلوما ومغيبا

839 محمد، 38.

840 فاطر، 15 . 17.

841 الطبري، ج 20، ص 454.

معلوماً { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا } 842 وكذلك القمر كما في قوله عز وجل: { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ } 843، وهذه الأنهار الجارية والينابيع التي تصب وكذلك الأمطار وغيرها من دلائل هذا الود العظيم للخالق العظيم، ألا يعتبر تودداً للخلق كل مسخرات هذا الكون.

أيضا هذه الطيور المتباينة والأسماك والأنعام على اختلاف أشكالها وأنواعها هي لسد حاجات الإنسان سواء الحاجة المادية من مأكّل ومشرب أو الحاجة الروحية لما فيها من متعة للعين وابتهاج للنفس كما وضح الله لنا في كتابه العزيز: { وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } 844.

وثالثها: ردع المسلم عن الزلات والذنوب بأن يتذكر ود الخالق سبحانه وتعالى له، فيكفي أن يتذكر المسلم عند نيته بارتكاب ذنب ما أن الله فضله على باقي مخلوقاته واستخلفه في أرضه، وأنه ستر عليه وأكرمه بكثير من النعم والعطايا، فهل يكون هذا هو رد الإنسان عليه؟ ألا يكفي لهذا العبد أن يعلم أن الله لا يسجل ذنب على أي إنسان إلا بعد ارتكابه مع علمه الواسع بالغيب؟

842 الفرقان، 47.

843 يونس، 5، 6.

844 النحل، 11.

ويكفي أن يعرف أن الله كريم في وده ومغفرته ولا يتجاوز الحد العادل في العقاب؛ بل أنه يزيد من الحسنه ويضاعفها لكي تغلب على السيئه في ميزان أعمالنا وهذا ما وضحه لنا خالقنا الودود في كتابه الكريم: { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَنْبِي رَّبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } 845

رابعها: أن اسم الودود يفتح للمذنب بابا للأمل والتوبة والتسامح، فلا ينغمس مع يأسه في منحدر الفساد والرذيلة، فالود دائما يفتح الأبواب المغلقة، بل أن الودود بوده وكرمه في تقربه لخلقه يتقرب إلى عبده المذنب بالغفران والسماح إذا عاد وتاب عما ارتكبه، { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ } 846، وكذلك قوله سبحانه تعالى في التخفيف عن المذنبين ومنحهم أمل المغفرة منه ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ

845 الأنعام 159 . 165.

846 آل عمران، 135، 136.

الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {847.

بل أننا نجد أنّ الله سبحانه وتعالى أعلن عن حبه للتائبين عن
ذنوبهم، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ} {848. إذن ود الله الكريم الحنان يمثل واحة من الظلال
يستريح فيها المذنب من عناء خوفه.

وحتى ودّ الله سبحانه وتعالى ودّ كريم لأنّ الخالق لم يحدد أي زمن
للتوبة، ولم يجعل لها سن معين لا تقبل من بعده، بل أنه ترك باب
توبته مفتوحا طوال العمر وفي أي مكان وهذا ما جاء في الحديث
الشريف عن أبي قلابة، قال: "إنّ الله لما لعن إبليس سأله النظرة
فأنظره، فقال: وعزتك لا أخرج من صدر عبدك حتى تخرج نفسه،
فقال: وعزتي لا أحجب توبتي من عبدي حتى تخرج نفسه - أو قال:
روحه" {849، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ
وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا
عَظِيمًا} {850.

خامسها: إن العبد إذا أدرك هذا الاسم بكل معانيه السامية
سوف يتجه إلى الخالق عزّ وجلّ بكل جوارحه مؤديا للطاعات
ولأوامره حبّا به لا خوفا منه، فبذلك يكون قد دخل من أشمل وأوسع
الأبواب لنيل رضى الله تعالى فيتجه إليه الخليفة محبّا لا خائفا، طوعا
لا كرها، راکضا لا متمهلا، بذلك سوف يستشعر مدى حبّ الله

847 الزمر، 53.

848 البقرة، 222.

849 جامع معمر بن راشد، ج 3، ص 347.

850 النساء، 48.

تعالى له وحرصه على دخول جنته، وسيعلم مدى رقي المعاملة التي يتعامل بها هذا الخالق العظيم الودود مع عبده الضعيف المحتاج لرضاه عز وجل، { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } 851. وعندها سوف يسارع هذا الإنسان في طاعته ورضاه كما سارع سيدنا موسى - صلى الله عليه وسلم - لطلب هذا الرضى في قوله تعالى في كتابه العزيز: { وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى } 852.

سادسها: أنّ هذا الاسم يخلق المودة بين الناس، سواء أكان بالزواج والمصاهرة والنسب أو بتقارب الناس بشتى الوسائل، كما في قوله عز وجل: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } 853، فالودود سبحانه وتعالى لم يجعل الناس متنافرين بل قاربهم من بعض لنشوء المودة والحب بين الناس جميعا، لذلك جعل الله تعالى الود على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - من معالي الأمور، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس» 854.

سابعها: تأتي أهمية هذا الاسم أيضا من كونه بابا واسعا للشعور بالطمأنينة والأمان في صدر الخليفة، فعند نشوء مثل هذا الود المتبادل بين الخالق سبحانه وتعالى وبين عبده المخلص، ويصبح هذا الود مبعثا

851 الحديد، 28.

852 طه، 84.

853 الروم، 21.

854 مسند الشهاب القضاعي، ج 1، ص 319.

للسكينة عند حلول الأزمات، كيف لا وهذا الود يجعل العبد المحب لله تعالى يستشعر قرب خالقه الودود في نفسه؟ قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} {855، فيبتعد بذلك شبح الخوف من الآخرين في نفوسنا، ونطرد كل أشكال الهلع والجن، وقد جسد لنا رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - هذا الموقف عندما كان مع صديقه ورفيقه في هجرته أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - في غار ثور، كما جاء في قول الله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَابِتًا ثَيْنًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} {856، فشدة قرب الرسول عليه الصلاة والسلام من ربه وحبّه له هما اللذان منحاه هذه الثقة بمن أحبّ فاطمأن قلبه وطمأن رفاقه "طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال: إن تصب اليوم ذهب دين الله، فقال عليه الصلاة والسلام: "ما ظنك باثنين الله ثالثهما" {857.

فالتودد إلى الله عزّ وجلّ إذن يجلب لنا الإحساس بالأمان والسكينة، وهما شعوران يجعلانا نتدبر هذا المعنى لهذا الاسم الرفيع، وبالتالي فإن هذا الخليفة عندما يستشعر ذلك كله ويجد ما يحتاجه من الأمان والراحة في ود الله تعالى سيكون من المستحيل عليه أن يفرط في هذا الحب الرفيع، فيتكون لدى هذا المؤمن المطيع الخشية من عصيان المولى وإنذار بالخوف من الابتعاد عن هذه العلاقة الودية بينه

855 الرعد، 28.

856 التوبة، 40.

857 الكشاف، ج 2، ص 422.

وبين خالقه، كما في قوله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾⁸⁵⁸، بذلك يتوكل العبد على خالقه الودود ولا يخشى غيره فيتخلص من خوفه من النَّاسِ، ولا يخشى إلا الواحد الأحد، ويمتلئ قلبه بالثقة والقوة المستمدة من حبِّ الله تعالى والتوكل عليه كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ﴾⁸⁵⁹.

فسبحان ربي الودود الظاهر بالمحبة على عباده جميعا، يصلهم ويمدهم بالإحسان والعدل والغفران حتى يصلوا إلى جنات النعيم، فقد سبقت رحمته غضبه، ورافق علمه حلمه.

ثامنها: الرضا بقضاء الله وقدره هو من النتائج الأساسية التي يخرج بها الإنسان من التدبر في معنى هذا الاسم، فالودود بالإضافة إذا كان صادقا في وده لله سبحانه فإنه يرضى بما قدره الله تعالى عليه، فهو يعلم تمام العلم أنّ الله عزّ وجلّ ودود يود خلقه ولا يظلم أحدا من خلقه فسيكون على ثقة كاملة بأن ما يصيبه من عند الله تعالى، عندها سيصل إلى اقتناع تام بأنّ ما يحل به من هم وحزن سواء كان بذهاب المال أو فقد الأحباب أو غيرها من الهموم والأحزان هو خير من الخالق عزّ وجلّ.

والرضا بقضاء الله تعالى وقدره من علامات حبِّ الله تعالى وشكره، كما جاء في الحديث الشريف: عن الربيع بن أنس، عن بعض أصحابه قال: "علامة حبِّ الله كثرة ذكره، وعلامة الدين

⁸⁵⁸ الأنعام، 15.

⁸⁵⁹ الرعد، 30.

الإخلاص لله، وعلامة العلم الخشية لله، وعلامة الشكر الرضا بقضاء الله والتسليم لقدره"860

تاسعها: إن الود سبب لإنجاح المهمات التي أنيطت بنا سواء كانت من الخالق عزّ وجلّ كالعبادات وعمارة الأرض أو كانت من المهمات الدنيوية التي تحملناها بحكم مسؤولياتنا في هذه الحياة، فبالود نستطيع أن نقوم بعباداتنا على أكمل وجه، وأن نعلم الأرض بالحبّ والود.

عاشرها: المتمعن في اسم الودود يتضح له جليا دعوة الله تعالى لنا بالتآلف والوحدة، فالود الذي يربط الخالق بعبده يقوى من نفس هذا العبد وعندما يقوى يستطيع مواجهة والتحدي، وهذا نفسه ينطبق على الأمة الإسلامية، فدعوة الخالق عزّ وجلّ لنا بالتودد لبعض والمحبة من شأنها أن توحد هذه الأمة، فالناس بالود يتحدون وبالعداوة يتفترقون، وهذا المعنى نجده في حديث الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"861، فإذا تخيلنا الأمة الإسلامية في توادها وحبها لبعض مثل الجسد الواحد الذي يرتبط مع بعضه البعض، لوصلنا إلى درجة من الوحدة ما تكفي لنهوضنا، لأن الجسد الواحد يكمل كل عضو فيه الآخر لكي يستمر هذا الجسد في الحياة وكأنها علاقة ود تقوم بينهم، وهذا ما يجب أن يكون عليه المؤمنون لا ينقطع الود والحبّ بينهم بل يزيد بارتباطهم بالودود الكريم.

860 تعظيم قدر الصلاة للمروزي، ج 2، ص 298.

861 صحيح مسلم، ج 2، ص 468.

على الإنسان أن ينمي هذا الود السامي بمعناه بينه وبين خالقه، ولا يكون ذلك إلا بحرص هذا العبد على نيل رضا مولاه عزّ وجلّ وذلك بأمر عديدة منها: الإكثار من ذكر الخالق سبحانه وتعالى، وأن يكون قلبه عامرا يفيض بحبّ الله تعالى، وإتباع سيرة رسولنا الكريم - صلى الله عليه وسلم - كما جاء في كتابه الحكيم: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} 862، فحبنا لله تعالى لا يكتمل إذا كان دون حبّ رسوله الكريم عليه الصلّاة والسّلام، وكذلك بكثرة النوافل والسنن المحبّبة، وأن نحبّ المسلمين خاصة والخلق عامة، فلا نوذي أحدا ولا نبدأ بالسوء، وأن نكون على إيمان بأن الله تعالى يودنا في كل أمر فدفع الضرر عنا هو ود منه إلينا، وكل طعام وشراب هو ود منه لنا، وكذلك كل نوم هادئ مريح هو تقرب من الخالق لنا، ومن أروع صور هذا الود السامي أن نتذكر أن كل ليلة ينزل من السماء دعوة حبّ من الله عزّ وجلّ لكل مذنّب للتوبة والغفران، واستجابة لكل طالب حاجة فيليها له، لهذا فإن حبنا للخالق عزّ وجلّ هو نقطة في بحر حبّ الله سبحانه وتعالى لنا، هذا الود البحر الزاخر بالخيرات والعطايا والسخاء.

ومن الأهمية بيان الود الموصوف به المولى عزّ وجلّ، لأن هناك أنواعا من المحبّة والود ينتج عنه الضعف والتدلل، وهذا طبعا يستحيل في حقّ الله سبحانه وتعالى، لأن الحبّ الموصوف به عزّ وجلّ غير قائم على الضعف ولا الخنوع، إنما هو حبّ قائم على الإحسان لنا والرحمة بنا والكرم معنا والقوّة والعزة، وهذا هو الحبّ الذي يختص به عباده المخلصون المستحقّون لهذا الود، وهذا ما نراه جليا في قوله تعالى عزّ

862 آل عمران، 31.

وجلّ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } 863، فالله تعالى محبته للمؤمنين تعني حفظه وستره وعزته ونصره لهم، وقوله تعالى في كتابه الكريم: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ } 864.

من المستغرب أن يكون بعض البشر لا يستشعرون هذا الود من الودود المطلق، ورغم كل هذه الدلائل وغيرها يصرون على عدم الشكر ورد الود، وأي إحسان قد يقدمه شخص للإنسان يضاهي إحسان الخالق عزّ وجلّ الذي خلق الإنسان من لا شيء كما في قوله تعالى: { هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا } 865، وبعد أن خلقه أهدى له أمه وأبيه وأهداه نعمة العقل وأحسن إليه بالعديد من النعم الأخرى طيلة حياته فهل يكون جزاء الإحسان إلا الإحسان كما في قوله عزّ وجلّ في كتابه العزيز: { قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } 866.

فلا أقل من أن يتودد الإنسان إلى خالقه عن طريق إقامة الصلاة والصوم والحج كما أحبنا الودود أن نكون في قوله تعالى: { الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } 867. وغض البصر كما أمرنا

863 المائدة، 54.

864 إبراهيم، 19، 20.

865 الإنسان، 1.

866 الأنعام، 162.

867 لقمان، 4، 5.

الله في قوله تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} 868، وكذلك الإنفاق لقوله جلّ وعلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ} 869، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد قال تعالى، {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 870.

فالخالق الودود قد تودد إلينا بالكون كله، فلتتودد إليه نحن بالإيمان والطاعات والإحسان، ليمتلئ قؤادنا وروحنا بحبّ الله، وحبّ من أحبّهم، وحبّ ما يحبّه من الأعمال، فلا يُعتبر ودودا كل من أحبّ المعاصي وتودد إليه، أو تودد إلى من تجمع به تلك المعاصي، فذلك لا يمكن أن يكون ودا، لأنّ الود يكون لكل ما هو خير ونفع، كمثل من يُخيل لهم أنهم يتحابون في مجالس شرب الخمر والفساد، أو من يبسطون أيديهم بالحبّ لأعداء الله تعالى، كما في قوله عزّ وجلّ: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 871 أي أنه لا تجد يا محمّد قوماً يصدّقون الله، ويقرّون باليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله

868 النور، 30.

869 البقرة، 267.

870 آل عمران، 104.

871 المجادلة، 22.

وشاقفهما وخالف أمر الله ونهيه {وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ} 872، فكل ود لغير مرضاة الله هو خداع وخيال، لأن الخالق عز وجلّ وضع لنا الفرق بين الود الحقيقي المقبول من العبد والذي يقربه من خالقه وبين هذا الحب الموهوم بين العبد ومن ابتعد عنهم الله ونبذهم من رحمته، فالود الموصوف به خلفاء الله تعالى في الأرض له علامات منها:

أولاً: أن يكون وداً صادقاً خالياً من النفاق وليس كمثل المنافقين في مولاتهم الكفار كما في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَجْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} 873، أو من يتودد لشخص ما بهدف تحقيق مصلحته، إنما هو ود عامر بكل معاني النقاء والصفاء.

ثانياً: أن يكون وداً دائماً جارياً مع دماء هذا الخليفة، لا ينقطع ولا يتوزع ولا يتجزأ، ويكون وداً ثابتاً لا ينقص مع حلول المحن والمصائب وأن يكون هذا الودّ بمثابة درع يقيهم خوف الأعداء كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ} 874.

وثالثاً: أن يكون هذا الودّ الصافي لاستحقاق الودود وداً أكثر.

رابعاً: أن يصل الخليفة بهذا الود إلى مرحلة إثارة حبّ الله ومودته على كلّ ما عاداه، فيضحى بنفسه وماله وولده من أجل هذا الودود العظيم كما جاء في محكم آياته عز وجلّ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا

872 تفسير الطبري، ج 23، ص 257.

873 المجادلة، 14.

874 آل عمران، 173.

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ {875}.

خامسا: الشعور الدائم بعدم وفاء الخالق عزّ وجلّ حقّه من الودّ
والحمد والشكر، فالمؤمن الحقّ هو الذي يصاحبه شعور بأنه مقصر في
حقّ الله، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ
يَخْرُجُ مِنْ عَيْنَيْهِ دُمُوعٌ وَإِنْ كَانَ مِثْلَ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ حَشْيَةِ اللَّهِ ثُمَّ
تُصِيبُ شَيْئًا مِنْ حُرِّ وَجْهِهِ إِلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ" 876، ويتكون
هذا الشعور لدى المؤمن لعلمه ويقينه بأنّ ودّ خالقه له لا يمكن أن
يُردّ بمثله لعدم المقدرة من العبد على ذلك.

والودّ من المولى عزّ وجلّ للخلق ليس ودّا واحدا بل هو ودّ
متفاوت، يختلف باختلاف سعي الخليفة لوده، ومرضاته، فالله تعالى
بعلمه المطلق والمسبق بخلقه يفضل بعضا على بعض، دون أن يكون
في هذا الاختلاف والتباين ظلما للعباد، فسبحانه العادل الكريم منزّه
عن الظلم، وهذا ما جاءت به الآيات الحكيمة: {انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} 877،
وكذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} 878، أي أنّه "قال داود
وسليمان: الحمد لله الذي فضلنا بما خصنا به من العلم، دون سائر
خلقه من بني آدم في زماننا هذا على كثير من عباده المؤمنين" 879.

875 الحجرات، 15.

876 سنن ابن ماجه، ج 12، ص 237.

877 الإسراء، 21.

878 النمل، 15.

879 الطبري، ج 19، ص 437.

فالتميز بين عباد الله هي نعمة من الخالق سبحانه وتعالى يهبها لمن يستحقها، بالود يفضل بعضنا ويخصه، وبالود يشكر خليفته هذا الفضل.

تبارك الخالق الودود ذو الجلال والإكرام، الذي وهب لنا نعمة التودد إليه وإلى خلقه، فكيف لنا أن نتصور أنّ الكون لا يرتبط بهذا الشعور الراقى، الحمد لله الودود الكريم الرحيم الذي لولا فضله علينا ما هदानا، وما يسر لنا سبل المحبة، وما بث فينا حباً إن وعينا جوهره نجونا من النار، وما منحنا أملاً بالمغفرة والتوبة والسماح كما كان هذا أمل الداعين المؤمنين في الآية الكريمة: {رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} {880}، وما فرنا بجنات النعيم كما وعد الله عباده المؤمنين في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ} {881}.

احتجاج موسى على هارون:

كان الاحتجاج مترتباً على ما فعله السامري أثناء غياب موسى في مهمة التعشيق الإلهي، وذلك حينما ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه حيث مكث على الطور يناجي ربه؛ فعمد في تلك الفترة السامري صياغة عجل من ذهب وفضة، ثم ألقى فيه قبضة من التراب، كان قد أخذها السامري من أثر فرس جبريل، حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه. فلما ألقاها فيه خار كما تخور العجول، وذلك من خلال دخول الرياح وخروجها مرورا مع جوفه؛ فاتخذوه إله

880 البقرة، 286.

881 يونس، 9.

من دون الله. وبالطبع لقد حاول هارون جادا أن يثنيهم عن هذا الأمر ولكنّه لم يوفّق. فلما أخبر الله تبارك وتعالى رسوله موسى عليه السّلام بما فعله السامري، وما أضل به القوم عن دينهم، عاد موسى عليه السّلام وهو في أشد حالات الغضب والأسف، ولام قومه على فعلهم، كما لام أخاه هارون عليه السّلام على عدم لحوقه به لإخباره بما حدث، كما توجه باللوم الشديد للسامري على تسببه في إضلال الناس، وبين له بوحى من الله تعالى أن عاقبته في الحياة أن يقول: "لا مساس"، فكان يتألم من مس أي إنسان له، فإذا لقي إنسانا وخشي أن يمسه يقوله له: "لا مساس".

وقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلَى احتجاج موسى لهارون عليهما الصّلاة والسّلام على وَجْهَيْنِ أَحَدَهُمَا أَنَّ أَخْذَهُ بِرَأْسِ أَخِيهِ لِيَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَيْهِ وَيَسْمَعُ عتابه لَهُ إِذْ تَأَخَّرَ عَنِ اتِّبَاعِهِ إِذْ رَأَوْهُمْ ضَلُّوا وَلَمْ يَأْخُذْ بِشَعْرِ أَخِيهِ قَطٌّ إِذْ لَيْسَ ذَلِكَ فِي الْآيَةِ أَصْلاً وَمَنْ زَادَ ذَلِكَ فِيهَا فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السّلام خشي بادرة من مُوسَى عليه السّلام وسطوة إِذْ رَأَاهُ قَدْ اشْتَدَّ غَضَبُهُ فَأَزَادَ تَوْقِيفَهُ بِهَذَا الْكَلَامِ عَمَّا تَخَوَّفَهُ مِنْهُ وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَا يُوجِبُ غَيْرَ مَا قُلْنَا وَلَا أَنَّهُ مَدَّ يَدَهُ إِلَى أَخِيهِ أَصْلاً، وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقَ.

وَالثَّانِي أَنَّ يَكُونُ هَارُونَ عَلَيْهِ السّلام قَدْ يَكُونُ اسْتِحْقَاقٌ فِي نَظَرِ مُوسَى عَلَيْهِ السّلام النكير لتأخيره عن لحاقه إِذْ رَأَوْهُمْ ضَلُّوا فَأَخَذَ بِرَأْسِهِ مُنْكَرًا عَلَيْهِ وَلَوْ كَانَ هَذَا لَكَانَ إِيمًا فَعَلَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السّلام غَضَبًا لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقاصداً بذلك رِضَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَلَسْنَا نَبْعُدُ هَذَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السّلام وَإِيمًا نَبْعُدُ الْقُصْدَ إِلَى الْمَعْصِيَةِ 882

882 الفصل في الملل والأهواء والنحل، 4، ص 12.

وقد روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: "مرّ هارون عليه السّلام بالسّامري وهو يصنع العجل فقال: ما هذا؟ فقال: ينفع ولا يضر، فقال: اللهم أعطه ما سألك على ما في نفسه فخلق الله فيه الخوار فكان إذا خار سجدوا - والخوار من دعوة هارون - فلما رجع موسى - صلّى الله عليه وسلّم - قال: يا رب من صنع لهم العجل فقال: صنعه السامري فقال: يا رب فمن خلق فيه الخوار، فقال له الله: أنا، فقال موسى: (يا رب إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) 883

جعل هارون لموسى:

قال تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ 884

والسؤال هنا:

من الجاعل؟

الله جلّ جلاله.

ومن المجمعول مع موسى عليه السّلام؟

هارون عليه السّلام.

أي طلب موسى من الله أن يجعل له وزيراً من أهله؛ فجعل له وزيراً من أهله (هارون عليه السّلام).

⁸⁸³ الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، 1، ص 273.

⁸⁸⁴ طه 29 . 32.

وعليه فالجاعلُ هو المؤسس للأشياء على ما ينبغي أن تكون عليه، والجعل مترتب على الخلق فالذي خلق السماوات والأرض وخلق الإنس والجنّ والملائكة هو الذي جعل هارون وزيرا ونبيا ورسولا مع موسى.

إذا الجاعل:

هو القادر على جعل الأشياء على ما هي عليه خلقا وطبعاً ونوعاً وجنساً وخاصية وصفة وفعلاً؛ فالذي خلق الأرض هو الذي جعلها على ما هي عليه شكلاً وحركة وامتداداً وبسطة، وهو الذي جعل لها مجراها مدارياً، وجعلها مع غيرها من الكواكب في فلك يسبحون قال تعالى: {أَوَمَّ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفْعًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ} 885.

مجموعة من الأسئلة قد تترتب على هذه الآية لأجل توضيح الجعل وإظهار المعنى الدلالي للآيات الكريمة له، ومن هذه الأسئلة:

1. كيف كانتا السماوات والأرض وكيف أصبحتا؟

. كانتا على الخلق والجعل.

. كانتا على الخلق رتقا، أي كانتا المجمعولتان على الوحدة والاتصال ثم أصبحتا المجمعولتان على الانفصال وليس المخلوقتان عليه،

ولذا فصفة الخالق هي الخلق وصفة الجاعل هي الجعل وكلا الصفتين هي لله تعالى، فسبحان الخالق المبدع وسبحان الجاعل القدير.

ولأنه الجاعل الذي خلق الأرض رتقا مع السماوات؛ فهو الجاعل الذي فتقهما فتقا، وهو الجاعل الذي جعل الأرض فراشا والسماء بناء فأنزل منها ماء فأخرج به من الثمرات رزقا، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } 886.

2 . بصفة من كانت السماوات والأرض رتقا؟

. بصفة الخالق عز وجل.

3 . بصفة من أصبحت السماوات والأرض مفتوقتان؟

. بصفة الجاعل جل جلاله.

4 . وبأي صفة يصبح من الماء كل شيء حي؟

بصفة الجاعل تعالى، (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ).

5 . على من يعود ضمير الجعل؟

. يعود على الجاعل (الله تعالى).

ولأنه الجاعل جل جلاله فهو الذي جعل في الأرض رواسي وجعل فيها فجاجا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وهو الذي جعل السماء سَقْفًا مَحْفُوظًا.

ولأنّ الجاعل فهو يُطاع ولا يُعصى فيما أمر ونهى وحذّر وحرّم، قال تعالى: {وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا} 887.

ولأنّ الجاعل بالمطلق يسأل؛ فسأله موسى أن يجعل له من أهله معيناً له؛ فجعل معه أخوه هارون عليهما الصلاة والسلام. ولهذا الجاعل بالمطلق يُطاع بالمطلق.

ولأنّ الجاعل عزّ وجلّ؛ فهو الذي جعل الأنبياء في أقوامهم وأممهم أنبياء وملوكاً كما هو حال بني إسرائيل، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} 888.

ولأنّ الجاعل جلّ جلاله فهو الذي جعل الكعبة البيت الحرام للناس مثابة وأمناً. قال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 889.

ولأنّ الجاعل خلق ما خلق مجعولاً على وظيفة ومنافع فالنجوم خلقت خلقاً وجُعلت في علاقة وظيفية مع غيرها من الكواكب لتُظهر تألؤاً يهتدي به الناس مقاصدهم ليلاً في ظلمات البر والبحر، مصداقاً لقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} 890.

887 النساء 5.

888 المائدة 20.

889 المائدة 97.

890 الأنعام 97.

ولأنَّه الجاعل فهو كما جعل النجوم ليهتدي النَّاسُ بها ليلاً كذلك جعل الشمس ضياءً والقمر نورا وهو الذي جعل التقدير الإحصائي من خلال دوران الأرض والشمس والقمر والنجوم في أفلاكها التي جعلت عليها امتدادا ودوراناً، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} {891}.

وعليه لو لم يكن الجاعل قد جعل الأرض والشمس والكواكب والنجوم في حالة حركة ما كان الإنسان بعارف لعدد السنين والحساب كما هو حال معرفته اليوم بأمرها.

الجعل من المطلق جعل نعمه تتعدّد فهو الذي جعل الليل سكناً والنهار مبصراً لينال كلّ معاشه فيه وليهتدي كلّ في سكنه ومعاشه (في ليله ونهاره)، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} {892}.

والجاعل هو الذي بيده أمر الجعل للأشياء المخلوقة؛ فالذي جعل الأرض والسموات مفتوقتان هو الذي جعل الأرض على حالة من المدّ، وجعل فيها رواسي وجعل فيها الأنهار وجعل فيها الثمار، وهو الذي جعل فيها الزوجين للأنواع والأجناس وجعل منهم البنين والحفدة، وهو الذي جعل نصيباً من الرزق لكلّ ما خلق، وهو الذي يغشي الليل النهار، وهو الذي جعل هارون إجابة على سؤال موسى عليهما الصلّاة والسّلام، وهو على كلّ شيء قدير، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

891 يونس 5.

892 يونس 67.

يَتَفَكَّرُونَ} 893، وقال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ
يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ} 894.

ولأنه الجاعل فجعله نعم لا تُحصى ولا تُعد، ولذا فما لدينا من
نعم وما خلق من نعم هي المفعولة لما خلق ولمن خلق، فهو الذي
جعل لنا البيوت سكننا وجعل لنا من جلود الأنعام بيوتا ومتاعا وهو
الذي جعل مما خلق ظلالا وثمارا وجعل لنا من الجبال أكنانا وجعل
لنا مالا يُحصى عددا سبحانه أنه الجاعل جلّ جلال، قال تعالى:
{وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا
تَسْتَحْفُوهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا
أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ} 895.

ولأنه الجاعل فجعله متى شاءه كان مجموعولا؛ ومن ثم؛ فالعلاقة لا
تفصل بين الجعل والأمر (كن) فإذا شاء الجاعل لشيء أن يكون
جعله كائنا كما جعل عيسى عليه الصلاة والسلام مناديا لأُمَّه من
تحتها كما جاء في الكتاب الحكيم: {فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ
جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا} 896.

ولأنه الجاعل فهو الذي جعل الأرض إلى جانب ما سبق ذكره
جعلها قرارا أي مستقره على التوازن وكأَنَّها لا تتحرك وهو الذي جعل

893 الرعد 3.

894 النحل 72.

895 النحل 80، 81.

896 مريم 24.

خلال الأرض أنهارا تجوبها وجعل لها الجبال رواسي وهو الذي جعل بين البحرين حاجزا قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا } {897، وهو الذي جعل بني آدم مستخلفين في الأرض، ولمن يتساءل جاءت الآيات في الكتاب الحكيم حاملة للإجابة، مصداقا لقوله تعالى: { قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِنَّ اللَّهَ يَلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِنَّ اللَّهَ يَلَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِنَّ اللَّهَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ أَمْ مَنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } {898.

ولأنه الخالق فقد خلق التراب خلقا، ثم خلق منه آدم وزوجه، ثم خلق النطفة، ثم جعل منها المخلوق المجمعول على حالة التذكير أو التأنيث أو على حالة بين هذا وذاك. إنَّه على كل شيء قدير، وجعل ذلك الخلق في النطفة على الضعف ثم الطفولة على الضعف، ثم جعل بعد ذلك للمخلوق قوَّة ثم جعله على الضعف مرة أخرى وهو في حالة الكبر التي فيها يحتاج لمن يعينه كما كان مولدا، قال تعالى: { اللَّهُ

897 الفرقان 53.

898 النمل 59. 63.

الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ {899}.

المخالق جلّ جلاله خلق بني آدم من نفس واحدة هي النفس الإنسانية (البشرية) ثم جعل من هذه النفس الزوجين الذكر والأنثى قال تعالى: { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا } 900.

ولأنّ الجاعل لكل شيء شاءه ولكل شيء يشاءه فقد جعل لكل ما شاء مشيئة تجعله على الخاصية التي بها يتميز عن غيره بداية ونهاية وشكلا ومضمونا، قال تعالى: { قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا } 901.

ولأنّ الجاعل يهدي لما يجعل طبيعة خلقية أو وفق نوع وجنس يختاره المخلوق خلقا لذلك كانتا السماوات والأرض مجموعتان على الرتق خلقا ثم أصبحتا المجموعتان على الفتق جعلًا وهكذا جعلت الأرض على الحركة وجعل المتحرك عليها لا يحس بحركتها وجعل المخلوقين بعضهم على الكفر والشرك وبعضهم على الطاعة من المؤمنين وجعل الجاعل عزّ وجلّ لكل شيء سببا فمن يريد الله أن يهديه للإسلام يشرح صدره للإسلام ومن يريد أن يضلّه يجعل صدره ضيقا حجرا، مصداقا لقوله، تعالى: { فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } 902.

899 الروم 54.

900 الزمر 6.

901 الطلاق 3.

902 الأنعام 125.

ولذا فالهداية نور يرشد إلى الحق والصراط المستقيم والكفر والجهل ظلام لا يوقع إلا في الخُفْر، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} 903.

ولأنّ الجاعل هو الله تعالى فهو على كل شيء قدير يخلق ما يشاء ويجعل ما يشاء جعلاً صالحاً وما يجعله الله وفقاً لمشيئته فلا راد له ولذا لا يستغرب المؤمن أن تغيرت الأحوال والأموال بل لعله يستغرب إن لم تتغير فالذين أشعلت بينهم نار الفتنة والعداوة فالجاعل قادراً على يجعل بينهم مودة، مصداقاً لقوله تعالى: {عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ} 904.

ولأنّ الجاعل فهو المخرج من الهم والغم ولهذا فمن يتق الله ربه يجعل له من أمره يسراً فالجاعل جعل لكل شيء سبباً وجعل لكل شيء قدراً وجعل له مخرجاً، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَاللَّائِي يَتَسَنَّ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} 905.

ولأنّنا نؤمن بأنّه الجاعل جلّ جلاله نعلم أنّه هو الذي جعل كيد أصحاب الفيل في تضليل وذلك بكيدهم لكيدهم ومكره بمكرهم، ونعلم أنّه هو الذي جعل على أصحاب الفيل طيراً أبابيل مرسله

903 النور 40.

904 الممتحنة 7.

905 الطلاق 2. 4.

عليهم ورامية لهم بحجارة من سجيل، وكذلك نعلم أنّ الجاعل هو الذي جعلهم كعصف مأكول مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ} 906.

ولأنّ الجاعل جلّ جلاله؛ فهو الذي جعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وجعل من كلّ شيء معجزة وفي كلّ معجزة حكمة وفي كلّ حكمة نعمة وفي كلّ نعمة سترة وفي كلّ سترة خيرا نافعا، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا} 907.

إذن الجاعل في هذه الآيات هو الذي جعل:

- 1 . الأرض مهادا.
- 2 . الجبال أوتادا.
- 3 . خلقنا أزواجا.
- 4 . نومنا سباتا.
- 5 . الليل لباسا.
- 6 . النهار معاشا.

⁹⁰⁶ الفيل 1 . 5.

⁹⁰⁷ النبا 6 . 13.

7 . بناء السماوات السبع فوق الأرض التي نحن على ظهرها
نعيش ونحيا (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا).

8 . السراج الوهاج.

وعلى الخليفة أن يجعل أمره وحاله ولسانه وسمعه وبصره وعمله
تحت مضلة اسمه الجاعل جلّ جلاله، وأن لا يجعل الحياة مبلغ همه ولا
ينسى نصيبه منها أيضا، وأن يجعل ما يملك من مُلك وما يُرزق من
رزقٍ في أوجهه التي هي في مرضاة الله تعالى وأن يجعل ممّا يستطيع أن
يجعل ما يفيد ويفيد العباد وأن يجعل أسرته على الحكمة التي بها
يتعظون ويعظون من يتعظ، وأن يجعل تلاميذه وطلبته إن كان مدرسا
على المعلومة التي بها يستفيدون ويستنفعون ويفيدون الآخريين وإن
كان مسؤولا في أي وظيفة أن يجعل الوظيفة التي هو على رأسها خير
وظيفة في أخذ الحقوق وأداء الواجبات وحمل المسؤوليات وأن يتقي الله
رُبّه في الناس والأمانة التي هو متحمّلها أو مُحمّلة له.

ولأنّ الله الجاعل؛ فقد جعل لموسى من أهله من هو أقرب، وكما
طلب بالتمام {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي
وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي} 908.

أي أنّ الله القريب أجاب سؤال موسى بمن هو قريب (أخيه
هارون) وهنا علينا أن نميّز بين القريب الذي هو أقرب إلينا من جبل
الوريد وبين القريب الذي هو الأخ، وبين الأقارب الآخرون.

القريب هو الله جلّ جلاله ولا قريب يماثل قربه؛ فهو القريب من
غير دم وهو القريب من غير مكان وهو القريب من غير زمان إنّه

القريب الذي قربه لا يقاس بعلاقة ولا مسافة ولا سرعة ولا حركة ولا امتداد.

ولذا فقرب الله تعالى ليس بقرب مسافة؛ فلو كان قربه قرب مسافة لكانت المسافة قابلة للقياس وإن قيست كان لقربه بداية ونهاية ولأنّ القريب فقربه لا بداية ولا نهاية تحصره فهو المحيط بكل بداية ونهاية وهو على كلّ شيء قدير.

القريب هو الذي لا شكّ في قربه ولا شيء يخالجه ببعد عن عباده، فهو القريب بصفاته وأفعاله قريب بعلمه وقريب بسمعه وقريب باستجابته وقريب بجبره وعزّته ونصره ومناصرته وقريب بقوّته وقدرته وقريب بهيمنته وسيطرته وقريب بفضله ولذا فهو القريب بكل الصفات الحسنى التي نعرفها والتي لا نعرفها.

ولأنّ القريب فقربه لا يقارن كما أنّ في ذاته لا يقارن وفقا للقاعدة التي تنص على أنّ (الخالق لا يقارن بالمخلوق).

وقد يتساءل البعض كيف نعرفه قريب؟

نقول:

أدعوه فهو السميع المجيب، ولكي يستجيب لك؛ فعليك بالاستجابة له إيمانا صافيا و يقينا كاملا تجده إليك قريب مجيب.

إنّ القريب إليك وليس القريب منك؛ فلو قلت قريب مني لكان للمسافة مقياس وإن قلت قريب إليّ لوجدته أقرب إليك من حبل

الوريد، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} {909}.

ولأنه القريب بذاته فهو القريب برحمته، ولهذا يُدعى ويجب لمن يُريد إصلاحاً في الأرض أمّا الذي يريد إفساداً فيها فلا إجابة له فهو الحقّ يسمع ويعلم ويحيط ولكنّه لا يجيب على من يرتكب الباطل ويفعله، بل هو المبطل لكلّ باطل وهو المحاسب لكلّ مرتكب لباطل، وهو المجازي على كلّ عمل من شأنه أن يدمغ الباطل ويهزقه، قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} {910}.

ولأنه القريب ولا قريب مثله حيث لا مثال له وهو ليس على مثال يرزق من يشاء ويعزّو من يشاء ويذل من يشاء وهو على كلّ شيء قدير فهو الذي أنشأنا في الأرض لنعمّرها وإن أخطأنا فسمح لنا القرب منه بالاستغفار متى شئنا وجعل باب التوبة مفتوح حيث لا فاصل بيننا وبين قربه إلينا، قال تعالى: {وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ} {911}.

قال تعالى: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} {912}، وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا

909 البقرة 186

910 الأعراف 56.

911 هود 61.

912 سبأ 50.

الْإِنْسَانَ وَنَعَلَّمَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
الْوَرِيدِ {913.

ولأنه القريب الذي قربه لا يقاس لعدم قبوله للقياس فقربه لا
تجاربه السرعة وقربه لا تفصله الفواصل، ولذا فقربه ليس بقرب دم ولا
بقرب مصلحة ولا نسب ولا مصاهرة ولا بقرب مكان ولا زمان، بل
قربه قرب الخالق بمخلوقه الذي يعلم بأمره قبل أن يخلقه، ولأنه كذلك
فكيف لا يعلم بحال موسى وهارون، وكيف لا يجب وهو القريب
إليهما جلّ جلاله، إنه علام الغيوب سبحانه جلّ جلاله، قال تعالى:
{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ
وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ وَأَمَّا إِنْ
كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ
كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزْلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةٌ جَحِيمٍ إِنْ هَذَا هُوَ
حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ {914.

وعلى المستخلفين في الأرض أن يكونوا إلى الحقّ قريبين ولا
يكونوا قريبين منه ليكونوا عادلين في الأرض إن حكموا بين الناس
فيما هم فيه يختلفون وأن يكونوا عن الظلم بعيدين حتى يتمكنوا من
رميه ودمغه دون تردد.

وعلى المستخلفين في الأرض إذا أرادوا إصلاحا فيها أن لا يميلوا
إلى قرابة دم أو مكان على باطل فإن مالوا إلى الباطل بعدوا عن
مرضية الله فليتقوا الله فيما يحكمون وما يقولون وما يعملون وما
يفعلون وما يسلكون وما يؤمنون عليه.

⁹¹³ ق 16.

⁹¹⁴ الواقعة 83 . 96.

هارون مقتدرا:

ولأنّ هارون مقتدر؛ فطلبه موسى نصيرا له؛ فهو على معرفة ببني إسرائيل، وله من الحكمة ما له، وهو الودود واللين معهم، وهو أكبره سنًا، ولهذا ارتأه موسى مقتدر على العون؛ فسئل القريب المجيب؛ فأجابه به عونًا مقتدرا. أي أنّ موسى يعلم يقينا أنّ الله هو المقتدر بالمطلق فطلب منه مقتدرا في دائرة الممكن؛ فكانت الإجابة.

وعليه؛ فالمقتدر: هو الله الذي لا ينقصه شيء بالمطلق من الأفعال والصفات الحسنى، والمقتدر اسم صفة من صفاته جلّ جلاله. والاعتدال الإلهي ذاتي لا يستمدّ من أحدٍ؛ أي أنّ المقتدر بالمطلق هو الله تعالى بذاته فهو:

. بملكه مقتدر.

. بأمره (كن) مقتدر.

. بعلمه للغيب والشهادة مقتدر.

. بخلقه مقتدر.

. بإحيائه مقتدر.

. بإماتته للأحياء مقتدر.

. ببعثه للأمم مقتدر.

. بالنار مقتدر.

. بالجنة مقتدر.

. بحسابه وثوابه وعقابه مقتدر.

- . بالأنس مقتدر.
 - . بالجنّ مقتدر.
 - . بالملائكة مقتدر.
 - . بما نعلم من مخلوقات وما لا نعلم مقتدر.
 - . بالحركة والسكون مقتدر.
 - . باصطفائه الأنبياء والرسل مقتدر.
 - . بكتبه ورسالاته مقتدر.
 - . بطوفانه وغرقه مقتدر.
 - . بريجه مقتدر.
 - . بسحابه ومطره مقتدر.
 - . برعدة وبرقه وصواعقه مقتدر.
 - . بسماواته وأرضيه مقتدر.
 - . بعزته وقدرته وقوته وجبروته وبكلّ أفعاله وصفاته الحسنی مقتدر.
 - . وبنعمه التي لا تُحصى مقتدر.
- ولذا فالمقتدر: "الذي لا قادر غيره ولا خير إلا خيره"915.

ولأنّهُ المقتدر فلا غالب له؛ ولهذا فالذين كذَّبوا بآيات الله تعالى أخذهم المقتدر عزّ وجلّ أخذا قويا وألما شديدا وذلة لا مثيل لها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ

⁹¹⁵ تفسير الألوسي، ج 16، ص 451.

عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ {916، أي أنّ تكذيب آل فرعون لآيات الله عزّ وجلّ كانت عاقبتهم شديدة جدا فأخذوا وهم على غير مقدرة للمقاومة أو حتى التصرف في أمرهم.

ولأنّهُ المقتدر تسليمًا؛ فهو المؤيد والمناصر والنصير لمن جاءه مسلما، وهو المكيد لمن يكيد كيدا، وهو الماكر بمكر الماكرين بخيره في المكر العظيم، ولذا فهو خير الماكرين باقتداره جلّ جلاله.

ولأنّهُ المقتدر فما من كبيرة ولا صغيرة إلا بأمره وتحت هيمنته بالقوّة والقدرة، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} {917.

ولأنّهُ المقتدر فما من كبيرة ولا صغيرة إلا وهي مُسَطَّرَةٌ في رسالات أنبيائه ورُسله الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، قال تعالى: {وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ} {918. من هذه الآيات الكريمات يفهم أن المقتدر هو من لا يغفل ولا ينسى ولا تأخذه سنة ولا نوم وهو على كل شيء شهيدا وقديرا، وهو الذي يعلم بأمر كل دابة في الأرض وهو رازقها رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها وكل شيء في كتاب مبين، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا

916 القمر 41، 42.

917 الأنعام 59.

918 القمر 53-55.

سِحْرٌ مُّبِينٌ وَلَئِنِ أَخْرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَلَئِنِ أَدْفَنَّا الْإِنْسَانَ مِمَّا رَحْمَةً مِنَّا ثُمَّ نَرَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهٗ لَيَكْفُرُ كُفُورًا وَلَئِنِ أَدْفَنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَّاءَ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهٗ لَفَرِحَ فَخُورًا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ {919}.

ولأنَّ المتقين هم المسلمون بأنَّه لا مقتدر غير الله، فلهم من المقتدر العظيم التواب العظيم، (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَهَرٍ فِي مَفْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ) أي أنَّ المسلمين وجوههم لله المقتدر هم في جنات النعيم الوافر الذي نعمه لا تُحصى وأنهاره لا تُحصى ونهاره لا يغيب وهم في الحفظ والسَّلامة عند ملكٍ مقتدر على كلِّ شيء وبكلِّ شيء سبحانه أنَّه المقتدر الأعظم جلَّ جلاله.

ولأنَّه المقتدر بالرحمة؛ فهو المقتدر بالشدَّة أيضاً، قال تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا آتَيْنَاهَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا {920}.

الحياة الدنيا تبقي وتزول:

. تبقى أعمال مقيدة على ظهور أصحابها.

. وتزول بنهايتها من الوجود بالموت والبعث من بعده.

ولهذا فلماذا التفاخر بالحياة الدنيا الزائلة؛ فكثيرون هم عاشوا في الدنيا وعتوا فيها فسادا، وانتهوا دون أسفٍ عليهم؛ فهم لم يكونوا

⁹¹⁹ هود 6 . 11.

⁹²⁰ الكهف 45.

أسوة حسنة ليهتدي النَّاس على سبيل الفضائل والقيم التي كانوا يتحلَّون بها في مرضاة الله تعالى.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يكون مقتدرا على الخير وأفعاله طاعة وإيمانا بالمقتدر الأعظم جلّ جلاله، ولكي يكون الخليفة مقتدرا فعليه بتأهيل نفسه على الطّاعة للمقتدر المطلق، وتأهيلها حتى تلمّ بمقاليد القوّة والقدرة في دائرة الممكن ليقوى عودها فتُصلح وتعمّر وتبني وتعمل الصالحات والمصلحات النافعات التي تفيد العباد والبلاد، ولا ينبغي أن تكون النفس من المستهلكين الذين يجلسون على قارعة الطريق وأرصفة الشوارع بطالة وهم صاغرُ الأنفس.

وفاة هارون:

قال السدّي: "أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى: أيّ متوفي هارون، فأث به جبل كذا وكذا؛ فانطلق موسى وهارون نحو الجبل، فإذا هما بشجر لم ير شجر مثلها، وإذا بيت مبني فيه سرير عليه فرش، وإذا فيه ريح طيبة فلما نظر هارون إلى ذلك بجنبه أعجبه وقال: يا موسى إنّي أحبّ أن أنام على هذا السرير، قال: فتم عليه، فقال: إنّي أخاف أن يأتي ربّ هذا البيت فيغضب عليّ، قال له موسى: لا، أنا أكفيك ربّ هذا البيت فتم، قال: يا موسى بل نم معي فإن جاء ربّ البيت غضب عليّ وعليك جميعا، فلما ناما أخذ هارون الموت، فلما وجد حتفه قال: يا موسى خذ عيني؛ فلما قبض رُفع ذلك البيت وذهبت تلك الشجرة، ورفع السرير إلى السّماء، فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون، قالوا: إنّ موسى قتل هارون وحسده حبّ بني إسرائيل له، فقال موسى: ويحكم فإنّ أخي أمر ولن أقتله فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين ثمّ دعا الله فنزل السرير حتى نظروا إليه

بين السماء والأرض فصدّقه "921. مع العلم هناك آراء مخالفة ولكن
لا يقين بما أنّه لم يرد نصّاً في كتاب الله.

والحمد لله ربّ العالمين

⁹²¹ تفسير التعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 4، ص 45.